

تركيب الرقيم السومري للنشر والتوزيع

2026

حكايات من الطور الاسفل

تأتي مجموعة «حكايات من الطور الأسفل» لتنزل إلى أعماق القاع العراقي، منصتةً لإنكسارات المهمشين والمنسيين وسط متناقضات الموت والحياة؛ لتخطف روح الوطن من النسيان عبر تفاصيل بشرٍ عاديين يصنعون تاريخهم اليومي.

الطبعة : الاولى

<https://sss-publisher.com/>

أَعِدَّ بواسطة
رياض سعد

حِکَايَاتِ مِنْ الطُّورِ الْأَسْفَلِ

حِكَايَاتُ مِنْ الطُّورِ الْأَسْفَلِ
رياض سعد
التصنيف : الادب والرويات
الطبعة: الاولى

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (بلا) لسنة (بلا)

ISBN: 978-9922-5524-60

DOI: 10.62909/978.9922.5524.60



دار تركيب الرقيم السومري للطباعة والتوزيع والنشر الالكتروني
العراق - ديالى - بعقوبه - شارع الاوقاف
هاتف : 07775262892

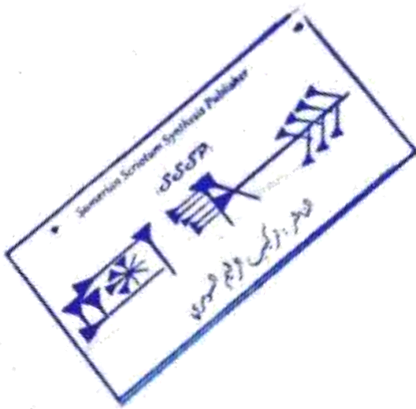
manager@sss-publisher.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو وسيلة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

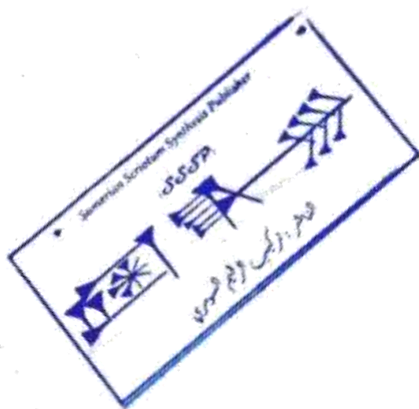
جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حِكَايَاتُ مَنْ الطُّورِ الْأَسْفَلِ

رياض سعد



2026



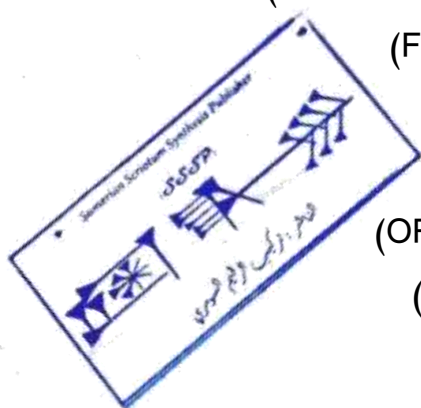
تنفيذ الكتاب
معهد الترجمة والكتاب
«ماليزيا»

تصميم الغلاف
معهد التكنولوجيا
«الهند»

مراجعة لغوية
الدكتور مهند محمد كاظم
«العراق»

التوزيع والنشر الإلكتروني ، تمت فهرسة هذا الكتاب في عدد من
الفهارس والمنصات الدولية، منها:

(CrossRef)	كروس ريف
(OpenAlex)	أوبن ألكس
(OUCI)	مؤشر الاقتباس المفتوح الأوكراني
(ROAR)	سجل مستودعات الوصول المفتوح
(Semantic Scholar)	سيمنتك سكولار
(Dimensions)	دايمنشنز
(ResearchGate)	ريسرش غيت
(Fatcat)	فات كات
(IAS)	المعيار الدولي للترقيم
(SCI)	مؤشر الاستشهاد العلمي
(ORCID)	أوركيد
(Scilit)	سايليت



الموقع الرسمي لدار النشر الرقيم السومري للنشر والتوزيع

يتوفر هذا الكتاب عبر الموقع الرسمي لدار النشر، مع تخصيص مُعرّف رقمي دائم (DOI)

خاص به: <https://doi.org/10.62909/978.9922.5524.60>



حكايات من الطور الاسفل

مقدمة

بعد صدور مجموعتي القصصية الأولى **«نسخ غير منقحة من الحياة»**، التي حاولت فيها الاقتراب من الإنسان العراقي بوصفه كائنًا يعيش بين الواقع وأوهامه، بين اليومي والهامشي، بين ما يُقال وما يُترك للصمت، تأتي هذه المجموعة الثانية، **«حكايات من الطور الأسفل»** ؛ امتدادًا لانشغالي بالإنسان العراقي، لا بوصفه بطلاً استثنائيًا، بل بوصفه كائنًا يعيش في منطقة ملتبسة تتداخل فيها القداسة مع الخطيئة، والإيمان مع الخرافة، والحب مع العنف، والحياة مع الموت... ؛ لنواصل رحلة الانسان من زاوية أكثر اقترابًا من القاع؛ قاع المدينة، وقاع الذاكرة، وقاع النفس البشرية.

تضم هذه المجموعة أربعًا وأربعين قصة قصيرة ومتوسطة، لا يجمعها بطل واحد، ولا زمن واحد، ولا مصير واحد، لكنها تنتمي جميعًا إلى جغرافيا واحدة؛ العراق، ذلك المكان الذي لا يكف عن إنجاب الحكايات، حتى في

أكثر لحظاته ظلمة... ؛ فهنا تتجاوز المآذن مع المقابر، والمقاهي مع
ساحات القتال، والطفولة مع اليتيم، والرغبة مع الخوف، والسحر مع
الدين، والذاكرة مع النسيان.

لا تسعى هذه القصص إلى إصدار الأحكام، ولا إلى تبرئة أحد أو إدانته،
وإنما تحاول أن تنصت إلى الأصوات التي كثيراً ما بقيت خارج السرديات
الكبرى؛ أصوات الجنود الذين عادوا وهم يحملون حروبهم في داخلهم،
والأمهات اللواتي انتظرن أبناءً لم يعودوا، والأيتام الذين كبروا قبل أوانهم،
وسكان الأزقة والمقاهي والأسواق، وأولئك الذين عاشوا على هامش المدن،
أو في قاعها، حيث تتعري النفس البشرية من كثير من أقنعتها.

إن الدين في هذه القصص ليس موضوعاً للوعظ، والسحر ليس وسيلة
للإدهاش، والجنس ليس استفزازاً، والموت ليس خاتمة للحياة، بل جميعها
عناصر من التجربة الإنسانية العراقية، تتشابك داخل الشخصية الواحدة
كما تتشابك داخل المجتمع نفسه... ؛ ففي العراق، كثيراً ما جاور الضريحُ

الخرابة، ورافق الدعاء الرصاصة، وسكن الخوف إلى جوار الأمل، حتى
غدت الحياة نفسها خليطاً من المتناقضات التي يصعب فصلها.

أما **«الطور الأسفل»**، فهو ليس مكاناً جغرافياً فحسب، إنما استعارة
لعالم كامل يعيش تحت السطح؛ عالم المهمشين، والمنسيين، والمكسورين،
والباحثين عن معنى وسط الخراب... ؛ إنه الجانب الذي قلما تلتفت إليه
الكتب، مع أنه يحمل في داخله ما يكفي من الحكايات لتفسير مدينة
بأكملها، وربما وطن بأسره.

ولعل القاسم المشترك بين هذه القصص جميعاً هو إيمانها بأن الأدب لا يغير
الماضي، لكنه يمنحه صوتاً، ولا يعيد الموتى، لكنه يحفظ أسماءهم من
النسيان، ولا يداوي الجراح، لكنه يجعلها أكثر قابلية للفهم... ؛ لذلك لم
تُكتب هذه الحكايات لتكون وثائق أو شهادات أو مرافعات، وإنما كُتبت
لأن الإنسان، في نهاية المطاف، لا يعيش بما حدث له فقط، بل بالطريقة
التي يروي بها ما حدث.

لا تدّعي هذه القصص أنها تؤرخ للعراق، لكنها تحاول أن تحفظ شيئاً من روحه؛ فالوقائع الكبرى كثيراً ما تكتبها الوثائق، أما التفاصيل الصغيرة التي عاشها الناس، وانكساراتهم الصامتة، وأحاديثهم في المقاهي، وطقوسهم، ومخاوفهم، وخرافاتهم، فهي غالباً ما تجد مأواها الأخير في الأدب.

لقد آمنت دائماً بأن القصة القصيرة ليست مجرد حدث يُروى، بل حياة كاملة تُرى من ثقب صغير... ؛ ولذلك فإن شخصيات هذه المجموعة ليست أبطالاً خارقين، وإنما بشر عاديون، يصنعون مآسيهم وأفراحهم في الأزقة والأسواق والمعسكرات والمقابر والبيوت الفقيرة، ويتكون وراءهم حكايات قد تبدو فردية، لكنها في جوهرها جزء من السيرة الكبرى للعراق. إن **«حكايات من الطور الأسفل»** ليست بحثاً عن البطولة، ولا محاكمةً للماضي، ولا دفاعاً عن أحد، وإنما محاولة للإصغاء إلى الأصوات التي بقيت طويلاً في الظل؛ أصوات الذين عاشوا على هامش التاريخ، بينما كانوا في الحقيقة يصنعون تاريخه اليومي.

وإذا كانت **«نسخ غير منقحة من الحياة»** قد انشغلت بمسودات
الإنسان، فإن **«حكايات من الطور الأسفل»** تنزل درجةً أخرى إلى
الأعماق، حيث لا يبقى للإنسان سوى حكايته.

الناجون الذين لم ينجوا (1)

أعيا السَّهْدُ وخوفُ المجهول "خير الله محمد"، فقد سئم الأرق والوجل؛ إذ يقضي ليله ساهراً ونهاره متوجساً، كأنَّه ذئبٌ برِّيٌّ لا ينام إلا وإحدى عينيه مفتوحة .

كان خيرُ الله محمد يؤمن أن الإنسان قد يهرب من السجن، لكنه قد يعجز عن الهرب من السجّان الذي يسكن داخله.

لم يكن الأرق يزوره ليلاً فحسب ، بل كان يقيم عنده إقامةً دائمة؛ فإذا أغمض عينيه، وقف على أبواب ذاكرته طابورٌ طويل من الوجوه الغائبة، بعضها مات، وبعضها اختفى، وبعضها بقي حيّاً، لكنه لم يعد كما كان.

**** عهد الرعب وتشوّه الطفولة والمراهقة**

انخرط خير الله منذ مراهقته في ثمانينيات القرن المنصرم مع المجاميع الدينية، فشهد قسوة الأجهزة القمعية ووحشية عُتاة البعث ورجال الأمن والمخابرات... ؛ لقد تحالف الجميع ضد المواطنين الملتزمين دينياً من أبناء الأغلبية العراقية.

رأى بأمّ عينه كيف يُعدم الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره، ثم
تُسَلَّم جثته إلى أهله مجبرين على عدم إقامة مجلس عزاء، بل ومطالبين بدفع
ثمن الرصاص الذي اختزق جسده أو الحبل الذي شُنق به... !

كما شاهد صبياناً بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة يُساقون إلى المعتقلات
لمجرد ترددّهم على المساجد والحسينيات... ؛ لم تكن تلك الحملات حماية
للأمن الوطني، بل كانت تصفيةً وجودية وطائفية لا صلة لها بأمن البلاد
من قريب أو بعيد.

عاش زمنًا كانت فيه الكلمة تُراقب، والخطوة تُحصى، والهمسة قد تتحول
إلى تهمة، والشك يكفي ليصنع مأساة كاملة... ؛ رأى بأمّ عينه كيف
يمكن للخوف أن يصبح نظامًا للحياة، وكيف يتحول الناس إلى ظلال
تمشي على الأرض، تخشى أن ترفع رؤوسها نحو السماء.

وطالما تناهت إلى سمعه، من الشباب الملتزمين دينيًا، ممن يكبرونه بعدة
سنوات أو بعقدٍ ونيف، رواياتٌ عن تعذيب المتدينين في المعتقلات البعثية؛
من قبيل كيّ الأجساد بالمكاوي الكهربائية، وقلع الأظافر بآلة «البلايس»،

وغير ذلك من صنوف التعذيب القاسية... ؛ كما كان يسمع رواياتٍ عن اغتصاب النساء، بمن فيهن المؤمنات والعلويات، وغيرها من القصص المرعبة التي كانت تُتداول آنذاك، والتي تركت في نفسه أثرًا بالغًا ورسخت لديه صورةً مرعبة عن بطش أجهزة النظام الصدامي .

كل هذه المشاهد المأساوية عاشها خيرُ الله محمد... ؛ وبينما كان عائداً من مدرسته -وكان وقتها في الصف الثالث المتوسط- إلى البيت ... ؛ استوقفه مشهدٌ لم يغادره حتى آخر العمر.

اذ أبصر سيارة شرطة تقبض على شاب في مقتبل العمر، فارح الطول، حسن الهندام...

يقاد بعنف إلى صندوق سيارة الشرطة .. , حاول أن يقاوم، لكن القوة كانت أسبق من إرادته ...

أقحم رجال الشرطة رأسه بقسوة في صندوق السيارة، وضغطوا على صندوق السيارة المفتوح بكل ثقلهم حتى انثنت ساقاه وتكسرت قدماه؛ كان هذا عقاباً سادياً لمجرد أنه يرتدي زي "البرمودا" وقتذاك ... !

وقف خير الله مذهولاً، وتساءل في قرارة نفسه:

"أُطبّق هذه الفظائع في كل مدن العراق، أم أن لمدينة 'الثورة' حصّة الأسد من هذا الجحيم؟!"

عاش حيرةً وجودية خانقة: ماذا تريد السلطة من أبناء هذه المدينة بل من الشيعة قاطبة؟!

إن التزموا بالدين اعتقلوا، وإن واكبوا الموضّة كُسرت أقدامهم، وإن التحقوا بالجيش سيموا سوء العذاب، وإن هربوا أُعدموا!

** المواجهة: بين مثالية العقيدة وواقعية البقاء

أورثت هذه التساؤلات خير الله قلقاً نفسياً حاداً... ؛ وما إن ولج بيته يوماً حتى وجد أباه برفقة "أبي عدنان"، شقيق الملا سلمان الذي أعدمه النظام بتهمة التدين.

- خير الله: "السلام عليكم.. كيف حالك يا عمي أبا عدنان؟"

- أبو عدنان (بنبرة منكسرة): "الحمد لله يا بني.. أنصحك نصيحة لوجه الله: اترك هذا الطريق، دع الصلاة والتدين علناً.. ، أنت ما زلت في مقتبل العمر، لا تُلْقِ بنفسك إلى التهلكة كما فعل أخي ملا سلمان."

- خير الله (بحماس الشباب): "يا عمي، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق!"

وأخوك بطلٌ شهيد قتل في سبيل الله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

- أبو عدنان (بمرارة تفطر القلب): "عن أي جنة تتحدث يا بني في هذا المسلخ البشري؟!"

ما الذي جناه ملا سلمان من دينه سوى التعذيب والموت؟!

يا جنة يا نار؟!

انظر إلى بناته الخمس، يتامى بلا ناصر، وزوجته التي يمزق نواحيها الصمت

كل ليلة!"

- خير الله: "وأين دورك أنت يا أبا عدنان؟ أليست هذه عائلة أخيك؟

أين الغيرة والمروءة؟"

- أبو عدنان (مستشيطاً غضباً): "أأنت في هذا العمر تُعلمني الأصول

وتوصيني بلحمي ودمي؟!

أنت مجنون؟!

والدك يعلم أنني أكدح ليل نهار لأعيل عائلتين ؛ في سباق مع الزمن من

أجل توفير لقمة العيش.. , وكل هذا البلاء بسبب اندفاعكم الأعمى باسم

الدين!"

- خير الله: "بل بسبب صدام المجرم!"

انتفض الأب وأبو عدنان ذعراً، وصرخا في وجهه: "اسكت!

تباً لك أتريد أن تقتلنا جميعاً بطيشك؟!"

انسحب خير الله إلى غرفته، يلوذ بالصلاة والذكر، وقرأ الفاتحة على روح

الملا سلمان، باحثاً عن سكينة روحية وسط عالم متآكل.

حين تشتد المصائب، يكتشف الإنسان أن البطولة ليست قراراً واحداً، بل

سلسلة طويلة من الأثمان...

** ميثافيزيقيا المكان: اجواء "كسرة وعطش"

في العطلة الصيفية، بحث خير الله عن عمل يعينه على عزة نفسه ... ؛

ذهب خير الله إلى أحد أقاربه واسمه جمعة، وتوسل إليه من أجل إيجاد عمل

له... ؛ جاء جمعة بوجهه البشوش وغيرته الجنوبية المعهودة، يبشر خير الله

بالعمل الجديد في الحي الصناعي، في منطقة "كسرة وعطش"، في إحدى

ورش السمكرة.

سارت الأمور على ما يرام، وفرح خير الله بكسبه الحلال، لكن المكان كان
يفيض بطاقة سلبية ثقيلة.

كان المكان يعج بالضجيج، ورائحة الحديد المحترق، وأحاديث الرجال
الذين أنهكتهم الحياة...

تعلم هناك حقيقة غريبة: أن الأمكنة ليست جدراناً فقط، بل أرواحٌ خفية.

فرائحة المسجد ليست كرائحة السوق، وصمت البيت ليس كصمت
الورشة، وبعض الأماكن تُثبت الرحمة في القلب، وبعضها يزرع القسوة دون
أن يشعر المرء.

قال له جمعة يوماً:

- خير الله مولاي، كيف حالك؟

أرجو أن تكون بخير... هل تستطيع التكيف مع أجواء كسرة وعطش؟!

أنا وإياك في هذه البيئة مثل صالح في ثمود، هؤلاء أغلبهم سريرية، لا
يحللون ولا يحرمون، ويشربون الخمر بالقندرة ... ؛ أغلب من حولنا
يعيشون في انحلال أخلاقي، ولا يرقبون في الله إلاّ ولا ذمة...

-خير الله: معاذ الله، الله يبعدنا عن شرهم.

-جمعة: خير الله، هل تناولت الغداء؟

-خير الله: لا، أنتظر أستاذي يأتي لنا بالغداء من بيته.

-جمعة: تعال معي إلى المطعم، إني اليوم عازمك يا مولاي على قوزي...

ذهبا إلى المطعم الكبير في الحي الصناعي، وقد جاء النادل بأطباق كثيرة
وشهية... ؛ لأول مرة يدخل خير الله مطعماً، ولأول مرة يذوق طعم

القوزي وبهذه الوفرة من اللحم...

ولكن هذا لا يعني أن بيت خير الله كان يخلو من الطعام الشهوي واللحم ،

فقد كانوا ميسوري الحال، ولكنه كان لا يشتهي الطعام ودائم الصيام، كان

يفكر أكثر مما يأكل، مما أثر على نموه الجسدي فيما بعد.

في تلك اللحظة، شعر باختراق باراسيكولوجي غريب؛ شعر بجسده يثقل،
وبطاقة المكان المادية تدنس شفافيته الروحية... ؛ أدرك أن للمطاعم
والمصانع ظلالاً طاقية تختلف عن ظلال المساجد والبيوت الهادئة ؛ فالمكان
يمتص أرواح ساكنيه ويفيض بها على الزائرين.

وكان جمعة , يقول له دائماً: خير الله لا تسمح للرزق أن يغير قلبك،
فالفقر أخف من فساد الروح.

**** اختفاء الأجساد وتحول النفوس**

بعد عدة أيام، اختفى جمعة... ؛ اختفى جمعة كما تختفي النجوم عند
الفجر؛ نعرف أنها كانت هنا، لكننا نعجز عن تحديد اللحظة التي غابت
فيها...

وظلَّ خيرُ الله يجهل الحقيقة طوال تلك المدة، إلى أن جاء يومٌ استدعاه فيه
والده وأبلغه بالفاجعة، قائلاً:

- لقد حاصر عناصر الأمن بيته عند الساعة صباحاً، واقتادوه بركلات
وصفعات إلى سيارة لاندكروزر بيضاء، وهو يقاومهم كالجبل الشامخ ، و
يردها بيده ، كما نقل الجيران.. ، قبل أن يغيب الأثر.

بكى خير الله بكاءً مرّاً... ؛ ثم ذهب إلى حامد (شقيق جمعة) يتلمس
أملًا: ألا توجد واسطة؟

أجابه حامد بيأس:

- طرقتنا أبواب الرفاق والتكارتة.. ، بعضهم خاف، وبعضهم ابتزنا بالمال
دون جدوى.. ، وبعضهم لم يكتفِ بزجرنا ونهرنا، بل عاملنا كأننا
مجرمون...!!

لقد سلمنا أمرنا للواحد القهار، هؤلاء يلتهمون البشر ويقتاتون على اموال
واهات و دموع ذويهم بالمواعيد الكاذبة.

ثم ذهب الأشر والسنين، وسقط النظام، وجمعة ذو الوجه البشوش،
والغيرة العراقية، والنخوة الجنوبية، لم يعد ولم يُعثر له على أثر، كأنه فص ملح
ذاب في الماء.

جاءه يوماً "صباح الدليمي" (صاحب ورشة تصليح كهربائيات السيارات)
وقال بابتسامة صفراء و تتطير من عينيه الشرر:

- "انظر يا خير الله.. أين جمعة الآن؟

بالتأكيد أبناء جلدتكم الشيعة هم من وشوا به.. , ذهب مع الراحلين
ولن يعود.. ؛ احذر على نفسك!"

ومنذ تلك اللحظة، صار خير الله يحتقر صباحاً احتقاراً بالغاً ، ولا يثق به
مطلقاً، لا سيما وأنه سمعه في أحد الأيام ينادي على أبي علي بائع الشاي:
"لك اسمع يا أبا علي، ألا نذبحكم أنتم شيعة، وين تروحون منا؟" وهو
يطلق فقههاته، وكان الشيعي لا يجرؤ على مثل هذا المزاح، وإن تجرأ يُعتقل
فوراً في غياهب السجون.

استمر خير الله بالعمل داخل الحي الصناعي، إلا أن أخلاقه بدأت تتغير شيئاً فشيئاً، وقناعاته بدأت تتزعزع، لا سيما بعد اعتقال جمعة... ؛ وكل العاملين في الحي الصناعي أصبحوا لا يذكرون اسم جمعة إلا همساً، والبعض الآخر لا يذكره أصلاً، كأنه مات منذ عقود، وكأنه لم يكن زميلهم في العمل في أحد الأيام... ؛ وهنا أدرك خير الله أن الاستبداد لا يكفي بأخذ الأجساد، بل يأخذ الأسماء أيضاً.

**** السقوط الروحي والته الوجودي**

كان ملاذ خير الله الروحي صديقٌ يدعى "سعد" في منطقة الأورفلي...
اذ يذهب خير الله يومياً بعد الرجوع إلى البيت وبعد أداء صلاة العشاء إلى صديقه سعد... ؛ وكان سعد متديناً شجاعاً، صائماً قائماً، لا يذكر الناس إلا بالخير، دائم الابتسامة، يساعد الناس لا سيما عوائل الشهداء والسجناء من الملتزمين دينياً... ؛ كان سعد يعمل في محل لبيع الأدوات الاحتياطية في الحي الصناعي في باب الشيخ... ؛ ولأنه واضح، كانت عيون الذئاب الصدامية والضباع البعثية لا تخطئه.

وفي احد الايام قال سعد : خير الله، سوف أعلمك سرّاً لنفي الفقر.

-خير الله: وما هو؟

-سعد: تقرأ سورة الماعون إحدى وأربعين مرة في مجلس واحد، وأنت طاهر

البدن والثياب.

-فعلها خير الله، ولم يفتقر أبداً.

-سعد : وتذكر يا خير الله , إن أغنى الناس ليس من يملك المال، بل من

يملك الطمأنينة.

ابتسم خير الله، ولم يكن يعلم أنها آخر مرة يرى فيها تلك الابتسامة.

ففي أحد الأيام، وبينما كان يعبر من منطقة الحبيبة إلى منطقة الأورفلي

لزيارة سعد ، وإذا بالحلاق حسين ينادي عليه.

- خير الله... اسمعني، إياك أن تذهب إلى بيت سعد الآن، ارجع إلى

بيتكم فوراً.

-خير الله: حسين، ما الخير؟ خير؟ ماذا حدث؟ أخبرني.

-حسين: اعتقلوا سعد من مكان عمله، وعناصر الأمن الآن في بيت

سعد، كل شخص يطرق باب بيت سعد يُعتقل.

ضاقَت الدنيا بعيني خير الله بما رحبت.

وأُسْرِعَت الأيام، وبدأ خير الله يسأل الحلاق حسين عن أخبار سعد، فلم

يكن من خبر كالعادة.

-حسين: خير الله، من من الذين اعتقلهم الأمن خرجوا؟

أو عرفنا عنهم شيئاً؟

إنهم عندما يدخلون الأمن كأنما يدخلون في أجداث الثرى، لا أحد يعرف

عنهم شيئاً أبداً.

-خير الله: فعلاً يا حسين، كأن المعتقلين كالأموات، إن ذهبوا لا يعودوا

إلى عالم الدنيا أبداً.

ومنذ ذلك اليوم، صار خير الله يخاف الطرقات الليلية، ويخاف رنين الهاتف، ويخاف الوجوه الجديدة، بل ويخاف أن يعتاد الطمأنينة والثقة بالناس والظروف ...

****الانتفاضة العراقية عام 1991... لحظة الانفجار الشعبي**

وبعد انكسار نظام المجرم صدام في أعقاب حرب الخليج الثانية، وتراجع قوات الجيش من جبهات القتال، اندلعت الانتفاضة الشعبية في اغلب المدن والقربالعراقية... ؛ وسرعان ما خرجت الجماهير، ومعظمها من المدنيين العزل، إلى الشوارع والساحات، واتجهت إلى مراكز الشرطة والسجون والمعتقلات ودوائر الأمن والمخابرات ومقار الأجهزة الحكومية، وهي تهتف بشعاراتٍ عبّرت عن غضبها وتطلعها إلى الخلاص من سنوات القمع والاستبداد، ومنها:

«يا بغداد دوري دوري، خل صدام يلحك نوري.»

و: «ماكو ولي إلا علي، ونريد حاكم جعفري.»

كما رددت الجماهير:

«أيامكم كلها ظلم... كواويد بعثية»

وسقطت محافظة تلو الأخرى بيد المنتفضين، بينما بقيت مناطق أخرى خارج سيطرة الانتفاضة لأسباب سياسية واجتماعية وعسكرية وطائفية وعنصرية معقدة.

وشعر كثير من العراقيين، ولو للحظات، بأنهم استعادوا شيئاً من كرامتهم بعد سنوات طويلة من الخوف والبطش.

ولأول مرة، أحسَّ خيرُ الله بخفة الحرية وحلاوة النضال، فانطلق يركض مع الجماهير في شارع الداخل، مردداً معهم: «لا إله إلا الله... صدام عدو الله.»

لكن نشوة الانتصار لم تعش طويلاً.. , فما إن أشرقت شمس الأيام التالية حتى تبدلت ملامح المشهد، وبدأت تتردد بين الناس أحاديثٌ عن تبدل

موازن القوى، وعن توافقاتٍ إقليمية ودولية تركت النظام يلتقط أنفاسه
ويعيد ترتيب صفوفه...

كان كثيرون يعتقدون أن الضوء الأخضر قد مُنح له كي يستعيد المدن
بكل ما يملك من قوة، وأن أحدًا لن يقف في وجه حملته الاجرامية القادمة.
وسرعان ما تحولت تلك المخاوف إلى واقعٍ مرير... ؛ فقد اندفعت
الدبابات والمدرعات نحو المدن المنتفضة، وتعالّت أصوات المدافع فوق
أصوات الهتافات التي ملأت الساحات قبل أيام قليلة.. ، واختفى الفرح
الذي ارتسم على الوجوه، ليحل محله الذعر، فيما راحت العائلات تبحث
عن ملاذٍ يقيها نار المعارك والمجازر الدموية .

وفي الأسابيع التي تلت الانتفاضة ، شهدت مناطق واسعة من العراق
حملات قمع دامية، سقط فيها آلاف القتلى والمفقودين والجرحى ،
وامتلأت السجون من جديد، واضطر كثير من السكان إلى النزوح أو
الفرار... ؛ ولم يبقَ في ذاكرة الناجين سوى صور الدخان، وبيوتٍ خلت

من أهلها، وأمها تـ ينتظرن أبناءً لم يعودوا، وأطفالٌ كبروا قبل أوانهم وهم يحملون في ذاكرتهم رائحة الموت أكثر مما يحملون من ذكريات الطفولة...

بعد أربعة أشهر، وبالتحديد بعد قمع انتفاضة ١٩٩١ ، خلد خير الله إلى نوم عميق، إلا أنه استيقظ مدعوراً إثر سماع صوت إطلاق نار.

-خير الله: أبي، أبي، هل سمعت تلك الإطلاقات النارية؟

-الأب: نعم سمعتها، نم يا بني، لا عليك، الصباح رباح.

إلا أن خير الله لم ينم.. ؛ وعندما أشرقت الشمس، طرق ميثم الباب ليروي له كرامة ممزوجة بمأساة ، فخرج خير الله.

-ميثم: خير الله، هل علمت ماذا حصل بالأمس؟

-خير الله: لا.

-ميثم: جاءت عناصر الأمن ودخلت إلى بيت صديقك محمد عباس، وقرأ
الآية القرآنية الكريمة: {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً
فأغشيناهم فهم لا يبصرون}، وخرج أمام عناصر الأمن فلم يروه، وقد
شهد بذلك أخوه علي... ؛ إلا أنه عندما خرج سمعوا وقع أقدامه، فساروا
باتجاه الصوت، فما كان من محمد إلا أن عبر سور بيت أبي نجم ودخل
فيه... وعندما شاهده أبو نجم قال: ماذا تفعل يا محمد هنا؟

-محمد: يا عمي، عناصر الأمن يركضون خلفي، ما إن يذهبوا حتى أخرج.
-أبو نجم: محمد، استر علينا، نحن أصحاب عوائل، اخرج من البيت فوراً،
الأمن ذهبوا، لا يبقوا إلى هذه اللحظة.

خرج محمد وتم رصده من ذئاب الأمن الكاسرة، ثم هرب يركض باتجاه أزقة
الحبيبة، فأطلقوا النار عليه وسقط جريحاً... ؛ حملوه في سيارة الأمن وهو
مصاب، ووجوههم استبشرت كأنهم حرروا القدس كما يدعون.

-خير الله: ميثم، أنا وأنت كنا مع محمد قبل ثلاثة أيام، وقد أعطيته كتاب الاحتجاج.

-ميثم: طبعاً أتذكر، وماذا في ذلك؟

-خير الله: أخاف أن يعترف علينا بسبب التعذيب.

-ميثم: لا تحف يا خير الله، محمد رجل شجاع، ولا أعتقد أنه يعترف بشيء..

ومضت السنين، وسقط النظام، ولم يُعرف شيء عن سعد أو محمد أو غيرهما ، كأنهم ذابوا في أحواض التيزاب كما يشاع.

** النهاية: صك النجاة الزائف

استسلم خير الله لغريزة البقاء؛ وانكب على كتابة طلاسـم الحفظ وقراءة الآيات لحماية جسده الفاني من الهلاك... ؛ ومع مرور الأيام، وبفعل مخالطة السفلة والأوباش في "كسرة وعطش"، بدأت قناعاته تتزلزل، وأخلاقه تتآكل، وعقيدته تذبل...

وفي عام 2003، سقط النظام البعثي الصدامي...

نظر خير الله إلى نفسه في المرأة؛ نعم، لقد نجح في حماية جسده من
الاعتقال والموت بفضل حذره وطلاسمه... ؛ لكنه وقف أمام حقيقة
وجودية مريرة: لقد نجا الجسد، ولكنه خسر الروح والدين والأخلاق في
مسيرة البقاء الطاحنة.

كان يظن أن الإيمان حصنٌ لا يُهدم، حتى أدرك أن الخوف إذا طال مقامه
في القلب، بدأ يقطع من اليقين قطعةً بعد أخرى، دون أن يشعر
الإنسان...

جلس ذات مساء أمام المرأة.

لم يرَ وجهه فقط.

رأى كل الغائبين الذين مروا في حياته.

ورأى نفسه بينهم.

ثم خطر في باله سؤال لم يستطع أي كتاب في الفلسفة أو علم النفس أو

التصوف أو الباراسايكولوجي أن يجيب عنه جوابًا قاطعًا:

هل الأرواح تغادر أصحابها دفعةً واحدة؟

أم أنها تهاجر بصمت، مع كل خوفٍ نسكت عنه، وكل حقيقةٍ نخفيها،

وكل ظلمٍ نعتاد رؤيته؟

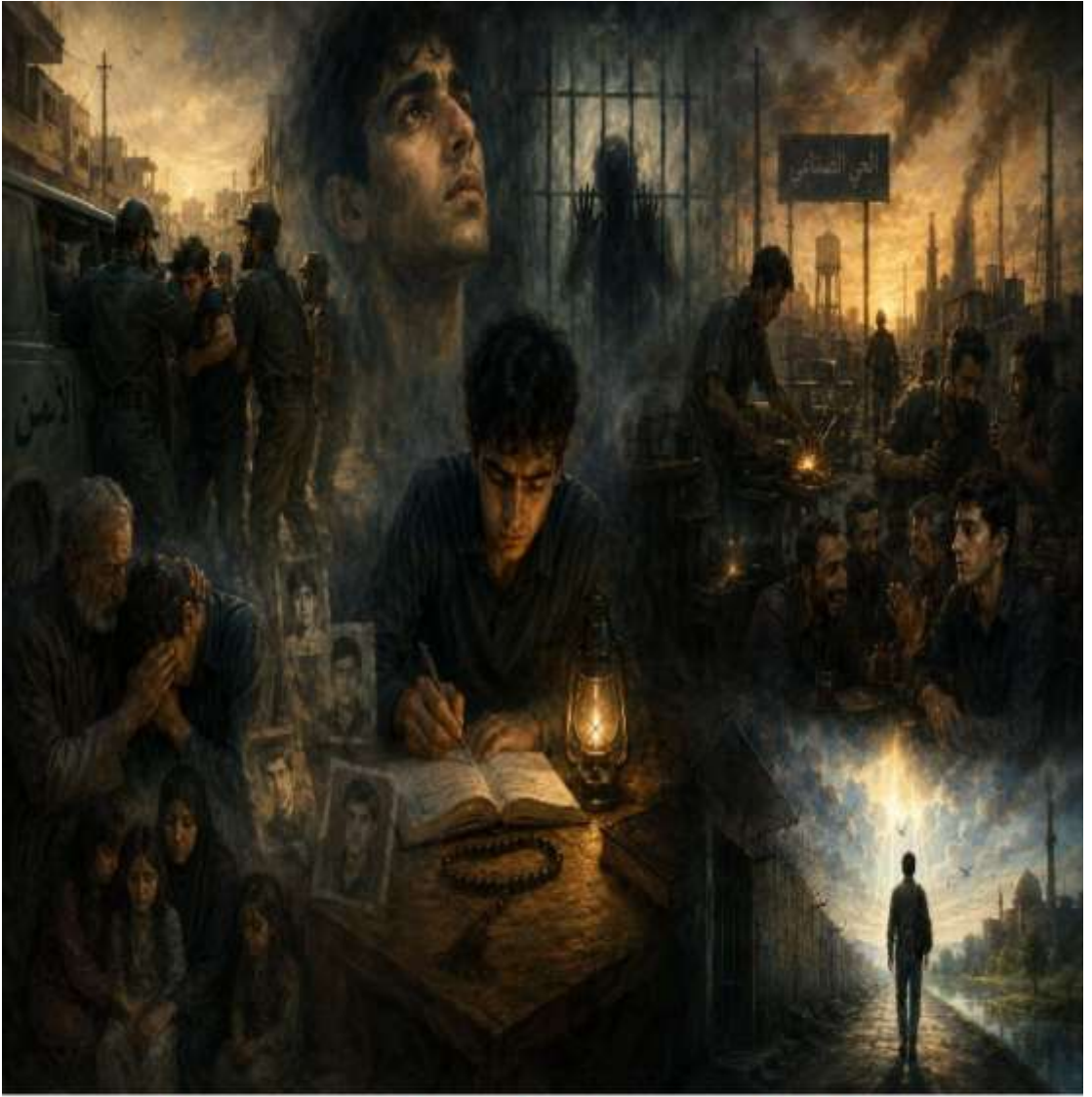
وأدرك، بعد رحلةٍ عمرٍ كاملة، أن أصعب أنواع النجاة ليست أن ينجو

الإنسان بجسده...

بل أن ينجو بقلبه.

فكم من أناس خرجوا من السجون أحياء...

بينما بقيت أرواحهم خلف القضبان إلى الأبد.



الناجون الذين لم ينجوا

الجار الكلب والكلب الجار (2)

كان الصباح ثقيلاً على غير عادته.

استفاقت أم علي مدعورة، كأن أحداً انتزعها من حلم سيئ وترك قلبها

معلقاً في الظلام... ؛ جلست على فراشها الخشن، وضعت يدها على

صدرها وهي تلهث، ثم نادى بصوت مرتبك:

— علي...!

لم يجيبها أحد.

في الغرفة المجاورة كانت ابنتها الكبرى، فاطمة، تُعد الشاي على موقد النفط الصغير... ؛ رائحة الدخان امتزجت برائحة الرطوبة التي لم تغادر البيت منذ سنوات الحصار والحروب.

قالت فاطمة:

— أمي... علي خرج منذ الصباح.

رفعت أم علي رأسها بسرعة:

— إلى أين؟

— مروان مرّ عليه باكراً... ؛ قالا إنهما سيذهبان ليلعبا قرب الساقية.

سكتت الأم قليلاً، ثم سألت:

— وهل تناول فطوره؟

هزّت فاطمة رأسها:

— لم يمسه.

تنهدت أم علي بحرقّة... ؛ منذ موت زوجها في الحرب الأخيرة، صار علي

كل ما تبقى لها من الرجال... ؛ خمس بنات وطفل وحيد تتعلق به كما

يتعلق الغريق بخشبة نّجاة.

اقتربت من النافذة.

الرفاق بدا شاحباً تحت شمس الشتاء الباهتة ؛ الجدران المثقوبة بالرصاص ما
تزال تحمل آثار المعارك التي مرّت على الحي قبل شهور ، والناس صاروا
يتحدثون همساً، كأن الخوف بقي ساكناً في الحناجر حتى بعد توقف
القتال.

مرّ الوقت ثقيلاً.

الظهيرة حلّت، ثم العصر، وعلي لم يعد.

بدأ القلق يأكل قلبها ببطء... ؛ جمعت بناتها حولها، وسألت كل واحدة
إن كانت تعرف شيئاً... ، لكن الإجابات كانت متشابهة، باردة،
وعاجزة.

خرجت أخيراً إلى بيت جارها الحاج أبو عمر.

كان أبو عمر رجلاً ستينياً، عركته الحروب مثلما تعرك الريح أبواب البيوت القديمة... ؛ في السنوات الماضية تقاسم مع زوجها الخبز والخوف والملاجئ... ، وحين مات أبو علي بقذيفة طائشة، وقف أبو عمر في مجلس العزاء باكياً أكثر من إخوة الميت أنفسهم.

طرقت الباب بعنف.

خرج أبو عمر مرتبكاً:

— خير أم علي؟

قالت بصوت متقطع:

— علي خرج مع مروان ولم يرجع.

التفت الرجل نحو الداخل:

— مروان! تعال يا ولدي.

خرج مروان متردداً، عيناه تهربان من النظر مباشرة.

— أين علي؟

قال الصبي:

— كنا نلعب قرب الساقية ... ثم قال إنه ذاهب وحده.

تجمد وجه أم علي .

كانت تعرف علي جيداً... ؛ لم يكن من الأطفال الذين يذهبون وحدهم .

في تلك اللحظة، خرج من داخل البيت رجل غريب ، طويل، نحيف،
بلحية كثيفة ووجه متعب كأن النوم لم يعرف طريقه إليه منذ زمن ، تبادل
همسة سريعة مع أبو عمر ، كانت لهجته سعودية ، ثم غادرا معاً في سيارة
قديمة متربة .

راقبتهما أم علي بصمت .

شيء غامض انقبض داخلها... ؛ ليس خوفاً واضحاً، بل ذلك

الإحساس الذي يسبق الكارثة، كأن الروح ترى ما تعجز العين عن رؤيته.

مرّ اليوم الأول بلا أثر.

ثم اليوم الثاني.

الحي كله بدأ يبحث عن الطفل ، بعض الرجال فتشوا أطراف البساتين

المهجورة، وآخرون سألوا عند الحواجز ومراكز الشرطة والمستشفيات.

لكن أحداً لم يجد شيئاً.

في الليل، كانت أم علي تجلس قرب الباب المفتوح تنتظر... ؛ أحياناً كانت
تظن أنها سمعت خطواته في الزقاق، فتقف مدعورة، ثم تكتشف أن الريح
وحدها تمرّ بين البيوت.

أما أبو عمر، فصار أكثر صمتاً.

وجهه شاحب، وعيناه غارقتان في قلق ثقيل... ؛ زوجته لاحظت أنه لم
يعد يأكل جيداً، وأنه يخرج ليلاً كثيراً نحو البستان خلف الدار.

في الحى، بدأت الهمسات القديمة تعود.

الحرب الأهلية انتهت رسمياً، لكن الناس لم ينسوا كيف كان الجار يختفي فجأة، وكيف كانت الجثث تظهر في البساتين والأنهر وعلى الأرصفة... ؛ كانوا يعرفون أن الحرب لا تنتهي حين تصمت البنادق، بل حين تتوقف الكراهية عن السكن في القلوب.

في مساء اليوم الثالث، ظهر كلب أبو عمر عند باب بيت أم علي.

كان كلباً أشهب هرماءً، اعتاد أن ينام قرب عتبة دارها لأن أم علي كانت تطعمه بقايا الطعام كل ليلة.

وقف الكلب هذه المرة مضطرباً.

يدور حول نفسه، يئن، ثم يقترب من الباب ويتراجع.

انتبهت فاطمة إلى شيء في فمه.

قطعة قماش صغيرة.

صرخت:

— أمي...!

اقتربت أم علي بيدين مرتجفتين.

كانت قطعة من قميص علي الأزرق.

وعليها بقع دم داكنة.

شهقت المرأة كأن سكيناً اخترقت صدرها دفعة واحدة، ثم سقطت على الأرض.

أما الكلب، فظل يعوي، ثم ركض مبتعداً نحو البستان خلف بيت أبو عمر.

تبعته النسوة، ثم لحق بهن الرجال.

كان الغروب يتلألأ آخر الضوء حين وصلوا إلى هناك.

وقف الكلب قرب شجرة رمان يابسة، وبدأ يحفر التراب بجنونه الحيواني
الحزين.

اقترب الرجال.

ومع أول ضربة مجرفة، ظهرت رائحة الموت.

بعد دقائق، بان طرف ذراع صغيرة.

ثم ظهر جسد علي كاملاً.

كان مدفوناً على عجل، كأن القاتل أراد أن يخفي جريمته قبل أن يخفي خوفه.

ساد صمت ثقيل.

الجميع التفت نحو بيت أبي عمر.

لكن أبا عمر لم يكن هناك.

اختفى.

ولم يعثروا عليه أبداً.

بعضهم قال إنه هرب مع جماعة مسلحة كانت تمرّ بالمنطقة أيام الفوضى.

وبعضهم قال إنه لم يكن قاتلاً، بل خائفاً تسرّ على جريمة ارتكبها ذلك

الغريب السعودي الذي استضافه في بيته.

أما أم علي، فلم تهتم بكل ذلك.

كانت تجلس كل مساء عند الباب، وبقرها الكلب الأشهب.

تحقق طويلاً في الزقاق الخالي، ثم تتمتم بصوت مكسور:

— حتى الكلاب بقي فيها قلب... أما الناس، فأكلتهم الحرب... ؛ يمه

علاوي يمه .



الجار الكلب والكلب الجار

البيت بعد كاظم (3)

حين مات كاظم، لم تبكِ زينب فوراً.

الغريب أن الدموع تأخرت، كأن الروح نفسها لم تستوعب بعد كيف يمكن
لرجلٍ كان يملأ البيت بصوته أن يتحول فجأة إلى اسمٍ يُقال بصيغة الماضي.

في تلك الليلة، بقيت تحدّق في سترته المعلقة قرب الباب.

كانت الرائحة ما تزال هناك.

عرقٌ خفيف، تبّع رخيص، وغبار شوارع المدينة التي كانت تلتهم الرجال
الطيبين كل يوم دون أن تشبع.

مدّت يدها نحو السترة ثم سحبتها بسرعة، كأنها لمست جسداً حياً.

الأطفال نائمون.

أو يتظاهرون بالنوم.

منذ موت أبيهم صاروا يتعلمون مبكرًا تلك الموهبة العراقية القديمة: كيف
يدفنون بكاءهم داخل الوسادة كي لا ينهار البيت أكثر.

في الخارج كانت المولدة تصرخ بصوتها المعدني القبيح، والمدينة تبدو كأنها
خارجة لتوها من حربٍ لا أحد يتذكر متى بدأت.

أما حيدر، فكان جالسًا على سطح المنزل، يدخن بشراهة وهو يحذق في
السماء المعتمة.

منذ الحادث وهو يشعر بشيء يشبه الذنب، رغم أنه لا يعرف ذنب مَنْ
تحديدًا.

ذنب الشارع؟

السيارة؟

المدينة؟

الله؟

أم ذنب هذا العالم الذي يترك الأوغاد يعبرون أعمارهم كاملة، ثم يخطف

رجلاً مثل كاظم في ظهيرة عابرة؟

أغلق عينيه.

فعاد صوت كاظم.

ذلك الصوت الهادئ الذي كان يثير أعصابه أحياناً، لأن البشر الطيبين

يبدون دائماً وكأنهم يعرفون سرّاً لا يعرفه الآخرون.

— “الناس يا حيدر لا تموت حين تتوقف قلوبهم... الناس تموت حين

تصبح القسوة أمراً عادياً.”

قالتها ذات ليلة فوق هذا السطح نفسه، حين كانت الكهرباء مقطوعة،
وكانت المدينة غارقةً بعتمة تشبه قاع بئر.

يومها ضحك حيدر ساخرًا:

— “إذًا نحن أموات منذ زمن.”

لكن كاظم لم يضحك.

ظل صامتًا طويلًا، كأنه كان يرى شيئًا أبعد من الجميع.

كان غريبًا فعلاً.

لا يشبه رجال هذه الأيام.

حين يعود من عمله، يدخل البيت كمن يخشى أن يوقظ حزناً نائماً.

يضع الخبز فوق الطاولة برفق.

يمسح على رؤوس أطفاله كأنهم أشياء قابلة للكسر.

حتى صوته كان منخفضاً، كأنه يعتذر باستمرار عن قسوة العالم.

وزينب كثيراً ما كانت تغضب منه.

ليس لأنه سيئ... بل لأنه طيب أكثر مما ينبغي.

الطيبة المفرطة تُخيف النساء أحياناً.

تشعر أن الرجل لا يعرف كيف ينجو.

قبل أسبوع من موته، باع كاظم خاتمه القديم ليساعد رجلاً لا يعرفه.

وحين صرخت زينب بوجهه:

— “وماذا عَنَّا؟!”

أجابها بتلك الابتسامة المتعبة نفسها:

— “لا أعرف لماذا أشعر دائماً أن الله يختبر قلوبنا بالفقراء.”

كرهت زينب تلك العبارة.

ليس لأنها قاسية... بل لأنها صحيحة.

في يوم الحادث، كانت السماء رمادية بشكلٍ خانق.

حتى الهواء كان ثقيلاً، كأن المدينة تعرف مسبقاً أن أحداً لن يعود إلى بيته
مساءً.

تتذكر زينب الآن تفاصيل سخيفة لا معنى لها:

فنجان الشاي الذي لم يكمله.

المشط قرب المرأة.

الطريقة التي قَبَّل بها الأطفال.

نظرة طويلة وغامضة استقرت فوق وجهها قبل أن يغلق الباب.

كأنه كان يودعها دون أن يريد إخافتها.

ثم...

ضجيج.

هواتف.

أقدام تركض.

وجوه مرتبكة.

وسيارة إسعاف تشقّ الزحام مثل حيوانٍ معدني يلهث.

بعدها صار كل شيء ضبابيًا.

المستشفى.

رائحة المعقمات.

طبيب يتحدث بسرعة.

دم.

امرأة تبكي في الممر.

وحيدر واقف قرب الجدار، شاحبًا كأنه هو الذي مات.

قال الطبيب شيئًا عن “نزيف داخلي”.

كم تبدو اللغة الطبية باردة أمام الكارثة.

النزيف الداخلي...

كأن الرجل لم يكن يحمل داخله عمرًا كاملاً من الحب والخوف والتعب
والأحلام الصغيرة.

بعد موته، اكتشفوا أن كاظم كان يحتل مساحة أكبر مما ظنوا.

البيت صار أضيق.

الهواء أثقل.

حتى الصمت تغيّر شكله.

الأطفال لم يعودوا يركضون نحو الباب عند المغرب.

أما زينب، فكانت كل ليلة تسمع صوت المفتاح في خيالها، ثم تتذكر فجأة
أن الموتى لا يعودون.

ذلك هو الجزء الأكثر وحشية في الفقد:

ليس البكاء.

بل اعتياد الغياب.

بعد عام، وقفوا عند قبره.

الريح تعبث بالعشب اليابس، والسماء ملبدة بلونٍ يشبه التعب.

جلس حيدر قرب القبر طويلاً دون كلام.

ثم أشعل سيجارة وأطفأها فوراً.

كان كاظم يكره التدخين.

ابتسم بحزن.

حتى الموتى يواصلون التحكم بعاداتنا أحياناً.

همس أخيراً:

— “تعرف يا كاظم... كنت أظن أن الطيبين يعيشون أكثر.”

صمت قليلاً.

ثم أضاف بصوتٍ مكسور:

— “لكن يبدو أن الله أحياناً يخطفهم بسرعة... لأن هذا العالم لا يليق
بهم.”

في تلك اللحظة انفجرت زينب بالبكاء.

أما الأطفال فظلوا يحدقون بالقبر بصمتٍ حائر، كأنهم لا يفهمون كيف
يمكن للتراب أن يتلع رجلاً كان يملأ البيت دفئًا وضحًا.

وفي طريق العودة، أدرك حيدر شيئًا مرعبًا:

أن بعض البشر لا يرحلون وحدهم حين يموتون...

بل يأخذون معهم النسخة الأقل قسوة من العالم.



أطيف في مرقد الامام الكاظم (4)

بعد قانون الإصلاح الزراعي الذي جرّد شيوخ العشائر من أراضيهم الشاسعة وعبيدهم الزوج ، جاء الشيخ غضبان من جنوب العراق إلى بغداد، يحمل في قلبه جرحين: جرح الأرض المسلوقة، وجرح الذاكرة المثقلة بالأعجاد ... ؛ لم يكن قد خسر الأرض فقط، بل خسر المعنى الذي كان يمنحه لنفسه: سيداً، مالِكاً، مركزاً تدور حوله الحكايات والرجال... ؛ و في بغداد، صار رجلاً عادياً يتوكأ على ذاكرةٍ أثقل من جسده...

لم يبقَ للشيخ غضبان سوى مسبحة الفضية وصندوق خشبي صغير يحتفظ فيه بسندات الأراضي القديمة وصورٍ باهتة لرجال يحملون البنادق ويقفون خلفه كأنهم امتدادٌ لظله.

في بغداد، لم يعد أحد يناديه بـ"الشيخ".

صار مجرد رجل عجوز يسكن غرفة ضيقة في حي شعبي شرقي بغداد ،
يخرج فجراً إلى المسجد كل يوم ، وفي كل جمعة يشدّ الرحال إلى مرقد الإمام
الكاظم، كأنما يبحث في تلك القباب الذهبية عن ظلّ ماضٍ تآكل...

كان المسجد ملاذه الوحيد، ومرقد الإمام الكاظم وطنه البديل... ؛ هناك،
كان يقف طويلاً، كأنه يحاول أن يقايض السماء بخساراته الأرضية...
وكان حفيده حمدي يرافقه أحياناً.

طفلٌ نحيل، يتأمل صمت جده أكثر مما يسمع كلامه.

وفي إحدى الجمع، بينما كان الشيخ راكعاً في صحن المرقد، وسط ضجيج
الدعاء و وشوشات المتوسّلين، أُغْمِي عليه فجأة... ؛ وسقط في الصحن،
بين دعاءٍ لم يكتمل ونَفْسٍ لم يعد.

حملة الناس واترابه مسرعين إلى المستشفى، وخلفهم حمدي الصغير، ذو
العشر سنوات، يلهث بخطواته القصيرة وقلبه ينبض بالقلق...

كان جده يغمره بالدلال والحنان ؛ و لا يمنع عنه شيئاً، كأنما يعوّضه بحنانه
عن شيء غامض لم يدركه الطفل حينها... ؛ وما إن وصل الشيخ إلى
المستشفى حتى وافته المنية، تاركاً في روح حمدي شرخاً لم يلتئم منذ ذلك
النهار.

منذ تلك اللحظة، تعلّق قلب حمدي بمرقد الإمام الكاظم... ؛ و صار
يذهب إليه كلما استطاع، لا للزيارة وحدها، بل للقاء طيف جدّه الذي
كان يراه بين الأعمدة الرخامية، ويسمع صدى صوته الشجيّ مختلطاً
بأصوات الداعين والمسبّحين... ؛ كان يعرف أن هذا مجرد خيال، أو لعلّه
لم يكن يريد أن يعرف غير ذلك...

صار يرتاد المرقد لا بدافع الحزن وحده، بل بدافع الفضول أيضاً... , جلس
في الزاوية نفسها سنوات طويلة، يراقب الوجوه، يصغي للأصوات، يتأمل
البشر كما لو كانوا نصوصاً مفتوحة... ؛ تعلّم أن يقرأ العيون: عينٌ جاءت
تطلب الشفاء، وأخرى تهرب من ذنب، وثالثة تبحث عن معنى لا تعرف
اسمه...

كان يرى في المرقد صورة مكثفة للعالم:

الفقراء والأغنياء، المؤمنون والمرتبكون، الباكون والصامتون...؛ كلهم يقفون

في صفٍّ واحد، أمام سؤالٍ واحد، وإن اختلفت الإجابات.

نعم ، عبر سنوات طويلة وعقود متعاقبة، رأى كل شيء: رأى الأمهات

يحملن أطفالهنَّ على الأكتاف، والعجائز يجلسن على الكراسي المتحركة،

والشباب يدفعون كراسي آبائهم المقعدين... ؛ رأى الدموع تسيل على

خدود أنهلكها السؤال، ورأى العيون تلمع بفرح غامض كمن وجد ضالته...

اعتاد حمدي أن يجلس في إحدى زوايا الحضرة الكاظمية، حيث الشباك

الفضي المذهب أمامه، وفوقه تتدلى ثريات الكريستال مثل عناقيد من نور،

ومن حوله تنبعث روائح العطر الممزوجة بخشوع المكان...

كان يجلس هناك ليتأمل في نفسه وفي الناس، وأحياناً ليتذكر طيف

جده...

ذات مساء، بينما كان غارقاً في صمته المعتاد، دخلت مجموعة من الشباب...؛ كانوا يشبهون أطيافاً من زمنٍ آخر ؛ على جباههم أثر السجود على التربة، علامة داكنة كختم قديم... ، عيونهم غائرة من كثرة البكاء والسهر وقراءة الأدعية، وجوههم شاحبة كأن الضوء الخارجي لم يلمسها منذ زمن بعيد... ، كانوا جميعاً يرتدون ملابس بسيطة توحي بالزهد : الدشاديش العربية، وعلى رؤوسهم طاقيات جوزية اللون، تشبه طاقيات المتصوفة الأتراك والإيرانيين في القرون الغابرة...

منظرهم كان يوحي بأنهم كومبارس في مسرحية تاريخية قديمة، أو بأنهم تسرّبوا من شقّ في الزمن، قادمين من عصر لا يمتّ إلى هذا العصر بأي صلة...

حتى إيماءاتهم كانت غريبة: خفض الرأس عند التحية، وضع اليد على الصدر بانحناءة تذكّر برهبان منسيين في دير مهجور... ؛ كانوا يتحدثون همساً عن الكرامات وخوارق العادات، عن الغيبات والميتافيزيقيات، عن عوالم لا يراها غيرهم، لكنهم كانوا صفر الأيدي من كل ما يمتّ إلى العلوم

الحديثه بصله: لا يفقهون في علم النفس شيئاً، ولا في علم الاجتماع، ولا في الاقتصاد ولا السياسة... ؛ فضلاً عن جهل مطبق بكل معارف وتقنيات الحاسوب والذكاء الاصطناعي... ؛ كانوا منصهرين معاً كمعادن صدئة في بوتقة عتيقة، لا همّ لهم في قضايا الوطن، ولا علاقة لهم بموم المواطن، ولا اكتراث بما يثقل كاهل الناس من أزمات...

تأملهم حمدي طويلاً، ثم فكر وقال : "إنها حريات شخصية"...

لكن فكرة أخرى، أعمق وأشدّ قتامة، تسللت إلى ذهنه كدخان خفي: ماذا لو تحوّل الشعب كلّهُ، أو أغلبيّته، إلى نسخ طوباوية شبيهة بهذه النسخة؟!

ماذا لو انسحب الجميع من الحاضر إلى أقبية الغنوصية المغلقة وزوايا التاريخ المهملة والرؤى الطوباوية ؟ !

ماذا لو صار الوطن كلّهُ مرقداً كبيراً، وخلت الشوارع من الساعين، والمصانع من العاملين، والمدارس من المتعلمين؟!

ماذا لو توقف الزمن في عقول الناس، بينما يمضي الزمن الحقيقي دونهم،
ساحقاً إياهم تحت عجالات أمم أخرى تجيد فن الحياة والعلم معاً؟!
ثم جلسوا قريباً منه.

أخرج أحدهم كتيب أدعية مهترئاً، وبدأ يقرأ بصوت مرتجف عن الكرامات
والرؤى وعلامات الظهور.

كان الآخرون يهزون رؤوسهم بخشوع كثيف.

ثم سأل أحدهم:

— هل صحيح أن العلوم الحديثة تفسد القلب؟

أجابه آخر بثقة:

— المعرفة الحقيقية ليست في الكتب... المعرفة في تطهير الروح.

صمت حمدي.

لم يزعجه إيمانهم، بل شيء آخر غامض.

كان يشعر أن هؤلاء الشبان لا يكرهون الدنيا، بل يخافونها.

راقب أيديهم الناعمة، وجملهم المحفوظة، والطريقة التي يتحدثون بها عن

الحياة كأنهم لم يلمسوها قط.

وفجأة تذكر جده.

لكن صورة الشيخ هذه المرة لم تظهر كما اعتادها.

لم يره راکعاً أو باکياً، بل رآه جالساً في مضيفه القديم بين الفلاحين،

يصدر الأوامر، يتحدث عن الأرض والمواسم والخصومات العشائرية.

لأول مرة أدرك شيئاً أريكه:

جده أيضاً كان هارباً... لكن هروبه بدأ بعد سقوط عالمه، لا قبله.

أما هؤلاء، فبدوا كأنهم ينسحبون من الحياة قبل أن يخوضوها أصلاً.

هل كان الفرق بينه وبينهم أنه كان يحمل جرحاً حقيقياً، أرضاً مسلوبة

فعلاً، بينما هم يحملون... ماذا؟!

خوفاً من العصر؟ هروباً من المسؤولية؟ زهداً في دنيا لم يتعلموا كيف
يعيشونها؟

وتساءل في قرارة نفسه مرة أخرى ؛ هل يمكن للإنسان أن ينجو بروحه إذا
أهمل عقله؟

وهل يكفي الإيمان وحده لبناء حياة، أم أنه يصبح، حين ينفصل عن
الواقع، نوعاً آخر من الهروب؟

نظر إلى الشباك الفضي مرة أخرى، فرأى فيه انعكاساً باهتاً لوجهه هو
نفسه... ؛ سأل نفسه: هل أنا منهم؟ هل صرت واحداً من تلك
الأطياف التي تعيش في الماضي لأن الحاضر يؤلمها، والمستقبل يخيفها؟!

نفض حمدي من مكانه وهو يشعر بشيء ثقيل في صدره، ليس حزناً ولا
خوفاً، بل سؤال وجودي عارٍ: كيف نكون في الدنيا ونحن على وشك
مغادرتها...؛ دون أن ننسى أننا فيها؟!

وكيف نعمر الروح على حساب خراب الوطن؟!

في تلك اللحظة، أدرك أن الإنسان لا يعيش بجانب واحد...

فكما أن الروح تحتاج إلى معنى، فإن الحياة تحتاج إلى وعي...

وكما أن الإيمان يمنح الطمأنينة، فإن الفهم يمنح القدرة...

ابتسم ابتسامة خفيفة، كمن وصل إلى نصف الحقيقة فقط...

ثم نهض، ومشى ببطء، تاركاً خلفه الأصوات تختلط:

دعاءً، وبكاءً، وأسئلة...

لا تنتهي...

خرج إلى الشارع المكتظ بالسيارات والبشر، وإذا بطفل صغير يبيع المناديل

الورقية عند إشارة المرور... ؛ نظر إليه حمدي، فرأى في عينيه بريق الحياة

التي تستحق أن تُعاش... ؛ اشترى منه كل المناديل، دون أن يدري لماذا،

ومضى في طريقه، تاركاً خلفه أطياف الماضي، وحاملاً معه سؤال

المستقبل...



أطيف اللقاء في مملكة الظل (5)

في مدينةٍ تُطفئُ أنوارها باكراً كي لا ترى خرابها، كان الليلُ يبدو ككائنٍ
حيٍّ يتجول بين الأزقة، يضع يده على أفواه الناس كي لا يصرخوا.

المقاهي نصفُ فارغة، الأرصفة مبتلّة بمطرٍ قديم، والوجوه تمرّ مثل صورٍ ممزقة
خرجت لتوّها من ذاكرة حرب.

في تلك الليلة، كنتُ أجلس في المقهى الأخير عند حافة النهر؛ ذلك
المقهى الذي يرتاده المنسيّون والعابرون والذين لا يملكون بيتاً حقيقياً
يعودون إليه.

كان النادل العجوز، عبود ، يمسح الطاولات بحركة آلية كأنّه يمسح
أعمارنا، بينما تصاعد من مذيعٍ متهالك صوت مطربة قديمة تغني عن
الحب كأنّها ترثيه.

دخل هو ..

لم يكن دخوله عادياً، بل أشبه باختلالٍ خفيٍّ أصاب توازن المكان.

حتى الدخان المعلق فوق الرؤوس بدا وكأنه تراجع قليلاً ليفسح لك الطريق.

كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً، و يخبئ يديه في جيبه كمن يخبئ جريمة
أو برداً داخلياً لا ينتهي.

جلس قرب النافذة، تحت ضوء نيونٍ أزرق جعل ملامحه تبدو كأنها مرسومة
على ماءٍ مضطرب.

و حين التقت عيناه بعينيّ، شعرتُ أن شيئاً ما انكسر داخلي؛ لا القلب
وحده، بل ذلك الجدار السري الذي يبنيه الإنسان حول هشاشته كي
ينجو.

ابتسم ابتسامة صغيرة، مرتبكة، كأنه يعتذر عن وجوده في هذا العالم.

اقترب النادل منه وسأله:

— ماذا تشرب؟

فأجابه بصوتٍ خافت:

— شيئًا يؤخر الليل.

ضحك عبود بأسى وقال:

— لو كنتُ أعرف شرابًا كهذا لشربته منذ ثلاثين سنة.

سمعته يضحك , فشعرت أن المدينة كلّها أضاءت للحظة ثم انطفأت من جديد.

لا أعرف كيف بدأ الحديث بيننا.

ربما لأن الغرباء يتعرّفون بسرعة حين يكونون متشابهين في الخراب.

قلت : انك تعمل في أرشيف حكومي , تحفظ كافة ملفات الموتى والمفقودين ؟

اما أنا فقد قلت له : إنني أكتب قصصًا لا يقرأها أحد، عن بشرٍ يشبهون

ظلالًا سقطت من جسد العالم.

فسألني :

— ولماذا تكتب إذن؟

أجبتُ:

— لأن الصمت يقتلني ببطء.

صمتٌ قليلًا ثم قال :

— وأنا أيضًا أخاف الصمت... لكنه يسكنني منذ طفولتي.

كان في عينيه شيء أبعد من الحزن ؛ شيء يشبه التعب الوجودي لإنسانٍ

أدرك مبكرًا أن العالم لا يكافئ الطيبين، وأن القلوب تُستهلك مثل أعقاب

السجائر.

ومع مرور الساعات، أخذ المكان يفرغ إلا منا ومن عبود ، الذي صار يراقبنا بصمت أبوي حزين.

في الخارج، كانت صفارات الشرطة تعبر بعيداً، والمدينة تبدو كأنها تُطارد نفسها.

قلت فجأة:

— هل تؤمن بأن بعض اللقاءات تحدث متأخرة دائماً؟

— متأخرة عن ماذا؟

— عن الحياة نفسها... كأننا نصل بعد احتراق كل شيء.

رد : لم أعرف بماذا أجيب... ؛ الا أنني أشعر أن كلامك لا يخصنا وحدنا، بل يخص جيلاً كاملاً؛ جيلاً وُلد وسط الحروب والطوائف والانكسارات، فكبر وهو يشعر بأنه زائد عن حاجة العالم.

عند منتصف الليل، انقطعت الكهرباء.

غرق المقهى بالعتمة، ولم يبقَ سوى ضوء النهر البعيد ووهج السجائر.

قال عبود وهو يشعل شمعة:

— لا تخافوا... الظلام هنا أرحم من الضوء.

ضحكت، لكنني رأيتُ دمعَةً صغيرة تلمع قرب عينيه.

سألته :

— ماذا حدث لك؟

أشاح بوجهه قليلاً ثم قال :

— أبي اختفى منذ عشر سنوات... خرج ولم يعد.

— هل مات؟

— لا أحد يعرف... ؛ في بلادنا الموتى أوضح من المفقودين.

ثم أضفت بصوت متشقق:

— أمي ماتت وهي تنتظر طرق الباب.

شعرتُ حينها أن المسافة بيننا اختفت فجأة، وأنا لم نعد شخصين

يتعارفان، بل خرابين يتجاوران في العتمة.

ثم قلت له :

— وأنا فقدتُ أخي في الحرب.

— وهل وجدتم جثته؟

— نعم... وهذا كان الجزء الرحيم من الحكاية.

في تلك اللحظة، بدا المقهى كأنه خارج الزمن؛

ثلاثة بشر فقط:

رجل عجوز ينتظر موته بهدوء،

وشاب تحمل يتماً طويلاً،

وكاتب يحاول ترقيع روحه بالكلمات.

حتى المدينة في الخارج كانت تبدو مثل مقبرة كهربائية كبيرة.

ومع اقتراب الفجر، بدأ الخوف يتسلل إلينا؛

الخوف من انتهاء اللحظة، من عودة كلِّ منا إلى وحدته القديمة.

قلت بصوتٍ مرتجف:

— أخاف أن نصبح ذكرى سريعة لبعضنا.

أجاب:

— ربما نحن ذكرى منذ البداية.

نظرت إليه طويلاً، ثم سألته:

— وهل يكفي اللقاء أحياناً لينقذ الإنسان؟

فقال:

— أحياناً يكفي كي يؤجّل سقوطه فقط.

حين خرجنا من المقهى، كان الفجر يشقّ السماء مثل جرحٍ بارد.

الشوارع فارغة إلا من عمّال النظافة والقطط والجنود المتعبين.

سرنا بمحاذاة النهر دون كلام.

وكان الصمت بيننا هذه المرة مختلفاً؛

ليس صمت الغربة، بل صمت الذين قالوا أشياءهم العميقة ولم يبقَ لديهم
سوى الخوف.

وقبل أن نفترق، قال:

— إذا اختفيت يوماً... هل ستكتب عني؟

نظرتُ إليه طويلاً وقلت:

— ربما أنا أكتب عنك منذ سنوات دون أن أعرفك.

ابتسم ابتسامة شاحبة، ثم ابتعد ببطء داخل الضباب.

ولم أعرف لماذا شعرتُ لحظتها أنني لن أراه ثانية.

مرّت الأيام بعد ذلك كأنها ركامٌ يتحرك.

كانت اطيافه تصل متقطعة، باردة، متعبة؛ كل طيف يحمل اعتذارًا غير

مكتمل، وكل صمت يفتح هاوية جديدة.

ثم اختفى حتى من الاحلام فجأة.

لا طيف ,

لا رسالة أخيرة،

لا وداع،

لا تفسير .

وكان المدينة ابتلعه كما ابتلعت آلاف الوجوه قبله.

عدتُ إلى المقهى مرارًا، فكان عبود يهز رأسه فقط ويقول:

— بعض الناس لا يرحلون... هم فقط يعودون إلى الظل.

و ذات ليلة، بينما كنتُ أجلس وحدي قرب النافذة نفسها، سألتني عبود :

— هل أحببته؟

أجبتُ بعد صمت طويل:

— لا أعرف... لكنني شعرتُ معه أن وحدتي كانت مرئية أخيراً.

ابتسم العجوز بحزن وقال:

— هذا أخطر أنواع الحب.

الآن، بعد سنوات، ما زلتُ أحياناً أراه في انعكاس زجاج الحافلات، أو في

وجوه النساء المرهقات عند إشارات المرور، أو في الأغاني القديمة التي

تنبعث من المقاهي المنسية...

وأتساءل دائماً:

هل كنّا شخصين التقياً فعلاً؟

أم أن المدينة المتعبة اخترعتنا كي تخفف وحدتها للحظة؟

هل كان الحب والود ممكنًا أصلًا في بلادٍ تتغذى على الفقر؟



أم أن كل ما عشناه لم يكن سوى هدنة قصيرة داخل مملكة الظل؟

أشباحُ تمرُّ عبر شاشات العالم الافتراضي (6)

في تلك المدينة التي كانت المقاهي فيها تُضاء أكثر مما تُدْفَأ، التقى عماد
بأبي فضّة للمرة الأولى.

كان اللقاء عابراً، لكنه ترك في الروح ذلك الأثر الذي تتركه بعض الوجوه
المرهقة؛ الوجوه التي تشعر أنك تعرفها منذ زمن، فقط لأنها تشبه تعبك.

جلسا في مقهى قديم تغشاه رائحة الشاي الثقيل ومعسل الأراجيل .

خارج الزجاج، كانت السيارات تمرّ مثل أفكار قلقلة، بينما ظلّ الصمت
بينهما يتحسس طريقه بحذر، قبل أن يكسره أبو فضة قائلاً:

— هذه المدينة غريبة... تجمع الغرباء أسرع مما تجمع الأقارب.

ابتسم عماد ابتسامة باهتة:

— لأن الغرباء لا يسألون كثيراً.

ضحك الرجلان، ومن تلك الضحكة بدأت صداقة غير واضحة المعالم؛

صداقة قامت على الهروب أكثر مما قامت على الألفة.

كلاهما كان يحمل داخله فراغًا لا يعرف كيف يملؤه: سهْرٌ طويل، نساء

عابرات، ليالٍ محدّرة بالأركيلة والكحول، وأحاديث تنتهي دائمًا عند

السؤال نفسه: لماذا يبدو العالم واسعًا إلى هذا الحد، رغم أننا نختنق فيه؟

ومع الأيام، صار كل واحد منهما مرآة مشروخة للآخر.

في ليلة خانقة من ليالي الصيف، اتصل عماد بأبي فضة بصوت متوتر:

— أريد امرأة الليلة.

صمت أبو فضة قليلًا، ثم قال ساخرًا:

— هل تريد امرأة... أم تريد أن تهرب من نفسك؟

— الاثنان معًا.

بعد ساعة، أرسل له عنوانًا مقتضبًا:

“الكراج القديم... قرب سينما الأحلام.”

هناك ظهرت هناء.

كانت ترتدي معطفًا أسود خفيفًا، وتبدو أصغر من الحزن الذي في عينيها.

قدّمها أبو فضة ببرود، كما تُقدّم الأشياء التي اعتادها الناس حتى فقدت

معناها.

ذهبوا إلى مطعم شعبي صغير، ثم إلى بيت يؤجره رجل سمين تفوح منه رائحة

الطمع والرطوبة والسمسرة .

في أثناء الاتفاق على المال، لمح أبو فضة زوجة صاحب البيت تنزل الدرج

الداخلي بخطوات هادئة... ؛ كانت امرأة ممتلئة الجسد، يحيط بها ذلك

النوع من الإغراء الذي يوقظ الجوع في الرجال المتعبين.

همس لصاحب البيت بشيء، فطلب الرجل مبلغًا إضافيًا.

فتش أبو فضة جيبه مرتبًا، ثم التفت إلى عماد:

— أقرضني بعض المال.

لكن عماد كان قد دفع معظم ما معه؛ أجره البيت، ثمن العشاء، وأجرة
هنا.

قال معتذرًا:

— لم يبقَ معي إلا القليل.

في تلك اللحظة، تغيرَ شيء خفيّ داخل أبي فضة.

لم يقل شيئًا، لكن وجهه انطفأ ببطء، كشمعةٍ أدركت أنها ستموت قبل
نهاية الليل.

دخل عماد مع هنا إلى الغرفة المجاورة.

لم يكن ما حدث بينهما حبًا، ولا حتى شهوة خالصة؛ كان تصادم وحدتين
جائعتين.

كان عماد يتعامل مع جسدها بعنف مرتبك، كأنه ينتقم من خيبة قديمة لا

يعرف اسمها، بينما كانت هي تستسلم بصمتٍ ثقيل يشبه التعب.

وعندما انتهى كل شيء، بقيت هناء مستلقية تنظر إلى سقف الغرفة

المتشقق، كأنها تبحث عن نافذة تؤدي إلى مكان آخر.

أما عماد، فخرج من الغرفة وهو يشعر بانتصار غامض وفارغ في آنٍ معاً.

في الخارج، كان أبو فضة جالساً وحده يدخن بصمت.

نظر إلى صديقه طويلاً، ثم أشاح بعينه.

ومنذ تلك الليلة، بدأ الشرح.

مرت الأيام باردة بينهما.

ثم عثر عماد على هناء مجدداً عبر فيسبوك.

في البداية كانت الرسائل مقتضبة، حذرة، لكنها أخذت تتكاثر شيئاً
فشيئاً، حتى صار حضورها جزءاً من يومه.

كانت هناء مختلفة خلف الشاشة؛ أقل قسوة، وأكثر هشاشة.

أما هو، فكان يكتب لها بطريقة لم يكتب بها لأحد من قبل.

ذات ليلة كتب:

— أظن أن البشر لا يبحثون عن الحب... بل عن شخص يعترف
بوجودهم.

أجابته بعد دقائق:

— وربما نبحث فقط عمّن يجعل وحدتنا أخف.

منذ تلك اللحظة، بدأ شيء يشبه التعلّق ينمو بينهما.

قبل سفره إلى بيروت، أرسل لها صورة للبحر عند الغروب.

كتب:

— سأعود قريبًا.

ردّت:

— لا تتأخر... بعض الغياب يتحول إلى عادة.

لكنه اختفى فعليًا.

مرض فجأة، ودخل المستشفى الأمريكي في بيروت أيامًا طويلة انقطع

خلالها عن العالم.

وعندما خرج، فتح هاتفه بلهفة.

حاول إرسال رسالة.

ظهر أمامه الإشعار البارد:

“تعذر إرسال الرسالة.”

اختفى حسابها.

ظل أيامًا يتنقل بين صفحتها القديمة وصورها المحفوظة ورسائلها، كمن
يطرق باب بيت احترق منذ زمن.

كان الأمر أشبه بموت إلكتروني؛ غياب بلا جنازة، وبلا قبر.

أخيرًا اتصل بأبي فضة.

جاءه الصوت باردًا:

— ماذا تريد؟

تردد قليلًا ثم سأله عنها.

ضحك أبو فضة ضحكة قصيرة:

— انسها... مجرد امرأة مثل غيرها.

قال عماد بصوت خافت:

— ليست مثل غيرها.

ردّ أبو فضة بمرارة لم يستطع إخفاءها:

— الوهم دائماً يبدو مختلفاً.

وأغلق الخط.

بعد أشهر، التقيا مصادفة في حانة مكتظة بالدخان والضجيج.

كان أبو فضة ثملاً، يضحك بصوت مرتفع.

وفجأة قال:

— بالمناسبة... هناء اتصلت بي قبل أشهر... ؛ كانت تبحث عنك.

تجمّد عماد.

— لماذا لم تخبرني؟

رفع أبو فضة كأسه وقال ببرود:

— لم أرَ سبباً لذلك.

في تلك اللحظة، فهم عماد أن الخيانة لا تحتاج دائماً إلى طعنة؛ أحياناً

يكفي أن يخفي أحدهم عنك باباً كان يمكن أن ينقذك.

عاد يبحث عنها بجنون.

ومن خلال إحدى الصفحات، تعرّف إلى سحر، صديقة هناء.

كانت سحر هادئة، ذكية، وتملك ذلك النوع من الكلام الذي يخفف

التعب دون أن يعد بشيء.

سألها ذات ليلة:

— لماذا يختفي الناس بهذه السهولة؟

أجابته:

— لأن العالم الافتراضي يجعل الرحيل بلا تكلفة.

ومع الوقت، صار ينتظر رسائلها أكثر مما ينتظر هناء نفسها.

ثم وجد هناء أخيراً على إنستغرام.

كتب لها فوراً:

— عدتُ من المرض... ومن الغياب.

جاءه الرد بعد ساعات:

— من أنت؟

شعر كأن أحداً محا وجهه من الذاكرة.

كتب مرتبگًا:

— عماد... الرجل الذي وعدك بالبحر.

أرسلت:

— البحار كثيرون... والرجال أكثر.

كانت قد تغيرت.

أو ربما كانت هذه حقيقتها منذ البداية.

لاحقًا، وعدته ببقاء ثم اعتذرت.

وعدته مرة أخرى ثم اختفت.

وفي آخر محاولة، تدخل رجل غريب عبر حسابها وقال بفضاظة:

— إذا كنت تريد رؤيتها، تعال إلى المقهى.

ثم حُظر الحساب.

اختفت مجددًا.

لم يبقَ أمامه سوى سحر.

اقترب منها أكثر، وشعر للمرة الأولى أن أحدًا يراه فعليًا، لا كجسد عابر

أو محادثة ليلية.

اتفقا على اللقاء.

وقبل الموعد بساعة، دخل إلى صفحتها ليتأكد من المكان.

لكن الشاشة أظهرت الرسالة نفسها:

“هذا الحساب غير متاح.”

جلس طويلاً أمام الضوء الأزرق البارد.

أدرك أخيراً أن العالم الافتراضي لا يصنع علاقات حقيقية بقدر ما يصنع

أشباحاً تتحدث مع أشباح.

نظر حوله إلى غرفته الصامتة:

الفرش غير مرتب، الستائر مغلقة، والهاتف يضيء في يده مثل قبر صغير.

اقترب من النافذة.

كانت المدينة تمطر.

همس لنفسه:

— نحن لا نفقد الناس... نحن نفقد عناوينهم فقط.



كابوس الثعابين السبعة (7)

في مدينة الثورة، كانت البيوت تُولد متشابهة كأن الدولة نسختها من حلم واحد: غرفتان ضيقتان، مطبخ صغير، حمام إسمنتي ببابٍ معدنيٍّ، ودرجٌ يصعد إلى السطح كعنقٍ يابس... ؛ خلف كل بيت باحة مكشوفة تُترك للسماء عمداً، تُغرس فيها نخلة أو شجرة زيتون، ويُرى أحياناً أرنب أو دجاجتان.

لم تكن تلك البيوت فقيرة كما يقول الغرباء؛ كانت متعبة فقط، مثل رجالٍ عادوا باكراً من الحرب قبل أن تبدأ.

في الصيف، كانت العائلات تنام في الباحات الخلفية هرباً من اختناق الغرف... يفتشون الأرض تحت سماءٍ مفتوحة، بينما تدور المراوح داخل البيوت الفارغة كأنها تحرس نوم الأثاث...

في إحدى تلك الليالي، كان قاسم في الخامسة من عمره، نائماً قرب أمه.

وكان الليل هادئاً إلى درجةٍ تُسمع معها نباح الكلاب البعيدة وهي تتكسّر
فوق الجدران.

استيقظ فجأة.

لم يعرف لاحقاً إن كان قد استيقظ حقاً أم دخل طبقةً أخرى من النوم.

رفع رأسه فرأى العائلة نائمة كما هي، لكن الهواء بدا أثقل من المعتاد، كأن
الليل امتلأ بهواءٍ خفيٍّ يصعب التنفس داخله... ؛ نهض ببطء واتجه نحو
باب الدار المفتوح.

في تلك اللحظة شعر أن البيت يراقبه.

دخل.

وكان أول ما رآه أن الجدران قد شاخت.

الطابوق الحديث تحوّل إلى طابوق قديم متآكل، والسقف امتلأ بخيوط
عنكبوت كثيفة، أما الرائحة فكانت تشبه بيوتاً ظلت مغلقة عقوداً بعد
موت أصحابها.

حتى الدرج بدا أطول مما يتذكر، كأنه يصعد إلى مكانٍ آخر غير السطح.
وقف قاسم في منتصف الغرفة.

ثم سمع الهسهسة.

في البداية ظنها صوت ريح، لكن الصوت كان يقترب ببطء، منتظماً، كأن
شيئاً ضخماً يحتكّ بالأرض.

ظهرت أولاً من تحت الدرج.

ثم الثانية.

ثم راحت الرؤوس السوداء تخرج تباعاً من العتمة.

سبعة ثعابين.

كانت ضخمة، داكنة على نحوٍ غير طبيعي، حتى إن جلدها لم يكن يعكس الضوء... ؛ تتحرك بهدوء بارد، كأنها تعرف البيت أكثر منه... ؛ بعضها تسلق الجدران، وبعضها دار حول الغرفة، بينما بقي أكبرها مقابلاً له مباشرة.

أراد أن يصرخ، لكنه لم يستطع.

شعر بأن جسده أصبح أثقل من أن يتحرك، بينما أخذت الثعابين تقترب دون استعجال، كأنها لا تطارده بل تتفقد.

وحين صار أكبرها على بعد خطوة، رفع رأسه ببطء ونفث في وجه الطفل هواءً بارداً.

لم تكن نفخة عادية.

كانت برودةً اخترقت عظامه دفعةً واحدة، كأن أبواباً كثيرة فُتحت داخل جسده في اللحظة نفسها: خوف، ووحدة، وإحساس غامض بأن شيئاً ما ينتظره في المستقبل، شيءٌ طويل ومظلم ولن يستطيع الإفلات منه.

صرخ قاسم أخيراً.

واستيقظ في حضن أمه.

كان جسده يرتجف بعنف، بينما راحت أمه تقرأ آيات قصيرة وتمسح على رأسه.

أما الأب فاكتفى بالنظر إليه بصمتٍ متجهم، قبل أن يقول:

— "لا تخبر أحداً بأحلام الليل."

لم يفهم الطفل الجملة آنذاك، لكنه تذكرها لاحقاً أكثر من أي نصيحة أخرى.

مرت السنوات.

كبر قاسم كما يكبر أبناء الأحياء الفقيرة: بسرعةٍ لا تمنح الروح وقتاً كافياً للنضج.

كان يرى الرجال يشيخون مبكراً، والنساء يخفين قلقهن تحت الأعمال

اليومية، والأولاد يتعلمون الخوف قبل القراءة.

لكن الحلم لم يختفِ.

كان يعود بأشكال مختلفة.

أحياناً يرى الثعابين تزحف تحت أسرة المستشفيات.

أحياناً يراها في الممرات الحكومية، مختبئة خلف وجوه الموظفين.

وأحياناً كان يشعر بها في نظرات الأقارب أنفسهم، تلك النظرات التي تبدأ

مودّةً وتنتهي حسداً أو شماتة.

في السابعة عشرة، مات أخوه الأكبر بطعنةٍ في مشاجرة تافهة.

وفي الرابعة والعشرين، خانه أقرب أصدقائه وسرق مالاً جمعه أبوه طوال

عمره.

وفي الحادية والثلاثين، وقف أمام باب المشرحة يتعرف على جثة زوجته بعد

انفجارٍ عابر لم تذكره نشرات الأخبار إلا لثوانٍ.

وفي كل مرة، كان يشعر بالهواء البارد نفسه يلامس وجهه قبل الكارثة

بأيام.

كأن الشعبان لم يغادر البيت قط.

مع الوقت، بدأ قاسم يفهم شيئاً مرعباً:

لم تكن الثعابين تسكن الحلم فقط.

كانت تسكن الناس أيضاً.

رآها في الحروب التي تبتلع الفقراء وحدهم، وفي رجال الدين الذين يبيعون

الخوف للجموع، وفي الأصدقاء الذين يتحولون إلى مخبرين حين يجوعون،

وفي الأقارب الذين يقيسون نجاح الآخرين كأنه إهانة شخصية لهم.

حتى المدينة نفسها بدت له كأنها تُدار بهسهسة خفية.

مدينة كاملة تخاف، وتحسد، وتراقب بعضها بعضاً، ثم تتظاهر بالبراءة صباحاً.

صار قاسم يعتقد أن الإنسان لا يُدَمَّر بضربة واحدة، بل بلدغات صغيرة متكررة؛ خيبة، خيانة، فقد، قهر، خوف...؛ حتى يستيقظ ذات يوم ليكتشف أنه لم يعد الشخص نفسه.

في مساء شتوي، بعد أكثر من خمسين عاماً على الحلم الأول، انتقل قاسم إلى بيت جديد في حيّ هادئ على أطراف المدينة.

كان البيت حديث البناء، نظيف الجدران، واسع النوافذ.

قال له ابنه ضاحكاً:

— "انتهى زمن البيوت القديمة يا أبي."

ابتسم قاسم دون أن يجيب.

في تلك الليلة، خرج إلى الباحة الخلفية.

لم تكن هناك نخلة.

ولا شجرة زيتون.

فقط أرض إسمنتية باردة.

رفع رأسه نحو السماء، وشعر فجأة بالاختناق نفسه الذي شعر به طفلاً.

عاد إلى الداخل ببطء.

وحين مرّ قرب الدرج، توقف.

كان هناك صوت خافت.

احتكاك شيء بالأرض.

بقي واقفاً عدة ثوانٍ، محدقاً في العتمة.

ثم لمح شيئاً أسود ينسحب سريعاً تحت الدرج.

لم يصرخ هذه المرة.

ولم يهرب.

اكتفى بالجلوس على أول درجة، وأشعل سيجارة بيدٍ مرتجفة، كأن تعب
العمر كله هبط فوق كتفيه دفعةً واحدة.

بعد دقائق، رفع رأسه نحو الظلام وقال بصوتٍ متعب:

— "أعرف..."

أنكم لم تكونوا في البيت أبداً."

ثم أطفأ السيجارة، بينما ظلّت المهسّسة تتردد بهدوء داخل الجدران، كأن



البيت نفسه يتنفس.

ارتباك البدايات (8)

في ذلك الصيف، كان البيت ينام مبكرًا، كأنّ الليل فيه طقسٌ عائليّ مقدّس.

الأب يطفئ التلفاز بعد نشرة الأخبار، والأم تجمع الصحون بصمتٍ معتاد، ثم تغرق الغرف في سكونٍ ثقيل لا يقطعه سوى أزيز المروحة القديمة. أما هو، فكان مستيقظًا دائمًا.

لم يكن يعرف ما الذي يحدث له تحديدًا.

جسده الذي اعتاد طاعته صار كائنًا آخر، غامضًا ومتقلّبًا، يشتعل فجأة بلا سبب، ويرتعش كأنّ داخله سرًّا يريد الخروج.

كان يراقب نفسه بخوفٍ خفيّ، ويتجنّب النظر الطويل إلى المرأة، كأنّ ملامحه تتبدّل ببطء دون إذنه.

في المدرسة، تغيّرت الأشياء أيضًا.

ضحكات زملائه صارت مليئة بإشاراتٍ لا يفهمها تمامًا، وأحاديثهم تنزلق دائماً نحو النساء والجسد والرجولة، ثم تنتهي بضحكٍ مكتوم ونظراتٍ متواطئة.

وحين حاول مرةً أن يسأل عن تلك التغيّرات التي تضرب جسده، قوبل بالصمت أولاً، ثم بالتوبيخ.

.. “عيب... هذه الأمور لا تُقال.”

ومنذ تلك اللحظة، تعلّم أن يخفي أسئلته كما يخفي الناس خطاياهم.

صار يحمل قلقه وحيداً.

يصلي أحياناً ليهدأ، ويقرأ أحياناً بلا تركيز، ويجلس طويلاً قرب النافذة

يراقب الشارع المعتم، شاعراً أن العالم كلّهُ يعرف شيئاً يجهله هو وحده.

وفي إحدى الظّهائر، بينما كان عائداً من المدرسة تحت شمسٍ باهتة، اقترب

منه صديق أكبر منه بعامين، وحدّثه بصوتٍ خفيض، كأنه يسلمه سرّاً

خطيراً.

ضحك أولاً، ثم ارتبك، ثم أنصت.

وفي تلك الليلة، انتظر حتى نام الجميع.

أغلق الباب بحذر، وجلس أمام شاشة الهاتف المرتجفة بين يديه.

كان قلبه يخفق بعنف، ليس شهوةً فقط، بل خوفاً أيضاً؛ خوفاً من أن يراه

الله، أو يسمعه الجدار، أو تفضحه عينٌ غير مرئية في الظلام.

وحين ظهرت الصور لأول مرة، شعر بارتباكٍ عاصف.

الوجوه، الأجساد، الأنفاس، كلّ شيء بدا غريباً ومحزناً ومغناطيسياً في آنٍ

واحد.

ثم حدث ما حدث.

انفجرت داخله رجفةٌ حادة، تبعثها موجة دفعٍ جارفة جعلته يلهث كأنه

خرج للتو من تحت الماء.

ساد الصمت.

ظلّ للحظات جامدًا يحدّق إلى الأرض.

كانت قطرات بيضاء متناثرة قرب قدميه، فيما ارتجفت يداه كأنّه ارتكب جريمة لا يعرف اسمها.

نهض مذعورًا، واتجه إلى الحمام.

فتح الماء بعنف، وأخذ يغسل يديه مرارًا، ثم وجهه، ثم ذراعيه، كأنّ الماء قادر على محو شيءٍ أعمق من الجسد.

لكن شيئًا داخله كان يتبدّل بهدوء.

حين عاد إلى غرفته، كانت المروحة ما تزال تدور ببطء، والليل كما هو، والبيت غارقًا في سكينته القديمة.

جلس على حافة السرير متعبًا، ثم رفع عينيه نحو المرأة.

للمرة الأولى، لم يشعر أنّه طفل.

وللمرة الأولى أيضاً، أدرك أن الجسد ليس عدوًا، ولا الروح سجّانًا، وأن
الإنسان يولد أكثر من مرة؛ مرةً من رحم أمّه، ومرةً من ارتبائه الأول أمام
نفسه.

أطفأ الهاتف، واستلقى بصمت.

وفي الخارج، كان الفجر يتسلّل ببطءٍ خلف النوافذ، كأنّ العالم يمنحه بدايةً



جديدة لا تشبه ما قبلها.

أذبحني أولاً ثم أقطع يدي يا أخي !!.. (9)

في تلك الليلة التي فرّ فيها خلف من قريته، لم يكن يحمل معه سوى
بندقيته، وزوجته، وأطفاله، وسلسلة طويلة من الأحقاد والعُقد والخوف.

كان ابنه الأكبر قد قتل أحد أقربائه إثر شجار تافه على حدود أرض
زراعية، فاشتعلت القرية ناراً، واضطر خلف إلى الهرب نحو العاصمة، تاركاً
وراءه بيت الطين والنخيل والأثار القديمة.

استقر في حيّ عشوائي على أطراف المدينة؛ حيّ يشبه مخيماً كبيراً
للمهزومين والفارين من الفقر والثأر والجفاف.

لكن المدينة لم تُغيّر خلف، بل منحتة مساحة أوسع لفوضاه.

جاء بأخلاق القرية القاسية، وبعقله العشائري، وبإيمانه العنيف بالرجولة.

كان يصرخ كثيراً، يهدد كثيراً، يضرب كثيراً، ويضحك بصوت مرتفع بعد
كل شجار كأنما أنجز بطولة تاريخية.

كبر أولاده وهم يشاهدونه يشتم أمهم، ويركل أخاهم، ويضرب أختهم
لأسباب لا يفهمونها.

وفي الليل، كان يختفي أحياناً بثياب معطرة وشعر مصبوغ بالسواد، ثم يعود
مع الفجر مترنحاً من الخمر، متباهياً بمغامراته النسائية كما لو كان فاتحاً
عظيماً.

أما النساء في بيته، فكنّ يعشن داخل سجن طويل بلا قضبان.

لا ضحك مرتفع.

لا خروج بلا إذن.

لا حديث مع الرجال.

لا هاتف.

لا أسرار.

حتى الهواء كان يمر عليهن بعد تفتيشه.

تزوجت ابنتاه الكبريان من أخوين يعيشان قرب بيت العائلة.

أما الصغرى، حمدية، فقد بقيت مدة أطول في بيت أبيها، حتى تزوجها محمد ابن الحاج عبود؛ رجل غليظ الملامح، قليل الكلام، يشبه بابًا صدئًا لا يُفتح إلا بالصراخ.

أنجبت حمدية أربعة أطفال خلال سنوات قليلة، وذبل جسدها سريعًا من الحمل والتعب والخوف.

كانت تستيقظ قبل الجميع، وتنام بعد الجميع، وفي المسافة بين الصباح والليل كانت تتحول إلى آلة: تطبخ، تغسل، تنظف، ترضع، وتتحمل الشتائم والصفعات.

لم يسألها أحد يومًا:

. ماذا تريدين؟

حتى هي نسيت أن تسأل نفسها.

وفي أحد الأيام، اشترى لها زوجها هاتفاً نقالاً رخيصاً، فقط كي يتصل بها أثناء عمله.

لم يكن يعرف أنه وضع نافذة صغيرة في جدار قبرها.

في البداية، كانت تخاف من الهاتف كما تخاف القرويات من المدن الكبيرة.

ثم بدأت تتصفح بصمت.

وجوه تضحك.

نساء يسافرن.

شباب يتحدثون بلطف.

أغانٍ.

قصائد.

صور بحر ومدن وأضواء.

كانت تحديق طويلاً في ذلك العالم، كالسجينة التي ترى السماء لأول مرة.

شيئاً فشيئاً، بدأت تشعر أن حياتها ناقصة، ناقصة بطريقة موجعة.

ليس لأنها فقيرة فقط... بل لأنها لم تعيش أصلاً.

وفي إحدى الليالي، وصلتها رسالة:

. مساء الخير... هل تسمحين بالصدقة؟

ترددت طويلاً.

حدقت في الكلمات كأنها شيء محرم.

ثم كتبت بخجل:

. وعليكم السلام.

جاءها الرد سريعاً:

. لسنا في مسجد يا سيدتي.

ضحكت.

ضحكت لأول مرة منذ شهور.

كان اسمه مازن.

شابًا جامعيًا من عائلة ميسورة، يتحدث بلغة مختلفة عن رجال حيّها.

لا يصرخ.

لا يشتم.

لا يأمر.

كان يسألها:

. هل تعبتي اليوم؟

فتشعر بشيء يرتجف داخلها.

ويقول:

. صوتك حزين حتى في الكتابة.

فتبكي دون أن تعرف السبب.

لم يكن بينهما حب بالمعنى التقليدي، بل شيء أشبه بإنقاذ بطيء لروح
تختنق.

أما حميدة، فكانت تدخل إلى ذلك العالم كما يدخل الجائع إلى حلم مليء
بالخبز.

كانت تنتظره كل يوم بلهفة طفلة.

تنتهي من أعمال البيت بسرعة، تُطعم أطفالها، تغلق الباب، ثم تجلس قرب
الهاتف وقلبها يخفق بعنف.

ولأول مرة في حياتها، بدأت تشعر بأنها امرأة... لا خادمة.

لكن البيوت التي تعيش على الخوف، تملك آذاناً طويلة.

بدأت أم زوجها تراقبها.

ثم أخواته.

ثم الجارات.

لم يكن في البيت سرٌ يبقى حيًا.

وفي ظهيرة خانقة، خرج محمد من البيت متظاهراً بالذهاب إلى العمل، ثم

عاد خلصة.

وقف قرب الباب يسمع همساتها.

كانت تضحك.

تضحك بصوت خافت وهي تكتب:

. لا أعرف لماذا أحب الحديث معك.

شعر كأن رصاصة اخترقت رأسه.

اقتحم الغرفة بعينين متوحشتين، وانتزع الهاتف من يدها.

. من هذا ابن الزانية؟!

تجمد الدم في عروقها.

حاولت الكلام، لكن الصفعة أسقطتها أرضاً.

انحال عليها ضرباً وركلاً، بينما كان الأطفال يصرخون حولها كفراخ مذعورة.

وحين أغمي عليها، كان لا يزال يضربها.

في تلك الليلة، اجتمع الرجال.

جلس خلف في صدر الغرفة كقاضٍ بدوي خرج من القرن التاسع عشر.

كان وجهه محتقناً، وعيناه تشتعلان.

صرخ:

. بنتي جلبت العار!

رغم أن الجميع يعرف أنه يقضي لياليه بين الملاهي والنساء.

لكن أحداً لم يجرؤ على تذكره.

في عالمهم، خطايا الرجل نزوة... وخطايا المرأة نهاية العالم.

حاولت أمها الدفاع عنها:

. ربما مجرد كلام...

فالتفت إليها خلف وصفعها حتى سقطت.

ثم قال:

. الشرف لا يحتاج محكمة.

قضت حمدة ليلتها مربوطة اليدين في المخزن.

كانت تسمع همسات الرجال خارج الباب.

وتسمع بكاء أطفالها.

وتشعر أن الموت يقترب منها ببطء.

تذكرت مازن.

تذكرت ضحكتها الوحيدة.

تذكرت البحر الذي رأيته في صورة.

وتمنت، للمرة الأولى، لو أنها هربت.

قبل الفجر، وضعوها في صندوق السيارة.

كانت ترتجف كعصفور مبتل.

أخذوها إلى أرض مهجورة قرب مزرعة مهملة، المكان نفسه الذي كان

خلف يذهب إليه مع عشيقاته ليشرب ويمارس نزواته السرية.

لكن المكان الذي كان عنده وكراً للذرة... صار قبراً لابنته.

أنزلوها بعنف.

بدأ صادق ووحيد بحفر حفرة ضيقة.

كانت تنظر إليهما بصمت مذهول، كأنها لم تستوعب بعد أن إخوتها

يحفرون قبرها بأيديهم.

قالت بصوت مكسور:

. أريد أطفالي...

لم يرد أحد.

وحين انتهوا من الحفرة، أخرج صادق سكيناً صدئة.

أمسك يدها.

صرخت:

. بالله عليك... لا...

لكن السكين كانت عمياء، تنهش اللحم ببطء.

ارتفع صراخها في الفجر المقفر.

ثم نظرت إلى أخيها بعينين غارقتين بالرعب وقالت:

. اذبحني أولاً ثم اقطع يدي يا أخي...!

حتى في طريقة موتها كانت مظلومة.

وضع وحيد السكين على رقبتها، بينما استمر صادق بقطع يدها المرتجفة.

كانت تبكي وتردد أسماء أطفالها.

ثم خفت صوتها تدريجيًا...

حتى ساد الصمت.

بعد أيام، نبشت الكلاب التراب.

عثرت الشرطة على الجثة.

قُيدت القضية ضد مجهول.

كما تُقيد آلاف الجرائم في البلاد التي تعرف القاتل لكنها تخاف اسمه.

أما خلف، فقد عاد إلى حياته كأن شيئًا لم يحدث.

بل أخذ يطالب أهل مازن بالفصل العشائري، مهددًا بالقتل والتأثر.

كان يريد المال... والدم... والبطولة.

كل شيء معًا.

وفي الليل، حين يخلع عقاله ويجلس وحيدًا، كان يسمع أحيانًا صرخة

حمدية:

. اذبحني أولًا ثم اقطع يدي يا أخي...!

لكن الرجال الذين يقتلون بناتهم، نادرًا ما يعترفون بأن الأشباح تسكنهم.



ابن الربيع الذي ضاق بالأرض (10)

وُلد في الربيع، فحسب أن الحياة وعدٌ أخضر، وأن العالم شرفةً مفتوحة على الضوء... ؛ منذ صرخته الأولى، كانت الريح تمشط شعيرات رأسه برفق، وكانت الشمس تضع على جبينه قبةً ذهبية، كأنها توقّع عقدًا سرّيًا بينه وبين الجمال... ؛ لذلك شبّ وهو يطارد الألوان كما تُطارِد الفراشات، ويصغي إلى خفقة الظلال على الجدران، ويقرأ في وجوه الناس خرائط القبح والجلال والجمال... ؛ كان يرى العالم كلوحةٍ معلّقة بين إصبعين من نور، ويتعامل مع الجمال كما يتعامل الناس مع الهواء؛ حاجةً يومية لا يُستغنى عنها...

وُلد في الربيع، فكانت روحه نسيجًا من ضوءٍ وندىٍ وعطر... ؛ لم يكن الربيع فصلَ ميلاده فحسب، بل صار جوهره الدافق في شرايينه، ومراة روحه التي ترى الجمال في كلّ ذرّة من هذا الكون...

كانت أمّه تذكر الأمر دائماً، وتقول : إن وجهه يوم وُلد كان هادئاً على
غير عادة الأطفال، كأنه لم يصرخ احتجاجاً، بل صمت دهشة واعجاباً
...

كبر في حيٍّ مكتظ، حيث الشوارع ضيقة، والغبار لا يهدأ... ؛ لم يكن
يختلف كثيراً عن أقرانه، إلا في شيء واحد: صدره .

كان يتعب بسرعة، يلهث بعد جريٍ قصير، ويجلس جانباً بينما يواصل
الآخرون اللعب ...

ثم تشرب فلسفة الجمال حتى صار خبيراً في الجمال وفلسفته... ؛ يعرف
القبح من النظرة الأولى؛ لأن الأشياء، كما كان يردد، تُعرف بأضدادها...
؛ والنور لا يُدرك إلا بالظلمة التي تسبقه ... ؛ و كان يلتقط نشار الروح
كما يلتقط العازف نغمةً شاردة... ؛ ويميّز العطر من مسافة، ويهتدي إلى
النسمة الطيبة كما يهتدي الغريب إلى بيته الأول... ؛ وكان يتحسس من
الغبار كما لو أنه شوكةٌ في رئة السماء... ؛ اذ يضيق صدره، ويضطرب
إيقاع أنفاسه، كأن رثيّه عصفوران صغيران حُبساً في قفصٍ من دخان...

نعم ؛ كانت أنفاسُهُ مرهفَةً كأوتارِ عودٍ، تتألمُ من أدنى شائبةٍ في الهواء... ؛
و حساسيَّتُهُ للغبارِ والأتربةِ والدخانِ كانت كحساسيةِ المرأةِ للخدشِ،
وكانت أنفُهُ تميزُ الروائحَ الزكيةَ من مسافاتٍ بعيدةٍ، كأنها تبغي الوصولَ إلى
زمنٍ أولٍ لم يُلَوَّثْ بعد...

ولم يكن يكتفي برؤية الألوان، بل كان يُصغي إليها ... ؛ الأزرق عنده
صلاة، والأخضر وعد، والأبيض هدنة قصيرة بين حربين ...

لكنَّ القَدَرَ - ساخراً أم منتقماً؟! - زرعَ في صدرِهِ منذ الطفولةِ بذرةَ الربو،
فصارت رثاءهُ ثِقَاتِلانِ الهواءِ قبلَ أن يستقرَّ فيهما، وكان الأوكسجينُ الذي
يهبُ الحياةَ لغيرِهِ يمرُّ في جسديهِ كأنه يطلبُ الإذنَ بالدخول... ؛ فصار
الهواء، الذي هو حقٌّ فطريٌّ لكل كائن، امتحاناً يوميّاً له... ؛ و كأن
صدره قفصاً لطائرٍ مدعورٍ، يخبطُ بجناحيه حين يشتد الغبار، ويضيق حتى
يكاد ينسى معنى الشهيق... ؛ هكذا تعلّم أن النفس ليس مجرد حركة
فيزيائية، بل نعمةٌ تتخفّى في التفاصيل اليومية والانواء المناخية والتحويلات
البيئية .

نعم , كان يرى الناس يتنفسون كما لو أنهم يملكون حقًا بديهيًا في الحياة،
بينما كان هو يفاوض الهواء على هدنة قصيرة... ؛ فكل شهيق معركة،
وكل زفير نجاة مؤقتة ؛ لم يكن يطلب الكثير؛ مجرد نسمة صافية، لا
تشوبها عوادم السيارات، ولا تخنقها أدخنة المولدات، ولا تُثقلها روائح
القمامة ومياه المجاري الراكدة ...

لم يكتشف قاسم أنه مريض بالربو في عيادة الطبيب، بل في صباح يوم
ميلاده السابع، حين انفجرت بالونته الحمراء... ؛ البالونة التي نفخها
بنفسه وهو فاغر العينين، انكمشت فجأة أمام وجهه، بينما أحسّ بقبضة
باردة تعتصر شيئاً في صدره... ؛ ركض إلى أمه في المطبخ، لا ليخبرها عن
البالونة، بل ليسألها بصوت متقطع: ماما... لماذا الهواء يضيق في صدري ،
لماذا الهواء يقل وينقص في رئتي يا ماما ... ؟!

وقد قال له الطبيب في العيادة :

لديك ربو، وعليك أن تتجنب الغبار ...

لم يضحك ولم يحزن ... ؛ فقط نظر إلى الشارع خارج العيادة، حيث كانت السيارات العتيقة تمرّ وتخلّف وراءها سحابة رمادية خائقة، وقال في نفسه :

"وكيف؟!"

كبر قاسم، وكبر معه السؤال ... ؛ لم يكن صبيّاً عادياً، هذا ما لاحظته الجميع ... ؛ كان يرى ما لا يراه أقرانه ...

ثم مع السنوات، صار يعرف جسده جيداً... ؛ يعرف متى تضيق أنفاسه، ومتى يسبق السعال النوبة، ومتى ينبغي أن يتوقف ...

لكنه تعلّم أيضاً شيئاً آخر :أن الأماكن تختلف باختلاف الناس .

في المدرسة، تعلّم أن يراقب أكثر من أن يشارك... ؛ كان ينظر من النافذة أكثر مما ينظر إلى السبورة... ؛ الأشجار البعيدة، القليلة، كانت تشدّه... ؛ لا يعرف لماذا، لكنه كان يشعر أن هناك شيئاً يخصّه في ذلك الاخضرار البعيد .

في حصة الرسم، بينما كان التلاميذ يشخبطون بيوتاً وشمساً صفراء، كان هو يخلط الألوان ليصنع "لون الظل على العشب وقت الأصيل"... ؛ و قالت له المعلمة مرة: "أنت تبذر الألوان"... ؛ فأجابها: أنا أبحث عن لون الهواء يا ست ...

كانت هذه الحساسية نعمة ونقمة في آن واحد... ؛ في طريقه من المدرسة، كان يغلق أنفاسه عندما تمر شاحنة قديمة، لا خوفاً من الغبار، بل اشمئزاً من "رائحة العادم"، التي كان يقول عنها : إنها "رائحة الأشياء وهي تموت".

أصدقاؤه اعتادوا جنونه... ؛ كانوا يضحكون فيما بينهم ، وهم يقولون : "قاسم شتّام، يشم الهواء قبل أن يبلعه"... ؛ أما هو فكان يشعر بغصة... ؛ كيف يشرح لهم أن الهواء ليس شيئاً واحداً، وأن هناك هواءً ثقيلاً كالصوف، وآخر خفيفاً كالحرير؟

نعم لم يكتفِ القدر بذلك، بل ألقى به في مدينةٍ خربة منهكة تنن تحت وطأة الإهمال ... ؛ مدينةٍ تشبه جرحاً مفتوحاً لا يجد من يضمده ، تتنفس

تعبها كما يتنفس هو ألمه... ؛ مدينةً تتراكم فيها القمامة كذكرياتٍ
فاسدة، وتطفح مجاريها كما تطفح الحشرات في القلوب، ويغمر سماءها
دخان المولدات وعوادم السيارات، حتى يصير النهار رماديًا، والليل أثقل
من أن يُحتمل... ، كانت شوارعُها مختنقةً بغازاتِ السيارات، وهواءُها يحملُ
جثثَ الأوكسجينِ المذبوح... ؛ كان يشعر أن المدينة زنزانةٌ صغيرة، نتنة ؛
ذات جدرانٍ من ضجيج، وسقفٍ من سخام... ؛ كل شيء فيها يختبر
رئتيه، ويستفز حساسيته، ويستدرج نوبات اختناقهِ ، وأنه محكومٌ فيها
بالسعال المؤبّد... ؛ لا يطلُّ منها على الدنيا إلا من خلالِ ثقبٍ صغيرٍ
يرى منه - بين الفينة والفينة - صورًا لمدنٍ بعيدةٍ ذاتِ طبيعةٍ خلاّبةٍ،
حيثُ الهواءُ نقيٌّ كأنه قُبلةٌ ملاك...

في أول رحلة له خارج مدينته، كان في السابعة عشرة... ؛ سافر مع
صديق إلى منطقة ريفية قريبة... ؛ لم يكن المكان مدهشًا جدًّا، مجرد مروج
خضراء وبعض الأشجار، لكن ما حدث له كان مختلفًا... ؛ تنفس بعمق
ومن دون ألم... .

بقي صامتًا لدقائق، ثم قال لصديقه :

هل الهواء هنا أخفّ؟

ضحك الصديق :

الهواء هو الهواء ...

لكن قاسم لم يقتنع... ؛ كان يشعر أن صدره اتّسع، كما لو أن شيئًا كان
مغلقًا فيه وانفتح فجأة

منذ ذلك اليوم، صار يقيس الأماكن بقدر ما تمنحه من نفس عميق وهواء
نقي ...

عاد إلى مدينته، فعادت معه الأزمة ورجعت اليه نوبات الربو ...

نعم ، لم يكن يجد نفسه إلا حين يسافر إلى مدن ذات طبيعةٍ خلابة وهواءٍ
نقي، حيث الأشجار تُصلّي واقفة، والأنهار تُسبح همسًا، والسماء قريبةٌ
بحيث يمكن لمسها بطرف الروح... ؛ هناك فقط كان صدره يتّسع، كأن
ضلوعه نوافذ تُفتح دفعةً واحدة...

غير أن السفر لم يكن طوع يده؛ فهو لا يرحل إلا إذا تحسّن حاله المادي
وجاءه رزقٌ فائضٌ عن حاجته، وذلك لا يحدث إلا على فتراتٍ متباعدة،
كأن الفرح نفسه موظفٌ يتأخر عن دوامه...؛ فإذا تحسّن وضعه المادي
قليلاً ؛ شدّ رحاله إلى مدنٍ تتوضأ بالأنهار، أو إلى جبالٍ تغتسل بالضباب
الذي يغمر المكان ... ؛ هناك، فقط، كان يمشي منتصباً، كأن عموده
الفقرى يستعيد ذاكرته القديمة... ؛ هناك، يتنفس بعمق، فيشعر أن صدره
يتّسع للعالم، لا أن العالم يضيق عليه...؛ وفي كلّ مرةٍ كان يعودُ إلى مدينته،
كان يحملُ في رثتيه ذكرى هواءٍ نقيٍّ يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى يتحوّل إلى
سراب...

نعم كان يسافر... ؛ ليس حباً في السياحة، بل هرباً من الموت
اختناقاً... ؛ كان يدّخر من راتبه الضئيل ستة أشهر، ليحصل على أسبوع
واحد في بلدة جبلية بعيدة... ؛ هناك، كان يُشفى... ؛ ليس تماماً من
الربو، لكن من خوفه من الهواء الملوّث...

وفي احدى السفرات , كان يمشي وحيداً بين أشجار الصنوبر، ويستمع إلى الصمت... ؛ هناك، تذكر حادثة البالونة الحمراء... ؛ أدرك أن المشكلة لم تكن يوماً في رئتيه، بل في أن روحه بالونة تريد أن تمتلئ، والمدينة إبرة حادة لا تفعل شيئاً سوى أن تثقب كل ما هو جميل في روحه

لكن الحرب الحقيقية بدأت لاحقاً... ؛ اذ لم يعد العدو مجرد عادم شاحنة عابرة، بل صارت المدينة كلها خصماً عنيداً... ؛ حين تخرج من الجامعة، وتعين موظفاً صغيراً في بلدية تلك المدينة، اكتشف أن هناك نوعاً من التلوث لا تستطيع معرفته حتى حاسة الشم الخارقة... ؛ انه تلوث الروتين , تلوث الإهمال , أكوام القمامة في الأزقة الخلفية صارت كالمرايا، تعكس شيئاً متعفنًا في روح المكان... ؛ كان يشعر أن صدره يضيق تدريجياً، ليس فقط بسبب الغبار، بل بفعل العجز... ؛ عجز رآه في عيون الجيران الذين ألقوا الرائحة الكريهة حتى توقفت أنوفهم عن الاعتراض ...

وفي أحد الأيام، ضربت المدينة عاصفة ترابية خانقة... , و اشتدّ الغبار حتى صار الهواء عجيناً ثقيلاً... ؛ وامتزج الغبار بعوادم مئات المولدات

الكهربائية والاف الحركات الصغيرة والكبيرة للسيارات والاليات التي تن
كالثيران الجريحة... ، وتكاثفت السماء كأنها تُطبّق على صدره...
؛اختنق، وضاق صدره ,وسعل حتى احمرّ وجهه، وضاق ذرعًا بمدينته
وبجسده معًا ... , وأحسّ أن المدينة تغلق عليه بابها الأخير... ؛

أغلق قاسم النوافذ بسرعة ، وبلّل قطعة قماش ووضعها على أنفه , لكن
الغبار كان يتسلل من كل شق ...

جلس قاسم على الكرسي، يحاول أن يضبط أنفاسه ...

شهيق قصير ...

زفير متقطع...

امتدت يده نحو البخاخ، لكنه تأخر لحظة، وكأن بينه وبينه مسافة ... ؛
فوجده فارغاً... ؛ تذكر أنه نوى شراء واحد جديد ، لكنه نسي ...

ازدادت حدة السعال ...

انحنى جسده، وراح صدره يصدر صفيراً خافتاً ...

في تلك اللحظة، لم يفكر في شيء كبير... ؛ لا في الجمال، ولا في
الفلسفة ...

فقط فكرة واحدة : أراد أن يتنفس بعمق .

بعد أن هدأت النوبة قليلاً، نهض من الكرسي و استلقى منهكاً ...

اذ جلس على حافة سريرهِ كجندِيٍّ مهزوم، ثم آوى إلى فراشه مثقلاً بالكآبة
وترك جسده لليل، لعل النوم يحنو عليه بما يخل به النهار ...

وبينما كان يغرقُ في بحرِ التعب، زارهُ الحلمُ... ؛ رأى نفسهُ يمشي في مروجٍ
خضراء لا متناهية ... ؛ كأن الأرض بساطٌ من زمرد , والهواءُ حولهُ عذبٌ
نقيٌّ كأنه أريجُ القداحِ في الجنةِ الأولى... ؛ صافٍ كأنه لم يُمسَّ بيد بشر...
؛ كان يتنفس بلا ألم، بلا صفييرٍ في صدره، بلا خوفٍ من نوبةٍ مفاجئة...؛
و كان يمشي بقوةٍ وانتصابٍ لم يعهده من قبل، جسدهُ الذي كان دائماً
الانحناءِ تحتَ وطأةِ المرضِ صار منتصباً كالنخلةِ في واحةِ الأمل... ؛
ضحك، فضحكت الحقول معه، وشعر أنه أخيراً يملك الهواء كما يملك

اسمه... ؛ كان يبتسم ويكي في آن، فرحًا بالهواء الذي يدخل رئتيه دونَ

استئذان، وحزنًا على سنينَ عاشها في جحيمِ التلوث الارضي في بلاده ...

وفجأةً جاءه صوتٌ من خلفه، رقيقٌ كنسيمٍ مباغت :

-أتعرفني؟

-أنا الربيع...

التفت قاسم ، ولم يرَ شخصًا، بل رأى لونا يتكلم، وضوءًا يتجسد ؛ وكيانًا

نورانيًا يتجسدُ في هيئةِ طفلٍ بريءٍ وأبٍ حنونٍ في آن واحد ...

ارتجف قلب قاسم ثم رد بصوتٍ يختلطُ بالدموع :

نعم... ؛ أنا وُلدتُ في الربيع، ومن أجل الربيع...، الحياة التي نشأتُ فيها

لا تمثلني، والمدينة التي احتضنتني لم تكن بيئي الحقيقية... ؛ أنا أنتمي إلى

الرياض النضرة، إلى الأجواء العطرة، إلى الهواء الذي لا يخذل صدري ؛

حياتي الحقيقية ليست هناك، في تلك المدينة التي تخنقني... ؛ تلك ليست

بيئتي، ليست روحي... ؛ هنا... , هنا فقط أشبه نفسي... , هنا وطني
الأصلي .

ابتسم الربيع، وقال :

— كل إنسان يولد مرتين؛ مرةً من رحم أمّه، ومرةً من رحم اختياره... ؛
المدينة ليست قدرك، كما أن المرض ليس تعريفك... ؛ أنت لست رئيتك
المتعبتين، بل شغفك الذي يقاوم العتمة ...

سكت قاسم قليلاً، ثم رفع رأسه نحو السماء التي تتدلى منها أغصانُ
الزيتون المضيفة، ونادى الملاء الأعلى الذي لا يُرى... ؛ وقال بصوتٍ مبللٍ
برجاءٍ وحرقة :

أرجوكم...، أتوسلُ إليكم...، دعوني هنا... , فإني لا أطيقُ التلوثَ، ولا
أحتملُ العودةَ إلى ذلك الجحيم المشوه... , دعوني أستنشقُ هذا الهواءَ
حتى آخرِ حياتي، حتى لو كانت حياتي هنا مجردَ حلمٍ عابر...

ساد صمتٌ مهيب، ثم جاءه الجواب من حيث لا يدري... ؛ اذ فتحت
السماءُ أبوابها، ونزلت عليه نسمةٌ باردةٌ رقيقةٌ همست في أذنه ...؛ حتى
صار صوته داخل صدره، لا خارجه... :

يا بني، الربيعُ ليس مكانًا، بل حالةٌ وجوديةٌ داخلية ... ؛ أنت تحملهُ في
قلبك، وفي كلِّ مرةٍ تشتاقُ إليه، سنجعلك تزوره في أحلامك... ؛ ولكن
عليك أن تعودَ الآن، فمدينتك بحاجةٌ إلى من يزرعُ فيها وردةً واحدةً من
ربيعك ...

وإن لم تستطع أن تغَيِّر المدينة، فازرع ربيعك في صدرك... ؛ اجعل من
روحك حديقة، ومن بيتك نافذةً للهواء النقي، ومن كلماتك أشجارًا... ؛
ليس الهروب خلاصًا دائمًا، أحيانًا يكون الخلاص أن تصير أنت الربيع...

لو أبقىته هنا، ماذا يبقى من رسالتك هناك؟!

أنت لم تُخلق لتنجو وحدك، بل لتكون نافذةً إنسانية ... ؛ الربيع ليس
فصلًا في التقويم، بل موقفًا في القلب... ؛ ازرعهُ في مدينتك، في حجارتهَا

المتعبة، في هوائها المثقل... ؛ إن لم تستطع أن تغير السماء، فغير طريقة
تنفسك للحياة...

استيقظ وقلبه يخفق، وصدره ما يزال يئن، و بصعوبة بالغة، و بعد
ساعات، حين انقشعت العاصفة، كان قاسم ما يزال على قيد الحياة... ؛
زحف نحو النافذة وفتحها... ؛ ضربه الهواء الحار المحمل بالأتربة الخفيفة
كالكف، فانحنى إلى الوراء... ؛ لكنه في تلك اللحظة الحرجة، سمع
صوتاً... ؛ لم يكن وحيًا، ولا حلمًا... ؛ كان صوت جارتة العجوز، أم
ياسين، تنادي ابنها من الشارع... ؛ صوت بشري بسيط، أرجع إليه
إحساسه بالعالم الخارجي... ؛ و أدرك أن أحداً لن ينقذه، وأن عليه أن
ينقذ نفسه... ؛ ركّز كل ما تبقى لديه من قوة في شهيق بطيء جداً،
يكاد يكون غير مسموع، واستطاع أن يلتقط نفساً... ؛ الغرفة مليئة
بطبقة رقيقة من الغبار، لكنه كان يتنفس... ؛ نهض بهدوء، وفتح النوافذ
كلها... ؛ دخل الهواء النظيف التالي بعد انجلاء عاصفة الغبار ، هادئاً
ورطباً .

نظر إلى الشارع... ؛ كان كل شيء مغطى بالغبار... ؛ السيارات،
وأوراق الشجر، ووجوه المارة المتعبة... ؛ ثم رأى شيئاً غريباً... ؛ طفل
صغير، ابن الجيران، كان يبذل أصبعه في بركة ماء صغيرة ، ويرسم على
الغبار المتراكم على غطاء سيارة... ؛ رسم وردة ، مجرد دائرة صغيرة
وخطوط .

شيء ما تصالح في قلب قاسم... ؛ لم يعد ذلك الشاب الذي يطارد
الجمال في الاماكن البعيدة ؛ كان مجرد رجل تعب من السعال... ؛
لكنه في الأيام التالية، بدأ يفعل شيئاً صغيراً جداً... ؛ في الصباح الباكر،
قبل أن يستيقظ الشارع، كان يخرج بمكنسة صغيرة ويرفع القمامة المتناثرة
أمام العمارة... ؛ لم يخبر أحداً، ولم ينادِ بحملة تنظيف... ؛ لم يكن يظن
أنه سيغير المدينة... ؛ لكن بينما كان يكنس بهدوء، وجد نفسه يتنفس
دون أن يدري... ؛ شهيقاً طويلاً، عميقاً... ؛ ليس هواء الجبل، ولا
هواء الحلم، بل هواء مدينته... ؛ هواء لم يعد فيه ما يكفي من الغبار
ليخيفه، لأنه ببساطة هو الذي أزاحه.

ولأول مرة منذ زمن طويل، لم يبحث عن رائحة الزيتون في الجبال، بل سمع زقزقة عصفور على سلك الكهرباء أمام شباكها، فقال له بصوت خافت، وهو يبتسم لأول مرة: صحيح... يمكن للمرء أن يزرع الربيع بيديه

نعم ، ولم يُشفَ من الربو في لحظةٍ سحرية... ؛ لكن شيئاً ما تعيّر فيه... ؛ صار ينظر من نافذته إلى المدينة نفسها، إلى الإسفلت المتشقق، إلى الغبار العالق في الضوء... ، فالغبار يتساقطُ من النافذة المكسورة ؛ ولم تختفِ القمامة، ولم يتبدد الدخان، غير أنه شعر أن الربيع لم يعد وعدًا مؤجلًا في جغرافيا بعيدة، بل بذرةً في داخله ...

صار يتنفس ببطء، كما لو أنه يتعلّم الشهيق لأول مرة ... ؛ وأدرك أن الهواء قد يُلَوّث خارجًا، لكن القلب إذا امتلأ بالربيع، صار هو الرائحة الأخرى...

أدرك قاسم أن الجمال ليس هروبًا دائمًا، بل مقاومةً رقيقة... ؛ وأن القبح، مهما علا، يظلُّ ظلًّا ينتظر شمسًا... ؛ ومنذ ذلك الصباح، صار

كلما ضاق صدره، يفتح نافذةً صغيرةً في قلبه، ويهمس :أنا ابنُ الربيع...

وسأتنقّس، ولو من حلم



إبراهيم الكوفي: الرجل الذي نسي أن يعيش لنفسه (11)

حين اجتاحت العواصفُ السوداءً أطرافَ المحمودية، لم تكن البيوت وحدها هي التي تخدمت؛ بل تخدمت معها أشياء لا تُرى: الطمأنينة، والثقة، وإحساس الإنسان بأن الأرض التي يمشي عليها تعرف اسمه.

كان أحمد حمزة السلطاني واحدًا من أولئك الذين حملوا بيوتهم على ظهورهم ورحلوا.

لم يكن أحمد حمزة السلطاني يعلم، وهو يغلق باب داره في أطراف المحمودية للمرة الأخيرة، أن بعض الأبواب إذا أُغلقت لا تُفتح ثانية، حتى لو عادت المفاتيح إلى أصحابها.

كانت المنطقة تعيش سلامًا يشبه الرماد الذي يغطي جمرةً متقدمة.

كل شيء يبدو هادئًا...

إلى أن هبطت غربان الشر، وخرجت خفافيش الظلام من كهوف الكراهية
الطائفية ، فانفجرت الوحوش المختبئة في النفوس، وصارت البيوت تُغادر
أصحابها قبل أن يغادروها.

حمل أحمد أطفاله وذكرياته وبعض ثيابه، ومضى مع آلاف المقتلعين من
جذورهم.

وفي قضاء الحمزة الغربي بنى مأوى متواضعًا من أعمدة خشبية وصفائح
صفيح وبلوك متآكل.

كان البيت أشبه بشاهد قبرٍ كبيرٍ لحياةٍ ماتت.

وحين كانت الرياح تعصف ليلاً، كان يشعر أن الجدران ترتجف معه، وأن
الفقر نفسه قد اتخذ هيئة منزل.

كان يجلس في الظلام ويتأمل أبناءه النائمين، ويسأل نفسه:

"أي ذنبٍ اقترفناه لنصبح لاجئين؟!"

وبعدما انحسر المدُّ الإرهابي الأسود، و انقشعت سنوات الرعب ، عاد
الناس إلى مناطقهم كأسراب طيور مهاجرة تبحث عن أعشاشها
المفقودة... ؛ عاد أحمد مع العائدين، لكنهم وجدوا ديارهم بلاقع، احياء
خربة، حيطاناً مهدومة، وأثاثاً مسروقاً. لم يتركوا حجراً على حجر، كأن
عدوى الكراهية أصابت الجماد كما أصابت البشر.. ، وقف أحمد على
أطلال بيته القديم، لم يجد باباً.. ، ولا نافذة.

ولا أثاثاً.

ولا أثراً لصوت أمه الذي كان يملأ أرجاء المكان.

كانت الدار أشبه بعجوزٍ نُحِبُّ ذاكرتها... ؛ وكأنه عاد الى بلدة لا تعرفه .

في تلك اللحظة أدرك أن اللصوص لا يسرقون الممتلكات فقط.

بعضهم يسرق أعمار الناس.

وبعضهم يسرق قدرتهم على الانتماء.

وكذلك أدرك حقيقة مؤلمة أخرى :

ليست كل البيوت التي تُهدم تُبنى من جديد، فبعض البيوت تُبنى داخل

القلب، فإذا سقطت بقي الإنسان يتجول بين أنقاضها إلى الأبد.

اشترى بيتًا صغيرًا في إحدى مناطق التجاوزات ورحل عن بيته القديم

المنكوب .

وكان يظن أن المصائب حين تتعب تتوقف.

لكنه اكتشف أنها أحيانًا تستريح فقط لتستأنف عملها لاحقًا.

وكان يبحث، مثل كثيرين، عن شيء أكبر من الراتب والطعام؛ كان يبحث

عن معنى يعوضه عن كل ما خسره.

ففي محاولة للبحث عن معنى جديد لحياته، ولإيجاد سند ؛ انتمى إلى أحد

المقرات الحزبية (حزب الدعوة) في قضاء المحمودية .

هناك رأى وجوهًا كثيرة تتحدث عن الإيثار.

لكنها تتسابق إلى المرايا أكثر مما تتسابق إلى خدمة الناس.

كانت الكلمات سماوية.

أما النفوس فكانت أرضيةً جدًا.

رأى وجوهًا كثيرة تتحدث عن الفضيلة أكثر مما تمارسها.

وكان يشعر كلما استمع إلى الخطب : أن المسافة بين الألسن والقلوب

أبعد من المسافة بين الأرض والسما.

عيون أحمد الثاقبة، التي صقلها الألم، كانت ترى ما وراء الوجوه... ؛ رأى

أقنعة من صفيح تتحرك وتتكلم وتبتسم، تخفي خلف بريقها المصطنع أنانية

متضخمة، ونرجسية مقبلة، وتعالياً فارغاً، وذوات متورمة كأنها أورام

خبثة... ؛ رأى أناساً يرتدون التقوى كما يُرتدى الثوب المستعار، يضيق

عليهم تارة، ويتسخ تارة، ويُخلع في الخلاء تارة أخرى.

وذات يوم ضجّ المقر بحركة غير اعتيادية.

قبل إن أحد الدعاة القدامى سيزور المكان.

رجل من الرعيل الأول.

اسمهُ السيد إبراهيم صابر الكوفي الناجي .

توقع أحمد أن يرى شخصية تحيط بها السيارات الفارهة والحمايات والوجوه العابسة.

لكنه فوجئ برجلٍ يدخل وحده.

وجهه يحمل براءة طفل.

وجهه مرآة لقلب لم تلوّثه الأحقاد، ولم تزره الضغائن، ولم تعرفه أنانية المناصب .

وابتسامته تسبق خطواته.

وعينه تشعان سلامًا نادرًا.

دخل مبتسمًا كما يدخل الأب إلى بيت أبنائه.

صافح الجميع واحدًا واحدًا، وسأل عن أحوالهم كأنه يعرفهم منذ سنوات.

عامل التنظيف.

الحارس.

الموظف.

الضيف.

الصغير .

الكبير .

كأنهم متساوون في ميزان قلبه.

راقبه أحمد طويلاً.

ثم قال في نفسه:

"إما أن هذا الرجل بارعٌ في التمثيل... أو أنه آخر الصادقين."

ومنذ اللحظة الأولى شعر أحمد أن هذا الرجل مختلف.

فبعض الناس يملكون مناصب كبيرة وقلوبًا صغيرة.

وبعضهم يملكون قلوبًا كبيرة تجعل كل المناصب تبدو صغيرة.

مرت الأيام.

انجذب أحمد إلى هذا الرجل كانجذاب الفراشة إلى النور في ليل دامس .

وتبادلا أرقام الهواتف.

توطدت العلاقة بينهما.

وكان أحمد كلما احتاج شيئًا اتصل به.

وفي كل مرة يسمع الصوت نفسه:

"إن شاء الله خير."

لم يكن يعد كثيرًا.

لكنه كان يفعل كثيرًا.

وفي احد الايام أتصل به أحمد:

- سيد ابراهيم ... أحتاج إلى عمل.

ضحك الرجل وقال:

. يا أحمد، الطلبُ رخيص وأنت غالٍ.

ثم أضاف:

. دع الأمر عليّ.

وأغلق الهاتف.

بعد أيام حصل أحمد على وظيفة حارس.

لكن البلاد كانت ما تزال تتقيأ رصاصها كل ليلة.

وفي إحدى المناوبات شاهد بعينه مجموعة من الإرهابيين يهاجمون مفرزة

أمنية ويقتلون أفرادها بدم بارد.

تجمد في مكانه.

وشعر أن قلبه يهرب من بين أضلاعه.

عاد إلى بيته مذعورًا.

وفي الصباح اتصل به السيد.

. لماذا تركت العمل؟

صمت أحمد.

كان بعض موظفي الجامعة ينظرون إليه بعيون الريبة، يتابعونه بصمت، يتهامسون خلفه... ؛ عيناه الخضراوان، وشعره الأشقر، وبشرته البيضاء الصافية، كلها صارت تهمة في زمن اختلطت فيه الدماء والملامح والانتماءات.

"من أنت؟" سأله أحدهم متهماً.

"أنا من هنا، من أبناء الأغلبية، ضحية مثل غيري."

لكنه رأى في عيونهم التكذيب، وشعر في قلوبهم بالصد.

لم يشأ أن يخبره عن الموظفين الذين شكوا فيه بسبب ملامحه.. ؛ ومضايقاتهم المستمرة له ..

ولم يشأ أن يقطع أرزاق أحد منهم .

فقال:

- رأيت الموت بعيني يا سيد.

ولا أظن أن قلبي خُلق لهذا.

ساد صمت قصير.

ثم قال السيد بهدوء أبوي:

- يا أحمد...

بعض الرجال يخافون من رؤية الدم لأن الرحمة ما تزال حيةً فيهم.

ولا عيب في ذلك.

ثم أردف:

- سأجد لك عملاً آخر.

وذاث عصرٍ قائط اتصل السيد فجأة.

- أين أنت؟

- في البيت.

- أرسل العنوان... أريد زيارتك.

وصل بعد ساعة.

كان يحمل أكياسًا من اللحم والخضار والفواكه.

دخل البيت المتواضع.

نظر إلى الأعمدة الخشبية والجدران البائسة والسقف المرتجف.

حبس أحمد أنفاسه.

لكنه فوجئ بالرجل يتسم.

ثم يدير بصره في المكان قائلاً:

- الله...

ما أجمل هذه الدار.

توقف أحمد مذهولاً.

. أي جمال فيها يا سيد؟

ابتسم السيد.

وأشار إلى الأطفال.

ثم إلى الزوجة.

ثم إلى وجوه أهل البيت.

وقال:

. البيوت لا تُقاس بجدرانها يا أحمد...

بل بمن يملؤها حياة.

كانت تلك الكلمات أغلى من المال الذي أخرجه بعد ذلك ووضعه في يد

أحمد.

لأن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى من يعطيه المال.

بل يحتاج أحياناً إلى من يعيد إليه احترامه لنفسه.

عندها شعر أحمد أن الرجل لم يمدح البيت.

بل رمم شيئاً مكسوراً في داخله.

مرت أيام، ورن هاتف السيد إبراهيم:

"أين أنت يا سيدنا؟"

"في الشارع يا أحمد ."

"في الشارع! ماذا تفعل؟"

"أقضي حوائج إخواني والناس .. , أنا الآن في طريقي إلى وزارة الصحة،

لأسعى في إجراء عمليات لمرضى فقراء لا يقدرّون على تكاليف

المستشفيات الخاصة، وأؤمن أدوية لآخرين أوشكت حياتهم على التوقف

من اصحاب الامراض المزمنة ."

لمعت في عيني أحمد فكرة: "سيدنا، انتظري، أنا قادم."

ذهب معه أحمد.. , ورأى.. , رأى السيد إبراهيم يحمل كومة من الملفات والأوراق، ينتقل بين الطوابق، يصعد السلالم ويهبطها، يدق باباً هنا ويقف عند شباك هناك، يخاطب هذا ويقنع ذاك.. , لم يكن سيداً محمولاً على الأعناق، بل كان خادماً يحمل هموم الناس على كتفيه.. , كان ساعي بريد الرحمة، وحامل رسائل الأمل، وسفير البؤساء إلى أبواب السلطة.

وبعد ساعات من التعب، قال أحمد بضجر: "سيدنا، لقد تعبنا! كم نمشي وكم نراجع؟"

التفت إليه السيد إبراهيم باسمّاً: "ومن قال لك أن تأتي معي يا بني؟ ألم أقل لك منذ البداية: أنا أسعى في قضاء حوائج المحتاجين... ؛ هذا طريقي، وتعب هذا الطريق هو راحتي."

قال أحمد، وقد امتزج خجله بجرأته: "يا سيدي... وأنا أيضاً محتاج! متى تقضي حاجتي؟"

ربت السيد على كتفه بخنان: "قريباً، يا أحمد، قريباً.. , كل شيء بأوانه."

ثم توقف فجأة.

ونظر إلى أحمد قائلاً:

. يا ولدي...

معظم الناس يستهلكون الآخرين ليعيشوا... ؛ اما أنا استهلك عمري في

خدمة الآخرين .

فالإنسان الحقيقي يستهلك عمره ليعيش الآخرون.

ظل أحمد صامتاً.

فقد شعر أن العبارة دخلت قلبه كالسهم.

ووفي السيد بوعده.. ؛ فقد اتصل بأحمد بعد أيام قليلة، وقد وجد له عملاً

آخر، أفضل من سابقه.. ؛ و بدأت أمور أحمد تتحسن، وبدأت الحياة

تبتسم له شيئاً فشيئاً، وانفرجت ضوائق كانت تغلق عليه آفاق الأيام.

مرت السنوات.

وتحسنت أحوال أحمد.

أما السيد فبدأ جسده يخونه.

أصابته الجلطات.. , وكان المرض يأكل جسده ببطء.. , لكن أحدًا لم يسمعه يشكو.

فصار يتنقل بين مستشفيات العراق وإيران، يحارب مرضه بصبر المؤمنين ويقين الصالحين... ثلاث سنوات طويلة، وهو يصارع الألم بصمت، لا يشكو ولا يئن، ييتسم للأطباء ويدعو للمرضى من حوله وهو على سرير المرض.

كأن الرجل كان يتعامل مع الألم بالطريقة نفسها التي كان يتعامل بها مع الناس:

بابتسامة.

وطوال هذه السنوات الثلاث، لم يره أحمد. لم يستطع زيارته، لم يعرف كيف يصل إليه. لكن صورة السيد كانت حية في قلبه، لا تذبل.

وحين جاء خبر وفاته، جلس أحمد طويلاً يبكي.

لم يبك سياسياً.

ولا داعيةً.

ولا شخصيةً عامة.

بل بكى إنساناً نادراً.

إنساناً أثبت له أن الفضيلة ليست خطبة.

ولا شعاراً.

ولا صورةً معلقة على جدار.

الفضيلة رجلٌ يمشي في الشوارع حاملاً ملفات الغرباء.

وربما لا يجد وقتاً ليحمل همومه هو.

شعر أحمد أن شيئاً من النور قد انطفأ.

بكى طويلاً.

ليس لأن رجلاً مات.

فالموت نهاية الجميع.

بل لأن الإنسان الصادق نادرٌ إلى درجة أن رحيله يجعل العالم أقل دفئًا.

ومنذ ذلك اليوم، كلما سمع أحمد من يتحدث عن النفوذ والجاه والمناصب،

تذكر ذلك الرجل الذي لم يترك وراءه قصرًا ولا ثروة.

لكنه ترك شيئًا أعظم.

ترك قلوبًا كثيرة تنطق باسمه كلما ذُكرت الشهامة.

لأن بعض الناس يموتون فتُدفن أجسادهم.

وبعضهم يموتون فتبدأ حياتهم الحقيقية في ذاكرة الآخرين.

وكان السيد إبراهيم من الصنف الثاني.

وصار احمد السلطاني يلهج باسمه أينما حل وارتحل .. , يقف بين الناس في
المقاهي والمجالس، في الأسواق والطرقات، ويقول والدموع تترقرق في عينيه
كنجوم ليل شتوي:

"كان السيد ابراهيم الكوفي الناجي والذي الروحي ... , كان إنساناً بكل
ما في الكلمة من معنى.. , كان يذكرني بالسلف الصالح من أتباع آل
البيت، أولئك الذين ساروا على الأرض وقلوبهم معلقة بالسماء.. , رجلٌ
جُسِّدت فيه الفضيلة حتى صارت لحماً ودماً، وسكنته الأخلاق حتى
صارت هواءه الذي يتنفسه."

ثم يمضي في وصفه، فتلمع عيناه وتنفض كلماته:

"كان لا يأكل ديناراً من سحت، ولا يستغل جاهه الحزبي، ولا يتكبر على
أحد.. , كان يمشي بيننا فلا تعرف أهو السيد أم الخادم، أهو القائد أم
الجندي.. , كان شمعة أحرقت نفسها لتضيء طريق الآخرين، وظلت
تحترق بصمت، بلا ضجيج ولا منّة، حتى ذابت وذاب معها آخر أمل في
زمن ندر فيه النبلاء."

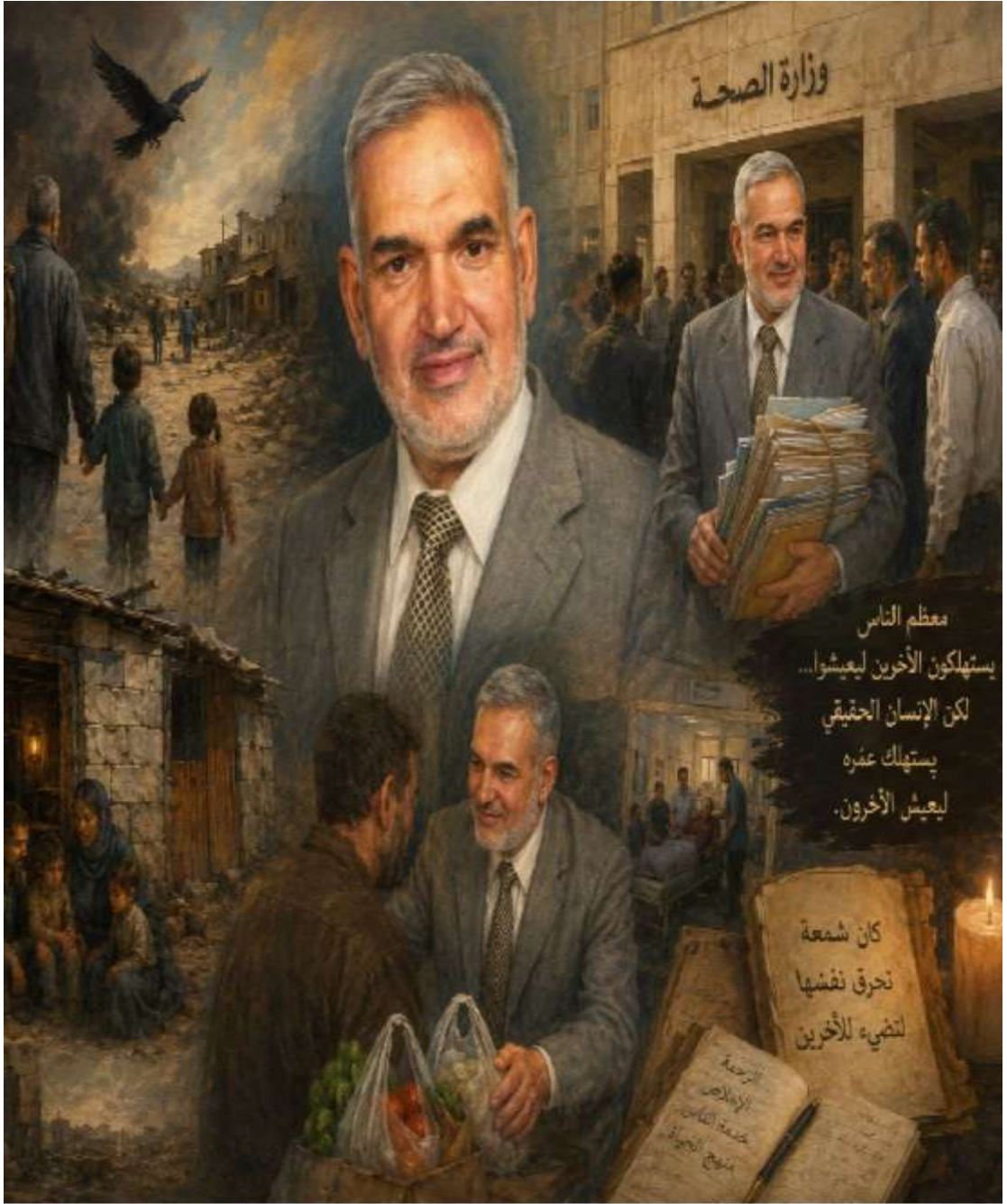
وختم أحمد كلامه كل مرة بالعبارة نفسها، التي صارت كالوشم على روحه:

"في زمن كثير فيه الأدعياء واللصوص، وقلّ فيه الشرفاء والأنقياء، كان

السيد إبراهيم الكوفي الناجي استثناءً يثبت القاعدة.. ، كان ومضة في ليل

حالك، انطفأت لتتير قلوبنا إلى الأبد.. ؛ فرحمه الله، وجزاه عنا خير ما

جزى عبداً صالحاً عن أمته."



معظم الناس
يستهلكون الآخرين ليعيشوا...
لكن الإنسان الحقيقي
يستهلك غيره
ليعيش الآخرون.

كان شمعة
نحرق نفسها
لتضيء للآخرين

إبراهيم الكوفي: الرجل الذي نسي أن يعيش لنفسه

دفترٌ لم يعد صاحبه (12)

كان المطر الخفيف يطرق نوافذ البيت الشرقي العتيق حين فتحت أمُّ سلمان الصندوق الخشبي الذي ظلّ مغلقاً سنوات طويلة.

ترددت أصابعها فوق الأشياء القديمة: صورة باهتة، ساعة يد متوقفة، شارة عسكرية صدئة، ودفتر صغير أكلت الرطوبة أطراف صفحاته.

دخل حفيدها علي، وجلس إلى جوارها.

سألها:

جدتي، لماذا تحتفظين بهذه الأشياء كلها؟

ابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت:

لأن أصحابها رحلوا... وهذه الأشياء هي التي بقيت تدافع عن وجودهم.

فتحت الدفتر بحذر، وكأنها تخشى أن يتناثر العمر من بين الصفحات.

كان الخط واضحاً رغم السنين، وقرأت بصوت مرتجف:

((يوم الاثنين ٢٧ / ٢ / ١٩٨٤ وفي الخط الأمامي في جبهات القتال حيث
دوي المدافع وبارود القنابل، وفي احدى زوايا الملجأ انتابني شوق الى الاهل
ولأصدقاء ،، فأتمنى من الله عز وجل ان تهدأ الأمور ليتسنى لي ملاقاتهم
والارتقاء في أحضانهم،))

ساد الصمت.

نظر الحفيد إلى جدته وسأل:

وهل عاد ليرتمي في أحضانكم؟

أغمضت عينيها طويلاً.

كانت تعرف أن بعض الأسئلة لا يجيب عنها الكلام.

قالت بصوت خافت:

عاد... لكن ليس بالطريقة التي كان يحلم بها.

ثم أشارت إلى صورة شاب يتسم بوجه مضيء وقالت:

في عام ١٩٨٦ استشهد في منطقة الفكّة.

ظل الحفيد يتأمل الصورة.

كان يتوقع أن يرى بطلاً أسطورياً، لكنه وجد شاباً يشبه آلاف الشباب؛

عينان فيهما حلم صغير، وابتسامة لا توحى بأنها تعرف موعد نهايتها.

قال:

غريب... كنت أظن أن الجنود يفكرون بالانتصار والبطولات.

هزّت الجدة رأسها.

حين تقترب المدافع من الإنسان، لا يفكر بالأوسمة... ؛ يفكر بأمه،

بسريه، برائحة الخبز، بأصدقائه، بالأشياء التي كان يظنها عادية... ؛

الحرب تجعل أبسط الأشياء أعظم النعم.

أعاد الحفيد قراءة الكلمات.

لم يجد فيها حديثاً عن الموت، ولا عن الأعداء، ولا عن المعارك.

وجد شوقاً فقط.

شوقاً نقياً إلى الحياة.

عندها أدرك شيئاً لم يكن يعرفه من قبل:

أن الإنسان لا يُهزم حين يموت، بل حين يفقد قدرته على الحنين.

وأن الذين يكتبون رسائلهم في الملاجئ لا يطلبون من الحياة الكثير؛ كل ما

يريدونه أن يعودوا بشراً عاديين مرة أخرى.

أغلقت الجدة الدفتر.

لكن الكلمات بقيت مفتوحة في الهواء.

بعد أكثر من أربعين عاماً، لم يعد سلمان موجوداً، ولم يبق من صوته سوى

بضعة أسطر.

ومع ذلك، كانت تلك الأسطر تهزم الزمن كله.

فالموت أخذ الجسد إلى التراب، لكنه عجز عن أن يأخذ ذلك الشوق

الصغير الذي كتبه جندي مجهد في زاوية ملجأ معتم.

وفي تلك اللحظة فهم الحفيد أن الإنسان لا يعيش بطول عمره، بل بعمق

الأثر الذي يتركه خلفه.

أما الدفتر، فظل ساكناً فوق الطاولة.

دفترٌ صغير لم يعد صاحبه ...

لكنه ظل يروي للأحياء أن أكثر ما كان يتمناه شهيدٌ وسط هدير المدافع،

ليس المجد ولا البطولة، بل حضن أم، ووجه صديق، وبيت ينتظره عند آخر

الطريق.



Notes

مذکرات

یوم لاریتے پلمانت ۷۷/۷/۸۹۶
 وقی الحفہ / ملحق فی صیانت لقتال
 حیث دوی مدافع و یار در
 القتال ملحق و فی احد من زادیان
 انجبا امتا بن سوا الحفہ / مل
 و لا صدقہ ہست ہاں عزریل
 ہاں سید ا لا حور لکی بیلی
 فی صلاحیہم و ارشاد فی
 احصا ۱

دقتر لم يعد صاحبه

ترانيم اليتيم المزدوج (13)

مُنذ الصرخة الأولى التي شقّت عتمة المهده، كان "حسين" يحمل وزر طالعه المنحوس.. ، لم يكن طفلاً عادياً؛ كان قطعةً من قمرٍ ضلّت طريقها إلى وادٍ سحيق من الجفاء.. ، أبوه، "عاصي"، كان رجلاً قُدّ قلبه من حجر صلد، بخيلاً حتى بالابتسامة، يرى في الجمال قبحاً وفي العاطفة ضعفاً.

ولأنه سيء الاخلاق ، حاقد حتى على نفسه ، فقد نظر إلى عيني الرضيع الواسعتين اللتين تعكسان نقاء السماء، وسكب فيهما حبر كراهيته قائلاً: "هذا هو الأعمى!".

هكذا، في بيوت الشقاء، يُعمي الحقد بصيرة الآباء قبل عيون الأبناء. وعادة ما يلقب الآباء أبناءهم بأجمل الألقاب وأقربها إلى قلوبهم، إلا "عاصي"، فقد كان مختلفاً عن كل الآباء، بل وعن كل الأزواج.

في زاوية أخرى من البيت، كانت "فاطمة" -العمة التي قطف قطار العمر
زهرة شبابها فبقيت عزباء- تراقب الانكسار في عيني الرضيع .. , تقدمت
نحوه كمنقذٍ ينتشل غريقاً من بحرٍ من قسوة.

— "يا عاصي.. هبني هذا الصبي، أفرغ فيه أمومةً حبستها جدران صمتي
وعنوستي".

التفت عاصي، وبزهد من ينفذ الغبار عن ثوبه، قال: "خذي، هو لك".
انتقلت الغيمة الصغيرة إلى سماء فاطمة.. , هناك، صبّت عليه من ينايع
قلبها دلالاً منقطع النظر.. , غدّته بروحها قبل طعامها، فاشتدّ عوده
كشجرة سنديان فتية، يضحج جسده بالصحة، وتشرق من محياه ثقة لا تليق
إلا بملوك الطيبة.

على النقيض تماماً، كان أخوه الأكبر "زيد" يقبع في بيت أبيه كظلّ باهت؛
جسد هزيل، وروح مرتجفة، وعينان منطفئتان تحكيان قصة معتقلٍ نفسي
يُدعى "حُضن الأب".

دارت عجلة الزمن برعوتها المعهودة.. , و رحلت "سعاد" الأم الحقيقية إلى
بارئها، تاركةً وراءها حزناً غائراً في قلب زيد.

لكن عاصي، في مفارقة درامية غريبة، تزوج من "هيام"، المطلقة التي تحمل
ثلاثة أطفال. العجب كل العجب، كيف أن ذاك الحجر الصلد رقّ لأبناء
الغريب، بينما جفّ مأؤه عن أبناء صُلبه!

غير أن الأقدار كانت رحيمة بزيد هذه المرة، إذ غمرته زوجة الأب بحنانٍ
افتقده طويلاً بعد وفاة امه .

أما حسين، فقد كان يعيش في شرنقة دافئة نسجتها العمة فاطمة.
بلغ الخامسة عشرة، بجسد رجل وقلب عصفور لا يعرف من الدنيا سوى
وجه عمّته.. , ذات مساء، بينما كان يراقب النجوم، سألها ببراءة الطفولة
التي لم تغادره:

— "أمي فاطمة.. أين يذهب الأطفال حين تموت أمهاتهم؟"

مسحت على شعره الكثيف وقالت بصوت متهدج: "يهيئ الله لهم من
يغزل من رموش عينه دثاراً لهم... ألم ينقذك حناني؟ ألم ترحم هيام شتات
أخيك زيد؟"

لكن النياشين التي تضعها الحياة على صدور الصابرين تكون أحياناً ثقيلة
جداً.. , فاطمة، التي حملت هموم الأعوام، ومرارة العنوسة، وجفاء العائلة
دون أن تنبس بينت شفة، تاكل قلبها بصمت.

وفي يوم جمعة حزين، تجمّع الدم في عروقها وأعلنت المَهْجَة المتعبة توقفها.
رحلت فاطمة في ذات اليوم الذي رحلت فيه سعاد قبل سنوات، وكأن
الموت يعشق التناظر في التواريخ ليضاعف الفجيعة.

تحت شمس النجف الحارقة، وفي "وادي السلام" حيث تنام ملايين
الحكايات تحت التراب ، وقف حسين وسط الحشود المشيعة وقد اقترب
منه رجل من أقاربه، أبو عبد الله، وأخذه إلى قبر أمه سعاد.

أشار إلى القبر وقال:

— هنا ترقد أملك.

وفجأة انهار حسين.

جثا على ركبتيه بين القبرين، وصاح بصوتٍ مزق القلوب:

— أمي... لماذا متّ؟ ألم تفكري بي؟

ثم التفت إلى قبر فاطمة:

— وعمتي... كانت أمي الثانية... قالت لي إن الله إذا أخذ أمّاً أعطى

الطفل أمّاً أخرى...

ارتجف صوته، ثم صاح:

— والآن؟! الآن من سيعوضني عنهما؟!

أخبراني... إلى أين أذهب؟

أنتما معاً تحت التراب... وأنا بقيت وحدي فوقه.

إلى أين يذهب الطفل إذا ماتت أمّه مرتين؟

ساد صمت ثقيل.

حتى الريح توقفت كأنها تستمع.

بكى أبو عبد الله، ومسح دموعه بطرف عباءته، ثم رفع رأسه نحو السماء،

ونظر طويلاً، وقال في أعماقه:

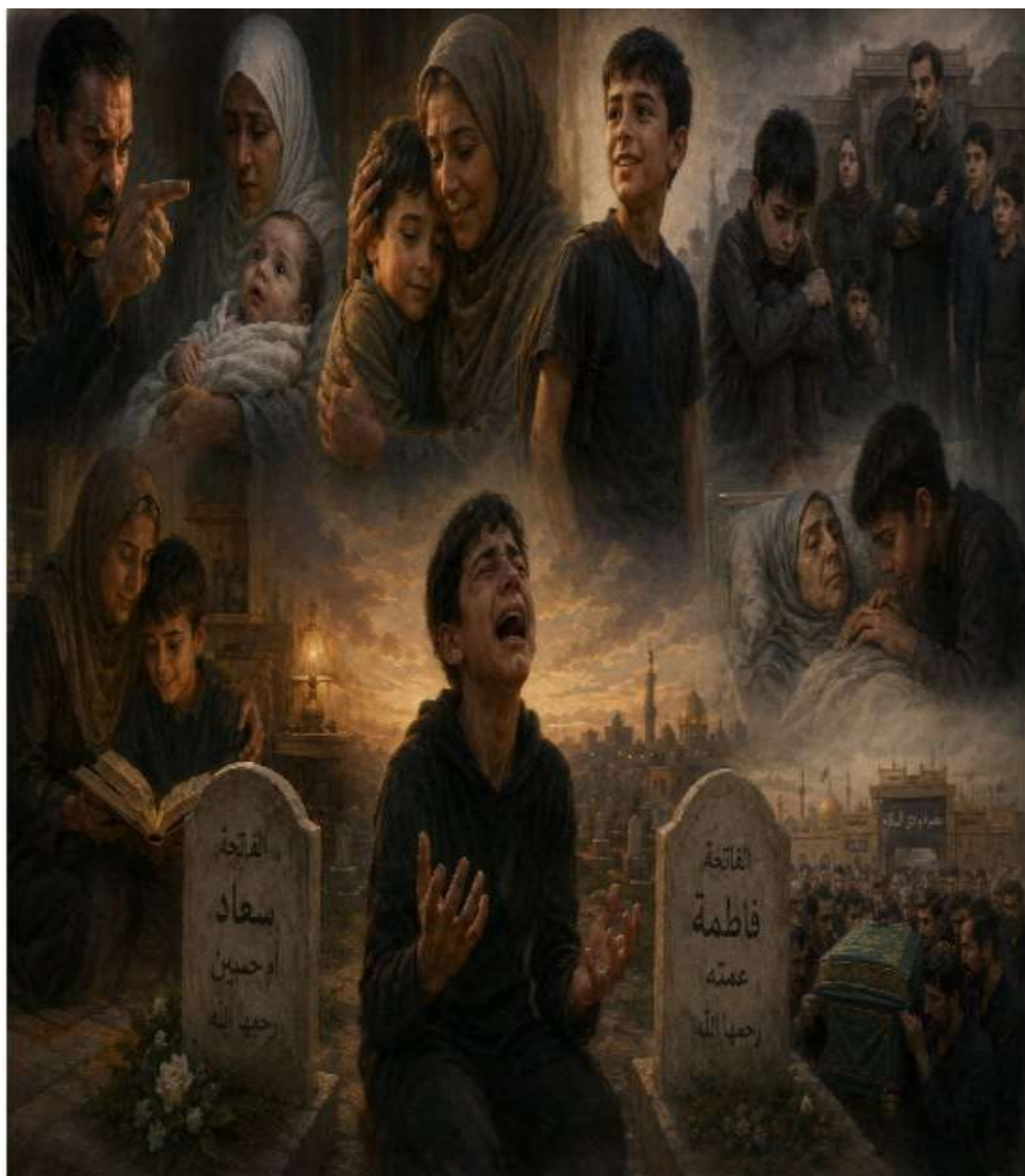
«يا رب... أكان لا بد أن يتيم هذا الصبي مرتين؟! أما كان لهذه الروح

البريئة من سيناريو ينبض بأملٍ أقل قسوة؟!»

ولم يجبه أحد...

إلا صدى بكاء حسين، وهو يتردد بين القبور كصوت طفلٍ أضاع أمّه...

ثم أضاع التي جاءت لتعوضه عنها..



ترانيم اليتيم المزدوج

بين الرغبة والهاوية (14)

في زاوية بعيدة عن النوافذ التي تفصل المقهى عن الشارع ؛ من مقهى شعبي
في شارع المتنبي، كانت رائحة الكتب القديمة تتصارع مع دخان النرجيلة
وعبق الهيل المطحون طازجاً بأقداح الشاي .. ، المساء يرخي سدوله على
بغداد، وظل النخيل يتمايل خلف النوافذ كأشباح متعبة.

التقى كاظم بصديقه القديم عمر بعد سنوات طويلة من التخرج
جلس كاظم وعمر وجهاً لوجه، تفصلهما طاولة خشبية محفورة بذكريات
رواد المقهى .. ؛ كاظم، الأسمر القادم من عمق الأهوار، الذي ساقته
الأقدار ليسكن في أزقة مدينة الصدر الشعبية.. ؛ وعمر، الأبيض ابن
الأعظمية، الذي تربى بين فلل المنصور وأسوارها العالية، حيث للرفاهية
رائحة مختلفة.

فرقت بينهما السنون بعد الجامعة، لكن شيئاً من ماضي الكلية ما زال
يربطهما، خيطاً رفيعاً من الألفة والذكريات.

وصارا يستعيدان أسماء الأساتذة والرفاق، ويضحكان على مواقف ظنا أنها
اندثرت مع الزمن.

ومع امتداد الجلسة، انتقل الحديث من الذكريات إلى شؤون الحياة، ثم إلى
العلاقات العاطفية وتقلبات الرغبة الإنسانية.

"أتعلم يا كاظم؟" قال عمر وهو يحرك الملعقة في فنجان قهوته، "لقد تأثرت
بموجة غريبة... موجة المثلية التي تجتاح العراق، بل والعالم كله."

انتفض كاظم وكاد أن يحرق لسانه برشفة القهوة الساخنة: "أنت؟ عمر؟
زير النساء الذي لا يشبع من النساء؟ عالم المثليين ليس عالمك يا رجل!
من أغواك؟!"

تنهد عمر.. , نظر إلى سقف المقهى المعتق، ثم عاد ببصره إلى عيني
صديقه.. , كان يعرف أن هذه القصة ستخرج، وكان يعرف أنها لن تخرج
بسهولة.

"سرمد... اسمه سرمد.. , شاب في العشرين من عمره.. , يسكن على
بعد ثلاثة كيلومترات فقط من بيتي.. , ثلاثة كيلومترات... ؛ مسافة لا
شيء في مدينة مثل بغداد."

وصف عمر كيف بدأت العلاقة بصدقة عابرة، تطورت إلى رسائل، ثم إلى
مكالمات في منتصف الليل، ثم إلى صور.. ؛ صورٌ جعلت قلب عمر يخفق
بعنف.. ؛ صورٌ لجسد شاب ممشوق، عارٍ تماماً.

"كان جسده..." توقف عمر وكأنه يستعيد الصورة أمام عينيه، "كان
جسده أجمل من أجساد نساء كثيرات قابلتهن في حياتي... ؛ بشرة
صافية، وعضلات مشدودة، وتقاطيع كأنها منحوتة.. ؛ هذا ما أغراني.. ,
هذا ما جعلني أضعف.. , وليس هذا فقط... ؛ كان الكثير من الشباب
يخوضون هذه التجارب.. , فقلت في نفسي: لم لا؟"

في إحدى الليالي، تلقى عمر دعوة إلى العشاء في بيت سرمد.

كان البيت تحفة معمارية حديثة، تفوح منه روائح البخور والعود، والأثاث
فخم كأنه من صفحات مجلات الديكور.. ؛ الإضاءة خافتة، والأريج يملأ
الأرجاء.

جلسا على طاولة الطعام وجهاً لوجه.. , كان سرمد يتصرف بعذوبة
أنثوية، يضع الطعام في طبق عمر بيديه، ويمسح فمه بالمنديل، وينظر إليه
بنظرات امرأة عاشقة.. , كان يعامله كما تعامل الزوجة زوجها... كما
تدلل الحبيبة عاشقها.

لكن عمر، رغم الإغراء، لم يكن مستعداً.. , أراد أن يفهم هذه العلاقة
أولاً.. , أراد أن يتعرف على المكان.. , أراد أن يترث.

نحس واقفاً بعد العشاء.. , شكر مضيفه.. , عيناه تتجنبان عيني
سرمد.. , مشى نحو الباب وهو يشعر بنظرات سرمد تحرق ظهره، تلاحقه
كما يلاحق الظمان الماء في الصحراء.

ركب سيارته، أدار المحرك، وانطلق في شوارع بغداد الليلية.. , كان قلبه

ينبض بعنف، وأفكاره مشوشة.

وما إن دخل بيته حتى رن هاتفه.. , رقم غريب.

"افتح الواتساب... مكالمة فيديو."

الصوت كان أنثوياً، ناعماً، مخملياً.. , ضغط عمر على زر الفيديو بيد
مرتجفة.

وما إن ظهرت الصورة على الشاشة حتى تجمد في مكانه.

وجهٌ كالبدر في ليلة اكتماله.. , عينا سوداوان واسعتان كأنهما بحيرتان في
عمق الوديان .. , شعر أسود طويل ينسدل على كتفين عاجيتين.. ,
شفاه ممتلئة حمراء كأنها بتلات ورد جوري.. , كانت جميلة جمالا يفتن
العين ويسلب القلب.

"من أنت؟" سأل عمر بصوت مبحوح.. , "وكيف حصلتِ على رقمي؟"

"أنا سهاد... زوجة صديقك سرمد."

شعر عمر وكأن الأرض انشقت تحت قدميه.. , زوجة سرمد؟!!

"ماذا تريد مني؟"

ابتسمت سهاد ابتسامة بطيئة، مأكرة: "كنت أنظر إليك من خلف الشباك.. , طوال المساء كنت أراك... , وأنت جالس معه على طاولة الطعام.. , أنا معجبة بك يا عمر.. , معجبة جداً.. , أتمنى أن تكون حبيبي."

تردد عمر.. , فكر ملياً.. , كان ضميره يصرخ: "لا تفعلها... هذه خيانة مضاعفة!" لكن شيئاً آخر كان يصرخ في داخله بصوت أعلى.. ؛ صوت الشهوة.. , صوت الرغبة.. , صوت الجسد الذي اشتعل فجأة.. , صوت حب المغامرة والتجربة والاستطلاع

"عمر... تعال الآن.. , فوراً.. ؛ سرمد خرج في مشوار ولن يعود قبل

ثلاث ساعات.. , ثلاث ساعات كاملة... ؛ تكفي لكل شيء."

قاد عمر سيارته بسرعة جنونية في شوارع بغداد.. , كان قلبه يخفق بعنف.. , يده ترتجفان على المقود.. , كان خائفاً.. , كان حذراً.. , كان يشعر بأنه يسير نحو هاوية.

وصل إلى البيت.. , دخل.. , كانت سهاد في انتظاره عند الباب.. , في ثوب حريري أسود شفاف، يظهر من تحته جسدها المكتنز باللحم الطري.

"تعال... " قالت وهي تمسك بيده لتقوده إلى الداخل.

"إلى أين؟" سأل وهو يشعر بالعرق يتفصد من جبينه.

"إلى غرفة النوم."

"لا!" قال عمر بحزم ارتجف في نهايته.. , "لا أستطيع.. , لنمارس الجنس

هنا... في المطبخ."

"لماذا يا عمر؟ لا يوجد أحد هنا.. , البيت خالٍ."

"أريد أن أضاجعك هنا.. في المطبخ."

كان هناك شيء في داخله يرفض أن تصل الخيانة إلى غرفة النوم.. , غرفة النوم مقدسة.. ؛ أما المطبخ... ؛ فربما كان الخطيئة فيه أقل وطأة... ؛ الاقرب للواقع انه كان خائفا متوجسا حذرا

ولم ينتظر جوابها.

انحال عليها تقيلاً.. , شفتاه تلتهمان شفتيها.. , يدها تجولان على جسدها كمسافر تائه.. , صدرها، خصرها، فخذاها.. , كان يفرك كل منطقة، يعصر، يلمس، يشم.

ثم أدارها بخشونة.

أمسك بأردافها بكلتا يديه.. , كان يضرب عليها بكفيه المفتوحين، وهي تهتز تحت ضرباته.. , أردافها كانت تتراقص، ترتج، ترتفع وتهبط كأنها أمواج في بحر هائج.. , كانت مكتنزة باللحم الطري، بيضاء كالقشطة، تهتز من شدة الرهز والضرب.

ثم رفع ثوبها من الخلف.

أدخل عضوه فيها وهي واقفة، تسند يديها على حافة (الكاونتر) .. ,
أحس بحضنه يمتلئ بدبرها المغربي ، يضغط عليه بقوة، يدفع ويسحب .. ,
كانت أنفاسهما تعلو وتنبط معاً.. ؛ العرق يسيل من جبينه على
ظهرها..؛ والملح يمتزج بالعطر.

"آه... آه... ادخله أعمق... ادخله أعمق!"

كانت سهاد تتأوه، جسدها يرتجف تحت ضرباته.. , استمر عمر في
النكاح عشرين دقيقة كاملة، يدفع بقوة، يسحب ببطء، يعود فيندفع
بعنف.. , كانت سهاد تكاد تسقط من شدة الحركة، من شدة
الاضطراب، من شدة الرعشة التي هزت جسدها كله.

وعند لحظة الذروة، قذف عمر بغزارة، وهي أيضاً قذفت في اللحظة
نفسها.. , اختلط منيهما على أفخاذها، يسيل بغزارة، يقطر على
البلاط.. ؛ كان كأنه ميزاب يقطر ماء.

وقفنا للحظة يلهثان.. , ثم ارتدى عمر بنطاله مسرعاً.. , رفع سحابه

بأصابع مرتجفة.. , رمقها بنظرة أخيرة... ؛ وخرج من البيت كاللص.

ركض إلى سيارته.. , أدار المحرك.. , انطلق.

كانت الدنيا تدور به.

بعد ساعتين، رن هاتفه.. , كانت ساعة متأخرة من الليل.. , نظر إلى

الشاشة: سرمد.

رفع السماعة بيد مرتجفة.. , كان يعرف أن شيئاً ما سينفجر.

"لماذا فعلت هذا بي يا عمر؟" صوت سرمد كان حزيناً، مبحوحاً،

متحسراً.. ؛ "لماذا؟ عرضت نفسي عليك... توصلت إليك... وبدلاً من

أن ترغب بي، تعود بعد ساعة لتمارس الجنس مع زوجتي؟ كيف فعلتها؟

كيف؟"

أحس عمر بأن العالم يدور.. , أمسك بالحائط ليسند نفسه.. , لم يمر
بهذا الموقف طوال حياته.. , لم يجد كلمة واحدة تخرج من فمه.. , كان
عاجزاً عن الكلام.

ثم تابع سرمد، وصوته يتغير، يصبح أكثر هدوءاً، أكثر غرابة: "يا عمر...
أرجوك.. ؛ هذه المرة الأخيرة.. , أرجوك أن تصحح خطأك.. , تعال
إلى بيتي.. , تعال ومارس الجنس معي ومع زوجتي.. , بكل حرية وأمان
.. ؛ لا تخف.. كلانا نريدك. !؟"

صمت عمر طويلاً.. , ثم قال بصوت مبحوح: "حسناً... سأتي."
ركب سيارته للمرة الثالثة في تلك الليلة.. , كانت الشوارع خالية.. ,
بغداد نائمة.. , فقط مصابيح الشوارع تشهد على سيره المسرع.

ثم اكمل عمر حديثه مع كاظم قائلاً : لم أكن أتصور أنني ذاهب إلى
شخصين يعيشان علاقة مختلفة تمامًا عما اعتدنا فهمه.. , كان لكل

منهما تصور خاص للحب والرغبة والحرية.. , أما أنا فكنت مجرد شخص
تقوده الحيرة أكثر مما تقوده القناعة... الخ .

في البداية ظن عمر أن الأمر مجرد تجربة عابرة، وأنه قادر على مغادرتها متى
شاء... ؛ لكن الأيام اللاحقة كشفت له أن الإنسان قد يستهين ببعض
الخطوات الصغيرة، ثم يكتشف أنها تقوده إلى أماكن لم يكن يتخيل الوصول
إليها.

وصل.. , دخل.. , كان سرمد وسهاد في انتظاره.

وفي غرفة النوم، على نفس السرير، حدث ما لم يتوقعه عمر في أسوأ
كوابيسه أو أعذب أحلامه.

ضاجع عمر سرمداً وزوجته سهاداً معاً... ؛ على سرير واحد.. , تحت
غطاء واحد.. , صار يتنقل بينهما، يركب هذه ويمسك بذلك.. , يقبل
هذه ويضرب على أرداف ذاك...!!

صار ينكحهما طوال الليل... ؛ يدفع في هذا، ثم ينسحب ليدخل في تلك.. , الجسدان تحت جسده كآلتين موسيقيتين تعزفان ألحاناً مختلفة، وهو المايسترو الذي يتحكم في الإيقاع.

حتى أشرق الفجر البغدادي من خلف شباييك المنصور، كان ما يزال يمارس الجنس معهما... ؛ ثلاثتهم غارقون في العرق، في الإفرازات، في الروائح الممزوجة بالعطر والمني والجنس.

شعر عمر بشعور غريب لم يشعره من قبل.. , شعر وكأنه هارون الرشيد في ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة.. , شعور عزز رجولته... ؛ بل فجرها.

صار يمعن في إذلال سرمد أمام زوجته.. ؛ يأمره فيمتثل.. , يأمرها فتمتثل.. , وسرمد كان يستمتع بهذا الدور.. , كان يتلوى تحت جسد عمر، يتوسل، يتأوه.. , وزوجته تنظر إليهما، وإلى عمر خصوصاً، كبطل أسطوري، كفحل لا مثيل له، كشاب رجولي فريد من نوعه.

خرج عمر من البيت مع شروق الشمس.. , جسده منهك.. , عيناه
غائرتان.. , ساقاه بالكاد تحملانه.

دخل بيته فوجد زوجته وأطفاله نياماً.. , انهار على فراشه.. , نام نوماً
عميقاً ثقيلاً.. , لم يستيقظ حتى غروب الشمس.

وفتح عينيه على رنين الهاتف.. ؛ سرمد.. , وبدون تفكير، وبدون إرادة،
ركب سيارته وذهب إليهما مسرعاً.

وتكرر المشهد.

واستمر الحال أسبوعاً كاملاً.

سبع ليالٍ.. , في كل ليلة، كان عمر يضاجع سرمداً وسهاداً... ؛ صاروا
يتبادلون الأدوار.. , صاروا يضحكون معاً أثناء الجنس.. , صارت لديهم
حركات خاصة، أسرار لا يفهمها غيرهم.. , صاروا ثلاثتهم في عالم واحد.
وكان سرمد وسهاد يستقبلانه بترحاب بالغ، حتى بدا له أحياناً وكأنه جزء
من حياتهما اليومية... .

لكن جسد عمر بدأ ينهار.. , نحل جسده.. , خارت قواه.. , صار
شاحباً كأن الدم قد نزع منه.

وبدأت زوجته تلاحظ.. , نظراتها صارت تثقب روحه.. , أسئلتها
صارت أكثر إلحاحاً: "أين كنت الليلة الماضية؟ لماذا تعود مع الفجر؟ لماذا
تبدو متعباً هكذا؟"

هنا، جلس عمر مع نفسه جلسة حساب طويلة.

أدرك أنه يقف على حافة الهاوية... ؛ أدرك أن بيته مهدد بالانهيار.. ,
أدرك أن مستقبل أطفاله في خطر.. , أدرك أنه لو استمر أسبوعاً آخر،
فلن يستطيع الإقلاع أبداً.. , سيدمن.. ؛ سيتحول إلى عبد لهذه العلاقة
الغريبة .

لكن هناك خوفاً آخر.. خوفاً أعمق.. , خوفاً دفيناً.

قال عمر:

أخطر ما في الأمر أن كل شيء كان يبدو طبيعيًا.. , لا صراخ، ولا نزاعات، ولا مشكلات ظاهرة.. , كنت أظن أنني أسيطر على الوضع، لكنني كنت في الحقيقة أفقد السيطرة شيئًا فشيئًا.

سأله كاظم:

وكيف عرفت ذلك؟

أجاب:

حين بدأت أشعر بأنني مشئت داخل بيتي.

أطرق برأسه قليلًا ثم أكمل:

كنت أعود إلى زوجتي وأطفالي، فأشعر أن جزءًا من ذهني ما زال هناك.. , أدركت يومها أن المشكلة لم تعد في الفعل نفسه، بل في الأثر الذي يتركه داخلي.

في تلك الليلة، حظر رقمي سرمد وسهاد.. , حذف حسابه على

الفيسبوك.. , قطع كل صلة بهما.

وفي مقهى شارع المتنبي، بعد أن أنهى عمر قصته، نظر إلى عيني كاظم.. ؛

كان صديقه صامتاً، يدخن سيجارته بعمق.

"ما الذي دعاك إلى هجر العلاقة حقاً؟" سأل كاظم أخيراً.

"خفت يا كاظم... خفت أن أدمن عليهما فلا أستطيع فراقهما... ؛

خفت أن يتهدم بيتي.. ، خفت أن تتدمر حياة عائلتي."

"لهذا فقط تركتهما؟" سأل كاظم وهو ينظر إليه بنظرة ثابتة.. "أم أن

هنالك سبباً آخر؟"

سكت عمر طويلاً.. ، ثم قال بصوت خافت: "بلى يا كاظم... هناك

سبب آخر.. ؛ خفت على نفسي.. ، خفت أن يبتليني الله بما ابتلى به

سرمد ... ؛ مجرد التفكير في هذا الأمر... ؛ يثير غضبي وأسفي

واستهجاني."

فهم كاظم.

ثم ضحك كاظم ضحكة عالية، كانت المرارة والمزاح يمتزجان فيها: "ليتك استمررت بهذا الدور يا عمر... حتى تسمح لي فيما بعد بمضاجعة زوجتك أمام عينيك!"

كانت بينهما "ميانة" في المزاح الفاحش، ألفاظ لا يقدر عليها إلا أبناء بغداد.

"اسكت أيها الوغد الكلب!" صاح عمر وقد احمر وجهه... ؛ "نجوم السماء أقرب إليك مما تتفوه به! أنكحك أنت! بل أنكح العشرات مثلك أيها الحقير!"

ضحك كاظم وهو يضرب على الطاولة بيده: "الحمد لله أني زير نساء.. ؛ الحمد لله أني لا شأن لي بعالم المثلية ونكاح الرجال... ؛ أيها القرام." "لست قراماً!" قال عمر بحدة.. , "ولست مولعاً بنكاح الشباب.. , مجرد تجربة... وقد أقلعت عنها.. , وإلى الأبد."

نحضا من الطاولة.. , كان الليل قد أرخى سدوله على شارع المتنبي.. ,

باعة الكتب طووا بسطاتهم.. , المقاهي أطفأت فوانيسها.

تبادلا الأرقام. تصافحا بقوة.

"انتبه على نفسك يا عمر"، قال كاظم وهو يربت على كتفه.

"وأنت... لا تقترب من زوجتي!" رد عمر بابتسامة مرهقة.

انفجر كلاهما ضاحكين.

قال كاظم ممازحًا:

على الأقل خرجت من القصة سالمًا.

ضحك عمر وقال:

لا أحد يخرج من مثل هذه القصص سالمًا تمامًا.. , نحن نحمل معنا دائمًا

شيئًا منها؛ ذكرى، أو ندبة، أو درسًا لا يُنسى.

افترقا.

ثم مشى كل منهما في طريقه.. , كاظم إلى شرق بغداد، حيث أزقة
الصدر الضيقة ورائحة الشاي الثقيل.. , وعمر إلى غربها، حيث فلل
المنصور وهدوء الليل الراقي.

وبين الجهة الشرقية للعاصمة وغربها والغرب، كانت بغداد تحتضن أسرارها،
كما تحتضن دجلة مياهها، وكما يحرس القمر سمائها.
أسرار تدفن في الصدور.. , وأسرار تنسج على ألسنة المقاهي.. , وأسرار
تموت... أو تولد من جديد.

بينما بقيت في ذهن عمر حقيقة واحدة:

أن بعض التجارب لا تغَيّر حياتنا لأنها جميلة أو قبيحة، بل لأنها تكشف
لنا وجوهاً من أنفسنا لم نكن نعرف أنها موجودة أصلاً.

ويبقى السؤال معلقاً في الهواء:

هل كان الإنسان حرّاً في اختياراته حقاً، أم أن بعض الطرق تبدأ بفضول
صغير أو دوافع غامضة وتنتهي بمصير لم يكن يتوقعه أحد ؟



بلاد الرافدين علوية.. ولو كره المنكوسون (15)

في ذلك الصباح الخانق من صيف عام 2014، كانت أمُّ علي تقف في مطبخها الصغير تُعدُّ الشاي... ؛ كان هاتفها المحمول يرقد فوق سطح (الكاونتر) كما اعتاد دائماً؛ فهي امرأة لا تُكثر من استعمال الهاتف، ولا تتصل إلا بأهلها، وبناتها الست، وابنها اليتيم الوحيد علي.

فجأة تناهت إلى مسامعها الأخبار: سقوط الموصل، وتوالي انهيار المدن الشمالية والغربية كأحجار الدومينو في عاصفة الغدر والخيانة ، وصور الجنود الهارين، والأمهات الباقيات، والوجوه المذعورة.

تملّكها رعبٌ هسيّري ... ، هرعت بقلبٍ واجف نحو جهاز الهاتف المحمول، ذاك القابع بإهمال فوق منضدة المطبخ ... ؛ ضغطت بأصابع مرتعشة على رقم علي، والدموع تحجب الرؤية عن عينيها... ؛ جاء صوت الرنين طويلاً ومؤرقاً، كأنه دهرٌ كامل، قبل أن يُفتح الخط:

* أم علي (بصوت مخنوق بالدموع والوجل): "يُمّه علي.. شلونك؟ جاويني
اروحلك فدوة!"

لم يأتها صوت علي العذب، بل اخترق مسامعها صوتٌ خشنٌ متحشرج،
يشبه فحيح الأفاعي في وادٍ قاحل، يلوك الكلمات لوّغا حاقداً كأنها
معجونة بالدم التكفيري والغلّ الطائفي:

* الذَّبَّاح (ببرود مرعب): "أنتِ أم علي؟"

* أم علي (وقد تجمّد الدم في عروقها): "نعم، أنا أم علي.. أين ولدي؟
أرجوك!"

* الذَّبَّاح (بنشوة سادية): "ها هو أمامي، مطأطئ الرأس في أسرنا.. ,
وها أنا ذا أستعد لذبحه، لكي يتأدب أمثالكِ، وتتوي من تسمية أولادكِ
باسم (علي)!"

انفجرت الأم بالبكاء، وتلاشت المسافات الجغرافية بين بغداد وتكريت،
لتصبح مجرد نصلٍ يقترب من رقبة وحيدها:

* أم علي: "دخيلك.. اتركه، لا تذبحه بالله عليك! ما ذنبه؟"

* الذَّبَّاح (مستجوبًا بحقدٍ سياسي وطائفي أعمى): "جاؤوا إلى تكريت

ومناطقنا.. ما الذي يفعلونه هنا؟"

* أم علي: "جاؤوا للدفاع عن الوطن.. لحمايتكم وحمايتنا!"

* الذَّبَّاح (مقاطعًا بصراخ همجي): "إذن سأذبحه الآن.. وإياك أن تسمي

أولادًا باسم علي مجددًا!"

في تلك اللحظة الفارقة بين الموت والحياة، وفي ذروة الانكسار النفسي،

تملّكت الأمُّ روحُ التحدي والمقاومة، فصرخت بوجه القاتل بلسانٍ عراقيٍّ

فصيح الفجيعة:

* أم علي: "ابني فدوة لاسم (علي).. وراح أبقى أسمى كل طفل يجينه

باسم علي!"

انقطع الاتصال.

في تلك البقعة من تكريت، امتدت يد الغدر الهمجية، وأمسكت بشعر الفتى الغرير، وجذبت رأسه إلى الخلف بقسوة... ؛ وُضعت السكين على رقبته البيضاء التي لم يلمسها أحد ، وحُزّ الوريد.. وسال الدم الطاهر ليروي أرضًا خذلها السياسيون وباعها الخونة والمهجنون والمنكوسون .

في تلك اللحظة، هبطت ملائكة بلاد الرافدين العلوية ترفرف حول الجسد المسجى، تصدح بنشيدها السريالي العتيق، نشيد الأرض التي ترفض المحتل والتكفيري: "هذه الأرض علوية.. علوية.. علوية"... ؛ ثم عرجت روح علي الطاهرة إلى الملأ الأعلى، حيث استُقبلت بحفاوة تليق بالشهداء الأبرار الذين قُتلوا بلا ذنب سوى أن هويتهم عراقية علوية عريقة .

ثم نزلت ملائكة الثأر الأبدي، وطوّقوا القتلة والذباحة بأسوار من نار، ثم قالوا لهم - وهم لا يسمعون، وفي غيَّهم وإجرامهم يعمهون - : "أين تفرّون من الموت؟ فهو ملائكم ولو بعد حين."

ولأول مرة منذ سنوات، شعرت أم علي أن البيت كله أصبح فارغاً، وأن
الجدران أوسع من قدرتها على الاحتمال.

جلست على الأرض.

وضعت الهاتف في حجرها.

وظلت تردد:

«علي... علي... يا وليدي ، يا روحي ، يا سباح كلبي ، يمه علاوي
وينك ، الله وكبر يمه ...»

صار الحزن ضيفاً ثقيلاً في منزلها ؛ لكن الانكسار تحول إلى عقيدة بقاء
اجتماعي وسياسي... ؛ ولأن "علي" كان ابنها الوحيد وسندها في الحياة،
قررت الأم أن تفي بوعدها وتنفذ وعيدها للقتلة والذباحة التكرارة ومن
ساندهم من الاجانب والغرباء .

جمعت بناتها الست، وأوصتهن وصيةً ترقى لمرتبة الفرض: إذا رزق الله
إحداكن ولدًا، فسمّينه عليًا... ، كلّ مولود جديد يولد ، يجب أن يحمل

اسم علي ... ؛ ليس لأنني أريد استعادة ابني... ؛ فالأبناء لا يعودون...
؛ ولكن لأن الظلم لا ينبغي أن ينتصر على الذاكرة، ولأن الأسماء التي
تُحارب بسبب ما ترمز إليه تصبح أمانةً في أعناق الأحياء...

بكت كثيراً.

ثم جفّت دموعها.

ولم تعد تبكي.

صارت تنظر إلى صورته المعلقة على الجدار وتقول:

«كانوا يظنون أن الاسم يموت بموت صاحبه... وما علموا أن بعض
الأسماء تتحول إلى ذاكرة، وبعض الذكريات تتحول إلى وطن... لاسيما
علي ... دخیلك یا ابو الحسن»

مرّت الأيام ثقيلة كأنها أعوام... ؛ ومضت السنين ، وحملت البنات
الست، وأنجبن ستة أولاد..

نعم ، رُزقت كل واحدة من بناتها بولد.

وكانت المفاجأة أن الأول سُمِّي عليًّا.

والثاني عليًّا.

والثالث عليًّا.

والرابع عليًّا.

والخامس عليًّا.

والسادس عليًّا.

وفي أحد الأعياد، جلست أم علي في وسط أحفادها الستة.

ستة أطفال يركضون في فناء البيت.

وحين نادى:

— يا علي...

التفتوا جميعًا إليها دفعةً واحدة.

ابتسمت لأول مرة منذ سنوات.

وأدركت أن القتلة يستطيعون أن يسلبوا الأرواح، وأن يصنعوا المآسي،
لكنهم يعجزون عن قتل الذاكرة، ويعجزون أكثر عن اقتلاع المعاني السامية
التي تسكن قلوب الناس .

رفعت رأسها إلى السماء وهمست:

«لقد صار لي ستة أبناءٍ من اسمك يا علي... أما أنت، فقد صرتَ اسمًا
أكبر من شخصٍ واحد... صرتَ حكاية وطنٍ لا ينسى أبناءه.»

لقد أرادت الأم وثكالي سبايكر أن يثبتن للقتلة ومنطقهم الإقصائي
الطائفي، أن رصاص الغدر قد يقتل جسدًا، لكنه يعجز عن محو الهوية،
ولأن قدر هذه الأرض أن تبقى علوية.. ولو كره المهجّنون والمنكوسون.
قدر هذه الارض أن تبقى نابضة بالحق ولو كره الظالمون ...



بلاد الرافدين علوية.. ولو كره المنكوسون

القارئ الوحيد (16)

نشأ عباس في بلاد الرافدين، تلك الأرض التي علمت البشرية الكتابة بالقلم والقراءة.. ؛ فمند نعومة أظفاره، تعلق قلبه بتصفح المجلات وقراءة الصحف والإعلانات، أغلفة الدفاتر، وحتى الأوراق المتطايرة في الأزقة... ؛ كانت الكلمات بالنسبة إليه كائنات حيّة، تهمس له بأسرارها كلما اقترب منها.

حتى اشتدّ عوده في الصف الخامس الابتدائي.. ؛ وهنا بلغ مرحلة مفصليّة في حياته، فقد أولته الأستاذة ساجدة رعاية خاصة دون أترابه، لكونه أكثرهم نجاحاً في كتابة الإنشاء.

فقد انتبهت إليه المعلمة ساجدة... ؛ اذ رأت في دفاتر الإنشاء ما لم تره في دفاتر الآخرين؛ طفلاً يكتب كأنه يتذكر شيئاً نسيه العالم.

فكانت تأتية بين الحين والآخر بمجلة "المزمار" أو "مجّلي"، اللتين كانتا تصدران في العراق في عقد الثمانينات من القرن المنصرم.. ، ثم تطور

الأمر، فأخذت تحضر له الكتيّبات الصغيرة.. , وما إن اجتاز الصف السادس الابتدائي حتى أتقن القراءة إتقاناً فائقاً.

ولم تحط قدماه أرض المدرسة المتوسطة حتى أبصرته عينا الأستاذ شاكر، مدرّس اللغة العربية.. , فقد اهتم به اهتماماً خاصاً نظراً لتميزه في الإنشاء وإتقانه اللغة العربية.. ؛ كان الأستاذ شاكر يراعه ويقدم له النصائح حول قراءة الكتب، ويجلب له بعضها، ثم نصحه في الأيام التالية بالذهاب إلى المكتبة العامة في المدينة.

ذهب عباس إلى المكتبة العامة، فوجدها تعجّ بالشباب المستعدين للامتحانات النهائية ... ؛ إلا أن المكان، رغم نظافته وسعته، كان يضيق الخناق على الأحرار والوطنيين ... ؛ فالرفاق البعثيون القساة وجواسيس الأمن في كل مكان، يراقبون الداخل والخارج، ويعدّون أنفاس القراء، ويركزون على عناوين الكتب الموجودة أصلاً في هذه المكتبة الحكومية!

وبينما كان يتجول بين الرفوف، رأى رجلاً غليظ الملامح يراقب القراء ...

؛ شعر عباس يومها أن الكتب نفسها كانت خائفة ...!!

لم ترق لعباس أجواء المكتبة الخائفة، لا سيما بعدما شاهد أحد الرفاق البعثيين، وكان ضخم الجثة، مفتول الشوارب، قاسي الملامح، صلف النظرات، يصرخ بوجه شابين كانا يتحدثان همساً، أمراً إياهما بالصمت... ؛ وبينما هم بالخروج، اقترب من شابين يتحدثان، إذ قال أحدهما للآخر: "أمران لا تقترب منهما وأنت تبني مستقبلك: النساء والسياسة".

خرج عباس، ولم تطأ قدماه أرض المكتبة العامة إلا بعد ثلاثة عشر عاماً، حين سقط النظام البعثي عام 2003... ؛ إذ تحولت المكتبة تحولاً جذرياً، فقد امتلأت بالكتب الممنوعة والحقيقية .

نعم ، حين عاد إليها، وجد الرفوف قد امتلأت بكتب كانت بالأمس محرمة، وأسماء كان مجرد ذكرها يثير الشبهات.

لكن شيئاً آخر كان قد تغير داخله.

ففي تلك السنوات العجاف ، صار يتردد على المساجد، ويقرأ الكتب الدينية بنهم العطشان... ، كان يظن أن الحقيقة واحدة، وأنه يقترب منها مع كل صفحة يطويها.

كان عباس يتردد على الحسينيات ويلتقي بشباب أكبر منه سناً، وقدموا له الكتب الدينية يقرؤها ثم يعيدها إليهم... ؛ حتى نشأ ملتزماً دينياً، لا يعرف من الحياة شيئاً سوى قراءة الكتب الدينية والنقاشات الحادة. مرت الأيام وانتقل عباس إلى المرحلة الإعدادية، وتعرف على خالد ذي الجذور الشيوعية.

قال خالد: "لماذا لا تخرج من سردابك الديني يا عباس؟"

قال عباس: "ولماذا يا خالد؟"

قال خالد: "لكي تشاهد العالم برؤية أوسع وتفكر لمديات بعيدة."

قال عباس: "وكيف ذلك؟"

قال خالد: "تعال اليوم إلى بيتنا مساءً لأعيرك بعض الكتب الفلسفية."

جاء المساء، وذهب عباس بلهفة العاشق الوهان... ؛ فلما دخل إلى خالد في غرفته، وجده يشاهد فيلماً رومانسياً فيه بعض المشاهد الخادشة للحياء... ؛ جلس عباس كأنه على جمر، من تأنيب الضمير.

وفي هذه الأثناء، دخل الحاج مزاحم والد خالد، وييده سبحة حسينية، ولسانه يردد: "أستغفر الله ربي وتوب إليه"... ؛ سلّم عليهما، وما إن رأى الفيلم حتى قال بصوت هادئ لكنه مليء بمشاعر العتاب: "هذا شأنكما؟ هكذا تقضيان أوقاتكما؟"

ثم خرج مسرعاً ولم ينبس ببنت شفة، مما زاد من الصراع الداخلي في شخصية عباس، تلك الشخصية الأقرب إلى الحاج مزاحم. أخذ الكتب الفلسفية العشرة ومضى عباس.

ما إن قرأها حتى زلزلته زلزالاً عظيماً... ؛ فقد راودته الشكوك في كل المسلمات الدينية وغيرها... ؛ ثم توطدت علاقته بخالد، وبعد أشهر تأثر

بالفلسفة الماركسية، ثم تأثر بالفلسفة الغربية لا سيما الألمانية ، وصار يؤمن
بفلسفة القوة.

كانت تحدث بين عباس وعمه الكثير من المشاكل العائلية بسبب علاقة
عمه صادق السيئة بوالده حسين، وقد انعكست هذه العلاقة السلبية على
حياة عباس... ؛ وكان عباس ينجح للسلم والعفو والصفح رغم اعتداءات
عمه وتجاوزاته... ؛ لكنه بعد الإيمان بفلسفة القوة... ؛ جاء في أحد
الأيام والغضب يملأ داخله، والشر يتطاير من عينيه، يحمل طبراً حاداً
بيده، وهجم على عمه هجوماً مباغتاً كاد أن يؤدي بحياته لولا تدخل
بعض الأقارب والجيران... ؛ ولما شعر عباس بأن عمه قد أفلت من
قبضته، هروا إلى سيارة عمه وحطم زجاجها... ؛ ومنذ ذلك الوقت،
التزم عم عباس الصمت، ولم يتشاجر مع عباس أو أبيه قط.

لم يكن يريد قتله بقدر ما كان يريد قتل ذلك الضعف القديم الذي عاش
فيه طويلاً.

نجا العم.

لكن عباس لم ينبج.

فقد اكتشف لأول مرة أن الأفكار لا تسكن الكتب فقط، بل يمكن أن تتحول إلى أيدٍ تضرب، وعيون تشتعل، وقلوب تحترق.

بعد أفول الدراسة الإعدادية، صار عباس يقسم وقته بين العمل والعلم والثقافة... ؛ يكدح طوال النهار، وقد يحرم نفسه من أبسط الأمور ليوفر المال من أجل شراء الكتب... ؛ وبمرور الأيام وانصرام السنين، اقتنى عباس مكتبة تضم عشرة آلاف كتاب بملايين الدنانير.

كانت الجدران تضيق بالرفوف، بينما كانت روحه تتسع بأسئلة لا تنتهي.

قرأ التاريخ والفلسفة والدين وعلم النفس والرواية والسياسة.

قرأ حتى صار الناس يلقبونه بالمكتبة المتنقلة.

لكن العالم حوله كان يتغير في اتجاه آخر.

تعرف على الكثير من الأساتذة والكتّاب والقراء والمتقنين، حتى راهن أحد

أصدقائه يوماً أيهما يقرأ أكثر... ؛ إذ قام عباس بقراءة مجلدين كاملين في

يوم واحد، بينما قرأ صديقه جاسم كتاباً يضم ستمائة صفحة في يوم واحد.

ثم دارت الأيام، وتحسنت الأوضاع المعيشية لأبناء الأمة والاغلبية العراقية، وتحول الناس من الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش... ؛ فما إن سقط النظام البعثي عام 2003 حتى دخلت العراق الرساميل العملاقة والأموال الطائلة، بالطرق المشروعة والقذرة على حد سواء.

ازدادت الأموال.

كبرت الأسواق.

امتألت المطاعم والمقاهي.

ارتفعت الشهادات الأكاديمية.

غير أن الكتب كانت تختفي بهدوء.

كان يرى الشباب يحملون أحدث الهواتف، لكنه نادراً ما يرى أحدهم يحمل كتاباً.

ويرى الساعات الطويلة تُهدر في متابعة التفاهات، بينما تعجز العقول عن

تخصيص دقائق قليلة لقراءة فكرة جديدة.

وما آلمه أكثر أن الأمية لم تعد أمية الحروف.

بل صارت أمية الفكر.

كثيرون يعرفون كيف يكتبون، لكنهم لا يعرفون كيف يفكرون.

وكثيرون يتحدثون طوال الوقت، لكنهم لا يملكون شيئاً يقولونه.

أما هو، فبقي وحياناً لعاداته القديمة.

وحين بدأت عيناه تخونانه، لجأ إلى الكتب المسموعة.

استبدل إرهاق البصر بإرهاق السمع.

وظل يقرأ... بطريقة أخرى.

وفي إحدى الليالي، بعد ساعات طويلة من الاستماع إلى كتاب فلسفي،

خلع سماعاته ونظر إلى مكتبته.

عشرة آلاف كتاب تحيط به من كل جانب.

عشرة آلاف صوت.

عشرة آلاف حياة.

وعشرة آلاف سؤال.

ساد الصمت.

شعر فجأة بغربة لم يعرفها من قبل.

وسأل نفسه:

ماذا لو كنت مخطئاً؟

ماذا لو كان هؤلاء جميعاً على حق؟

ماذا لو كانت الحياة أبسط من كل هذه الكتب؟

نفض ببطء.

اقترب من النافذة.

نظر إلى الشارع.

كان الناس يضحكون، يتسامرون، يتنزهون، يلتقطون الصور، ويعيشون

أيامهم بلا حاجة إلى مكتبات ضخمة أو أسئلة معقدة.

أما هو، فكان محاصراً بين آلاف المؤلفين الأموات.

ظل واقفاً طويلاً.

ثم التفت نحو رفوفه الممتدة كغابة من الورق.

ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال:

ربما كنتُ آخر القراء...

ثم صمت قليلاً وأضاف:

أو ربما كنتُ آخر من ظنَّ أن الكتب وحدها تكفي لفهم الحياة.

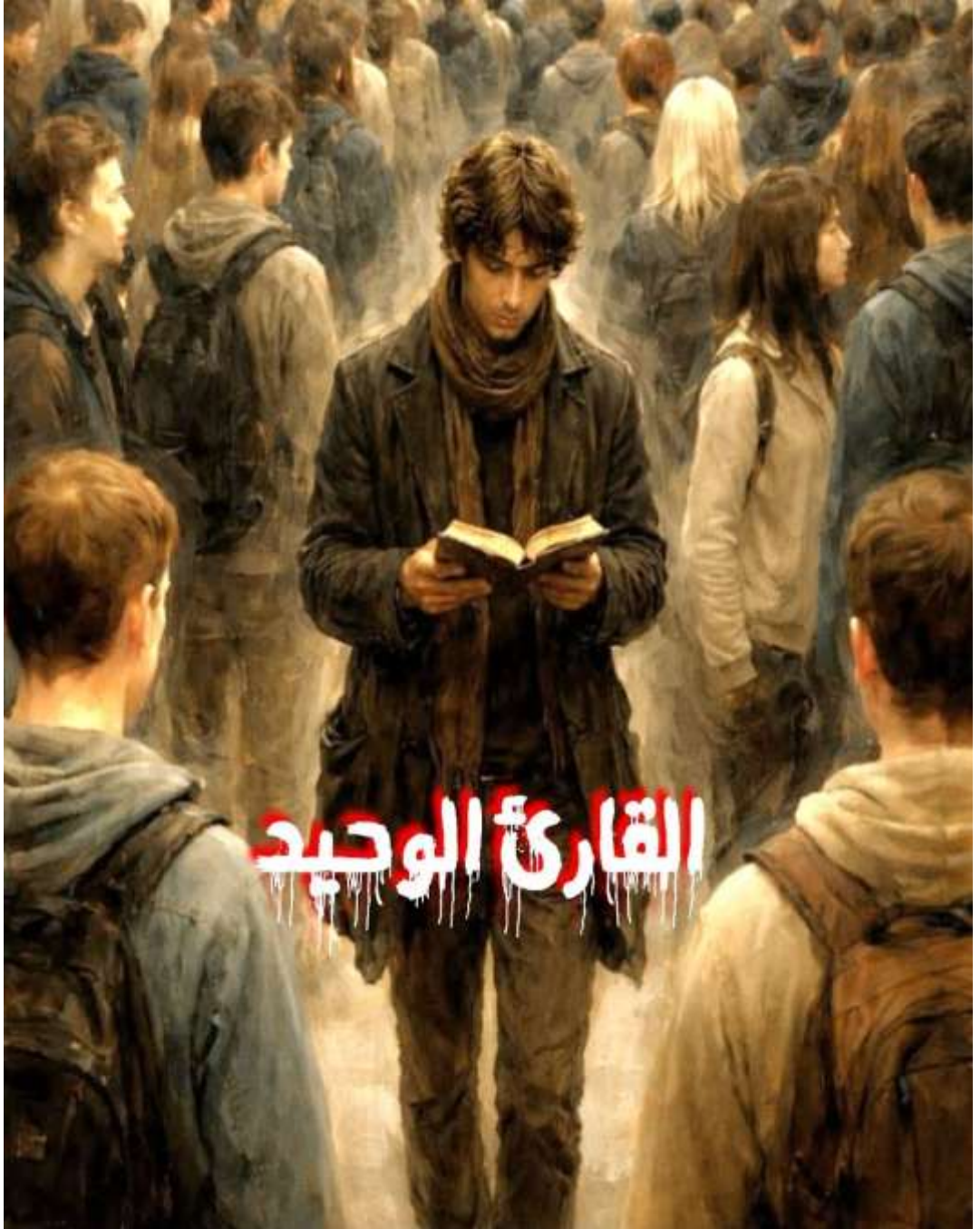
وأطفأ المصباح.

فغرقت المكتبة في الظلام.

لكن آلاف العيون الورقية بقيت مفتوحة.

في هذه المعمة، بقي عباس أميناً لإلهه الأول: الكتاب.

كان يقف كل ليلة أمام عشرة آلاف كتاب، فيشعر أنه الرجل الأعور في مدينة العميان، أو ربما المبصر الوحيد في غرفة مظلمة... , ماتت الحكايات، وانزوت العزلة... , لم يعد ثمة من يقرأ.. , كان عباس هو القارئ الأخير، يحرس شعله صغيرة في مهبط ربح عاتية، متسائلاً إن كان الضوء للناس أم عليه.



القارئ الوحيد

العائد من معركة المحمرة (17)

في خريف عام 1980، كانت الأرض حول المحمرة تشتعل كأنها آخر خرائط الجحيم... ، لم يعد الجنود يعدّون الأيام، بل صاروا يعدّون من بقي حيًا عند الغروب.

كانت معركة المحمّرة قد التهمت كل شيء، حتى ملامح الشهور... ، وقف الجندي إياد الربيعي في خندقه الموحد، يتأمل السكون الثقيل الذي يسبق العاصفة... ؛ وهو يخلط طعام الملح بطعم التراب على شفّتيه.

كان الجندي إياد الربيعي جالسًا داخل الخندق، يحدّق في السماء الرمادية.

قال له زميله حسن وهو يمسح التراب عن وجهه:

إياد... إذا انتهت الحرب، ماذا ستفعل أولاً؟

ابتسم إياد ابتسامة متعبة وقال:

سأذهب إلى بغداد... , وأجلس عند قدمي أمي ساعة كاملة دون أن أقول كلمة.

ضحك الجنود.

قال آخر:

وأنا سأبحث عن سرير أنام فيه أسبوعًا.

لكن الضحكة سرعان ما ابتلعها صوت المدفعية.

مرّت الشهور ثقيلة... , سقط رفاق كثيرون، واختفت أسماء أخرى في

قوائم المفقودين... , وفي كل مرة كان إياد ينجو، كان يشعر أنه يحمل

فوق كتفيه جزءًا من أعمار الذين رحلوا.

"الى متى يبقى العذاب في الفرقة المدرعة الثالثة ... الله يستر"، تتمم محدثاً

نفسه.

كان زملاؤه يدعون الله ، وآخرون يكتبون وصاياهم على قصاصات ورق
مهترئة... ؛ فالحرب لا ترحم، والموت يقف على مسافة خطوة من كل
رجل هنا.

"إياد!"، ناداه الرائد سعد العزاوي، آمر الفوج ، بماذا تفكر يا إياد ؟

رفع إياد رأسه: "بأمي، سيدي. تأخرت الإجازة أربعة أشهر. كانت دمعتها
على خدها يوم ودعتني".

اقترب الرائد ووضع يده على كتفه: "كلنا هنا لنا أمهات، لكن انتبه
لنفسك... , المعركة القادمة لا اجازات فيها ولا مساعدات".

صمت قليلاً، ثم أردف الأمر:

لديك إجازة ثلاثة أيام.

لم يصدق إيراد ما سمع.

خرج من الجبهة كأن أحدًا أعاده فجأة إلى الحياة.

في الباص المتجه إلى بغداد، ظل ينظر من النافذة.

كانت الأشجار تركض إلى الخلف، أما أفكاره فكانت تركض إلى الأمام.

تخيّل أمه جالسة قرب الباب.

تخيّل دمعة قديمة عالقة على خدها منذ أشهر.

تخيّل أنها تسمع طرقًا مفاجئًا فتنهض مذعورة.

ثم هاجمه سؤال لم يستطع طرده:

"ماذا لو اعتادت غيابي؟"

كان سؤالًا مؤلمًا.

فالحرب لا تقتل الأجساد وحدها؛ أحيانًا تقتل مكان الإنسان في قلوب

الآخرين.

وصل إلى بغداد مع الغروب.

وما إن نزل في حي الأعظمية حتى استقبله الجيران والأصدقاء بفرح عارم...

, ونادوه : "أبو تحرير! إياد رجع!".

إياد!

الحمد لله على السلامة!

رجع أبو تحرير!

كانت الأصوات تتدافع حوله كأسراب حمام.

لكن قلبه كان يسبق خطواته نحو البيت... ؛ وقد كانت الكلمات تدخل

قلبه كالرصاص، لكنها رصاص من نور هذه المرة.. , اقترب من باب الدار

القديم.. , توقف.. , قلبه يخفق بعنف.. , الحرب لم ترهبه، لكن هذه

اللحظة أرعبته.

في تلك الأثناء، داخل المنزل، كانت الأم جالسة قرب النافذة.

قالت لابنتها:

لا أدري لماذا أشعر أن إياد قريب اليوم.

ابتسمت البنت بحزن.

تقولين هذا كل يوم يا أمي.

أطرقت الأم رأسها.

الأم لا تتقاعس عن الانتظار.

وفي الغرفة المجاورة كان أخوه الأصغر قد أعد كاميرا تصوير بسيطة.

قال له أخوه الأكبر مازحًا:

لمن ستصور؟

إذا عاد إياد فجأة أريد أن أوثق اللحظة.

ضحك الجميع.

فالأمل حين يطول يتحول عند الناس إلى نوع من الخيال الجميل.

وقف إياد أمام الباب.

ارتجفت يده.

"بسم الله..."، همس وهو يفتح الباب.

لم يكد يتجاوز العتبة حتى سمع صوتاً يعرفه: "أخي!".

كان أخوه الأصغر مصطفى يحمل كاميرا قديمة، يصور لحظة الدخول التي

انتظروها شهوراً. رفعها بعناية، كأنه يرفع كنزاً، ووجهها نحو الباب.

وقف إياد في منتصف الدار... ؛ دخل رجل نحيل، متعب، أسمر الوجه،

يغطي الغبار ملامحه.

ساد الصمت.

ثانية واحدة فقط.

نظرتہ تجوب باحة البيت باحثة... ؛ فرآها.

أمه... تجلس في ركن الصالة قرب النافذة ، بجانبها أخته مريم... , كانت
دمعتها على خدها تماماً كما تخيلها في الخندق... , لكنها الآن دموع فرح
لا دموع وداع.

"أمي!", نادى بصوت محتنق.

ثم صرخت الأم:

إياد!

سقطت العصا من يدها.

وركضت نحوه.

ألقى نفسه بين ذراعيها كما لو أنه عاد طفلاً في السابعة.

كانت تبكي وتضحك في آن واحد.

تتحسس وجهه وكتفيه ويديه.

كأنها تريد التأكد أن الحرب لم تأخذه منها على هيئة شبح.

قالت وهي تنتحب:

الحمد لله... الحمد لله الذي أعادك.

أما أخته فكانت تبكي بصمت.

وأخوه ما زال يصور المشهد بيد مرتجفة.

قال له إياد ضاحكاً وسط دموعه:

ماذا تفعل؟

أجاب:

أخاف أن يقال بعد سنوات إن هذه اللحظة لم تحدث.

في المساء، اجتمع الجيران والأقارب.. , الكل يريد أن يسمع، والكل يريد

أن ينسى.. , جلس إياد وسطهم، وعيناه تاملان أسئلة لا تقال.

تحدث أحد الجيران المسنين: "الحرب... الحرب تأخذ كل شيء".

أجاب إِيَاد بصوت هادئ: "بل الحرب تكشف كل شيء.. , في الخندق،
تعرف معدن الرجال.. , البعض يصلي، البعض يبكي، الكل يخاف...
لكن الشجاع من يمضي رغم خوفه".

سأل مصطفى: "هل ستعود؟"

صمت إِيَاد طويلاً.. , نظر إلى الكاميرا التي صورته، إلى أمه، إلى أخته:
"ثلاثة أيام فقط... , ثم أعود.. , المعركة لم تنته بعد".

قالت أمه بصوت خافت: "لكلِّ أجل كتاب.. , لكن قلبي...؛ قلبي
يخبرني أنك ستعود".

"كلنا سنعود يا أمي... أو سنذهب حيث لا حرب".

ثم سأله أخوه الأكبر غسان :

هل كنت خائفاً هناك؟

نظر إِيَاد طويلاً إلى كوب الماء أمامه.

ثم قال:

كل إنسان يخاف.

وكيف كنتم تقاتلون إذن؟

ابتسم.

الشجاعة ليست غياب الخوف... الشجاعة أن تحمل خوفك وتسير به.

ساد الصمت.

ثم أضاف بصوت خافت:

أصعب ما في الحرب ليس الموت.

فما هو؟

رفع رأسه نحو أمه.

كانت تراقبه بعينين دامعتين.

قال:

أن تبقى حيًا بينما يغيب الذين كانوا يجلسون إلى جوارك بالأمس.

عند الفجر، استيقظت الأم لتجده جالسًا في الحديقة.

اقتربت منه.

لماذا لم تنم؟

قال:

أفكر بالشهداء.

جلست إلى جواره.

وهل ينفع التفكير؟

أجاب:

لا يعيدهم... , لكنه يمنعنا من نسيانهم.

ثم نظر إلى السماء المضيئة وقال:

الإنسان لا ينتصر حين يعود من الحرب حيًّا فقط، بل حين يبقى قلبه
إنساناً بعد كل ما رآه.

أمسكت أمه بيده.

وفي تلك اللحظة شعر إِياد أن البيت ليس جدرانًا وسقفًا.

البيت هو المكان الذي يعيد للإنسان اسمه بعد أن كادت الحرب تحوله إلى
رقم في قائمة طويلة من الغائبين.

ولهذا، عندما غادر بعد ثلاثة أيام عائداً إلى جبهته، لم يكن يحمل زادًا أو
متاعًا كثيرًا.

كان يحمل شيئًا واحدًا فقط:

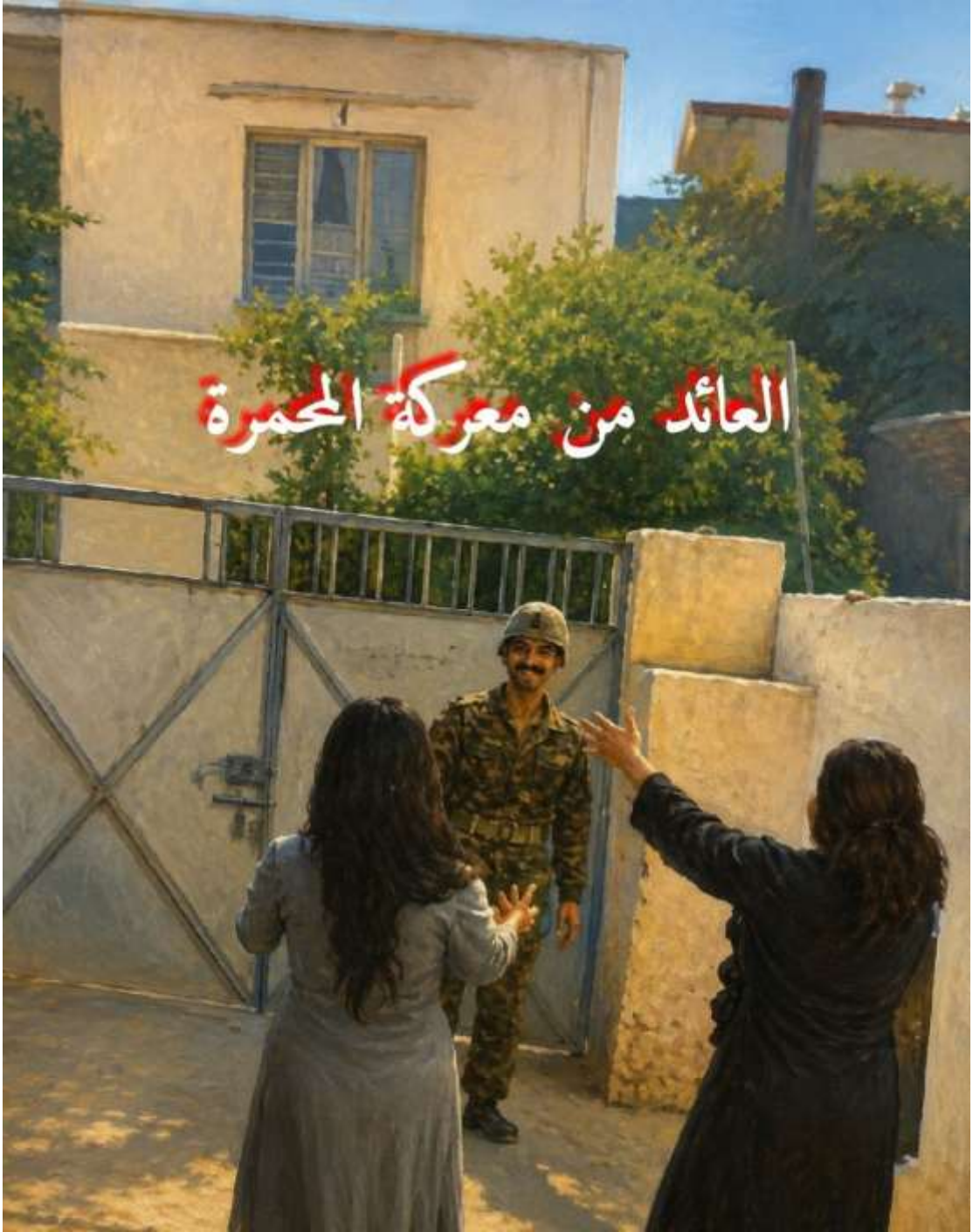
صورة أمه وهي تبتسم.

وكان يعلم أن بعض الصور أقوى من البنادق، وأطول عمرًا من الحروب.

كان الجنود في الخندق يسألوه: "كيف كان البيت؟"

أجاب إياد: "كان كما الجنة.. , البيت... ؛ ليس جدراناً.. , البيت وجه
أمي".

نعم , انتهت الإجازة، لكن المعركة لم تنته... , بقي إياد يقاتل، وصورة
الدخول في ذهنه، وصوت أمه في قلبه، وكل شهيد يذكره بأن الحياة ليست
بعدد السنين، بل بعدد اللحظات التي نحب فيها.



العائد من معركة المحمرة

الشهادة الأخيرة (18)

كان الفجر يولد من رحم الظلام، وسامر يتلو أوراده الخفية في زاوية غرفته الضيقة..

لم يكن نور المصباح الخافت يكفي لإنارة وجهه الشاحب، لكنه كان كافياً ليضيء الخوف الساكن في عينيه... ؛ منذ عشرين عاماً وهو يحمل هذا الخوف، يحمله كجنين ميت في أحشاء ذاكرته، لا هو بالحي فينساه، ولا هو بالميت فيتحلل.

في طفولته، رأى أباه يُقتاد من بيته فجراً، ورأى أمه تركض خلف السيارة العسكرية حتى أسقطها التعب على الأسفلت البارد... ؛ لم يعد الأب.. , تركوا لهم جثته بعد ثلاثة أشهر، وتركوا معها فاتورة: ثمن الرصاصات الخمس التي اخترقت جسده، وثمان نقل الجثمان، وثمان الخوف الذي سيلازم العائلة للأبد.

كبر سامر وفي قلبه ثقب أسود، ثقب يمتص كل نور يمر به... ؛ ثم أصبح
مهندساً لامعاً، يتظاهر بالصلافة، و يخفي ارتعاشات يديه خلف مخططات
المباني... ؛ لكن الليل كان يفضحه، كان يخلع عنه ثوب التظاهر ويتركه
عارياً أمام وحوش ذاكرته.

ذات مساء، وبينما كان عائداً من عمله، رأى طفلاً يبكي في زقاق مظلم..
، اقترب منه، فوجد الطفل يحتضن هراً ميتاً، يبكي بصمت الموجهين...

سأله: "لماذا تبكي يا صغيري؟"

فأجابه الطفل بعينين واسعتين ككون مظلم: "لأنني الوحيد الذي رآه
يموت".

اهتز سامر.. ، شعر أن الطفل نطق بحقيقة وجوده كله.. ، نحن لا نبكي
الموتى، نحن نبكي لأننا الوحيدون الذين شهدنا موتهم.. ، نحن نحمل
شهادة الميلاد والموت معاً، نحن أحياء يحملون موتاهم في حدقات العيون،

نمشي بهم في الأسواق، نأكل معهم الخبز، وننام وإياهم تحت غطاء الذاكرة
الواحد.

في تلك الليلة، لم ينم سامر.. ، جلس في شرفته يحدق في سماء المدينة
الملوثة بالضوء والضجيج...

و تساءل: أين تذهب أرواح الموتى حين ينساهم الأحياء؟

هل تموت مرة ثانية؟

أم أنها تتيه في فراغ أبدي، تبحث عن ذاكرة تحتويها، عن عين تراها، عن
قلب يشهد أنها كانت هنا يوماً؟

كانت أمه، قبل أن تفقد بصرها ، تهمس له كل ليلة: "لا تنس أباك يا
سامر... ؛ إن نسيته، سيموت مرة أخرى.. ، الموتى يموتون مرتين: مرة
حين تغادر أرواحهم أجسادهم، ومرة حين يغادرون ذاكرتنا".

كان سامر يظن أن أمه تهذي، لكنه الآن، في هذه الليلة الثقيلة، فهم... ؛
فهم أن النسيان هو القتل الأخير، هو الإعدام النهائي الذي لا رجعة
بعده.

كل الذين سقطوا في غياهب السجون، كل الذين ذابوا في أقبية المخبرات
كالمالح في الماء، كل الذين صاروا مجرد أسماء على لوائح المفقودين... ؛
هؤلاء يموتون الآن، في هذه اللحظة، يموتون في ذاكرة تتآكل، في شهادة
تتلاشى، في وطن يريد أن ينسى.

في صباح اليوم التالي، قرر سامر أن يزور صديقه القديم، مرتضى، الذي
قضى خمسة عشر عاماً في سجون الصحراء ثم خرج... ؛ كان مرتضى
يسكن في طرف المدينة، في بيت صغير تحيط به أشجار النخيل العجفاء.

كان وجهه كخريطة قديمة، خطوطها أنهار من ألم جاف.

- "كيف تمكنت من النجاة يا مرتضى؟" سأله سامر.

ابتسم مرتضى ابتسامة الشقوق في الأرض العطشى: "لم أنج.. , ما زلت

هناك.. , الجسد خرج، لكن الروح بقيت في الزنانة رقم سبعة...!!

كل ليلة، حين يخفت الضوء، أعود إليها.. , أسمع صرير الباب، أشم

رائحة العفن والبول والدم، أتحنس الجدران الباردة... ؛ أنا لم أخرج يا

سامر.. , أنا فقط تظاهرت بأنني خرجت".

صمت سامر طويلاً.. , كان يعرف هذا الإحساس.. , هو أيضاً لم

يخرج.. , كل الذين عاشوا تلك السنوات، كل الذين شهدوا الموت يمشي

في الأسواق ويطرق الأبواب فجراً، كل الذين ذاقوا طعم الخوف حتى صار

الخوف لعابهم الدائم...، كلهم ما زالوا هناك... ؛ الوطن كله زنانة كبيرة،

والشعب كله ما زال في الداخل، يتظاهر بأنه خرج.

- قال مرتضى بصوت خافت كأنه يبوح بسر: "أندري ما أقسى أنواع

التعذيب يا سامر؟

ليس الشياط، ولا الكهرياء، ولا التعليق بالمقلوب... ؛ أقسى تعذيب هو
أن تجعل الإنسان يخاف من إنسانيته.. ، أن تخنق فيه الرحمة حتى يصير
جريمة، أن تقتل فيه الحب حتى يصير تهمة، أن تسجنه داخل نفسه حتى
يصير جلاد ذاته...

نظرت في عيني سجاني يوماً، فرأيت فيها نفس الخوف الذي في عيني.. ،
كان مسجوناً مثلي، مسجوناً في دور الجلاد الذي لا يريد أن يكونه... ؛
التعذيب الحقيقي أن تحول إنساناً إلى وحش، ثم تتركه يعيش مع وحشيته
تلك إلى الأبد".

عاد سامر إلى بيته محملاً بأسئلة أثقل من الجبال... ؛ ثم جلس في غرفته
المظلمة، وأغلق عينيه.. ، فجأة، شعر بشيء غريب.. ، شعر أن جدران
الغرفة بدأت تنفس.. ، أن الظلام صار له ثقل وملمس.. ، أن الصمت
صار له صوت، صوت يشبه الأنين الخافت لآلاف الأرواح العالقة بين
الموت والحياة.

في تلك الليلة، حدث ما لم يتوقعه سامر... ؛ بين النوم واليقظة، في تلك المنطقة الشفافة حيث تذوب الحدود بين العوالم، رأى أباه... ؛ لم يكن حلماء، ولم يكن يقظة.. ، كان لقاءً من طينة أخرى، لقاءً لا يشبه شيئاً مما عرفه من قبل.

كان الأب يجلس على كرسي خشبي قديم، نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه في صباحات الأعياد.. ، كان يرتدي ثياباً بيضاء، وكان نور خافت يشع من جسده كالقمر في ليلة غائمة.. نظر إلى سامر نظرة تحمل كل حب الكون، وقال بصوت يبدو قادماً من أقاصي الروح:

"لا تحملني في صدرك بعد اليوم يا بني.. ، أنا لست ميتاً حتى تحملني.. ، أنا حي، لكنني لست هنا.. ، أنا في مكان لا تعرفه لعتك، ولا تدركه حواسك.. ، أنا بخير.. ، كلنا بخير... ؛ الجسد كان قفصاً، والموت كان باباً.. ، لا تبك عليّ، ابك على الأحياء الذين يموتون كل يوم وهم يمضون على الأرض.. ، ابك على القلوب التي تحجرت، على العيون التي جفت

دموعها، على الأيدي التي نسيت كيف ترتعش شفقة... ؛ نحن الموتى
أرحم حالاً منكم أنتم الأحياء".

استيقظ سامر والدموع تغطي وجهه كندى الفجر.. ، لم تكن دموع حزن،
بل دموع تطهير، كأن شيئاً ثقيلاً وسرياً قد غادر صدره.. ، شعر بخفة
غريبة، خفة من أُلقي عنه حمل أبدي.

نهض وتوضأ، وصلى الفجر بخشوع لم يعرفه من قبل.. ، ثم جلس وكتب
في دفتره القديم: "الموتى لا يحتاجون دموعنا، هم يحتاجون شهادتنا... ؛
الشهادة أنهم كانوا هنا، أنهم أحبوا وخافوا وضحكوا وبكوا، أنهم لم يكونوا
مجرد أرقام في تقارير القتلى والموتى ، بل كانوا عوالم كاملة، كوناً في كل
قلب.. ، الشهادة أن الحياة أقوى من الموت، وأن الحب أعمق من
الكراهية، وأن الإنسان، رغم كل شيء، ما زال قادراً على أن يكون
إنساناً".

في صباح اليوم التالي، خرج سامر إلى شوارع المدينة... ؛ رأى الوجوه من
حواله بعينين جديدتين.. ، رأى الخوف الكامن في العيون، والألم المدفون

تحت ابتسامات المجاملة، والموتى الذين يسكنون الصدور كالأجنة المتكلسة... ؛ أدرك أن المدينة كلها مقبرة جماعية للأحياء، مقبرة تمشي على قدمين، تأكل وتشرب وتتنفس، لكنها من الداخل ميتة، ميتة منذ زمن طويل.

ثم تذكر سامر مقولة صوفية قديمة قرأها يوماً: "الأولياء لا يموتون، هم فقط ينتقلون"... ؛ ربما كان هذا هو السر.. ، ربما كان الموت مجرد انتقال، مجرد نقلة من حال إلى حال، من دار إلى دار.. ، ربما كان الخوف من الموت هو الخوف من المجهول فحسب، خوف الطفل من الظلام، خوف لا مبرر له حين يسطع النور.

مشى سامر في شوارع مدينته الجريحة، وراح يهمس في سره: "أشهد أنكم كنتم هنا.. ، أشهد أنكم عشتُم وأحببتم وقاومتُم.. ، أشهد أن الموت لم ينتصر، ولن ينتصر.. ، أشهد أن الحياة، رغم كل هذا الموت، ما زالت تستحق أن تُعاش".

وفي المساء، بينما كانت الشمس تغوص في أفق المدينة كجرح قانٍ، جلس
سامر على مقعد في الحديقة العامة... ؛ و شاهد طفلاً يطعم الحمام،
وشاهد عجوزاً يقرأ القرآن، وشاهد شاباً وفتاة يتهامسان بالحب خلف
شجرة زيزفون.. ، ابتسم.. ، و أدرك أن الحياة مستمرة، رغم كل شيء..
، أن النور، مهما انكسر، يظل نوراً.. ، وأن الروح، مهما سُجنت، تظل
حرة.

عاد إلى بيته مع دُجى الليل ، وقد ملأته سكينه غريبة، سكينه من عرف
أن الموتى أحياء، وأن الأحياء سيموتون، وأن الشيء الوحيد الذي يبقى هو
الأثر الذي نتركه في قلوب من نحب، هو الشهادة، هو الذاكرة، هو الحب
الذي لا يموت.

توقف عند عتبة البيت، ورفع رأسه إلى السماء، وقال بصوت لا يسمعه
أحد: "أبي، لقد فهمت الآن.. ، فهمت لماذا أوصيتني أمي بألا أنساك..
، ليس لأنك تحتاج ذاكرتي، بل لأنني أنا الذي أحتاجها.. ، أنا الذي
أحتاجك حياً في قلبي كي أظل أنا حياً.. ، نحن لا نشهد على الموتى، هم

الذين يشهدون علينا.. , هم الشهود ونحن المشهود علينا.. , هم الأحياء
الحقيقيون ونحن الذين لم نولد بعد".

دخل بيته، وأوقد مصباحه الصغير، وفتح دفتره، وبدأ يكتب.. , كان
يكتب عن أبيه، وعن مرتضى، وعن الطفل الذي كان يحتضن هراً ميتاً،
وعن كل الذين سقطوا في الطريق.. , كان يكتب ليشهد، ليشهد أنهم
كانوا، وأنهم ما زالوا، وأنهم سيبقون، ما بقيت كلمة تُقرأ، وقلبٌ ينبض،
وذاكرةٌ تحفظ.

نام سامر تلك الليلة نوماً عميقاً، لأول مرة منذ عشرين عاماً... ؛ نام وفي
قلبه سلام، سلام من عرف أن الموت ليس نهاية الحكاية، بل هو فقط
بداية فصل جديد، فصل لا يُكتب بالحر بل بالنور، ولا يُقرأ بالعين بل
بالروح.

وفي الصباح، استيقظ على صوت أم كلثوم تغني من راديو الجيران: "يا ليلة
العيد آنستينا..." ؛ ابتسم.. , كان العيد.. , عيد الحياة.. , عيد

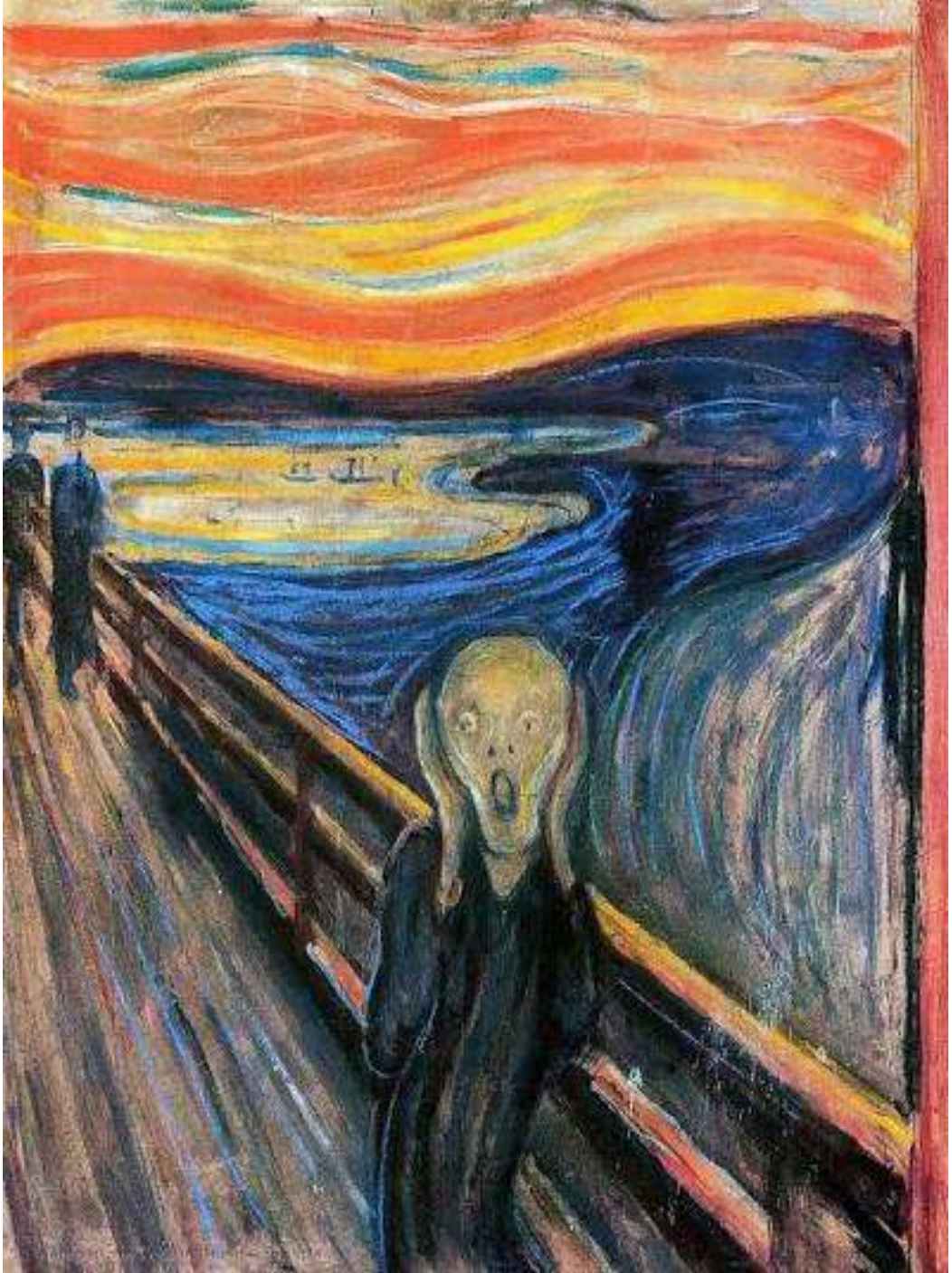
الذاكرة.. , عيد الإنسان الذي، رغم كل الظلام، ما زال قادراً على رؤية
النور.

فتح النافذة، واستقبل شمس الصباح بوجهه، وهمس: "الحمد لله الذي
أحيانا بعد ما أماتنا... وإليه النشور".

كان يعرف الآن أن النشور ليس فقط يوم القيامة، بل هو كل صباح، كل
لحظة، كل نبضة قلب ترفض أن تتوقف، كل ذكرى ترفض أن تموت، كل
حب يصبر على أن يبقى.

ثم خرج سامر إلى شوارع المدينة من جديد، لكنه لم يعد يرى الموتى.. ؛
صار يرى الأحياء.. , صار يرى النور الذي يسكن كل شيء، النور الذي
لا ينطفئ، النور الذي، مهما كُسر، يظل ينبعث من الشقوق، ينبعث من
القلوب الجريحة، ينبعث من الذاكرة التي تأبى النسيان.

ومشى ... وظل يمشي ... في مدينة الموتى ... حاملاً مشعل الحياة.



الحمامة التي أخطأت الطريق (19)

دخلت الحمامة من الباب الرئيسي دون استئذان.

كانت صغيرة، يغلب على ريشها السواد الممزوج بلون الرصاص، كأنها قطعة من غيمة أضلت طريقها بين السماء والأرض.

عبرت الصالة، ثم جابت الغرف الأربع واحدة تلو الأخرى، وكأنها تبحث عن شيء تعرفه وتنساه في اللحظة نفسها.

كان محمد يتابعها بعينه بصمت.

لم يرَ فيها طائرًا فحسب، بل رأى حيرةً مألوفة؛ تلك الحيرة التي ترافق الكائنات حين تدخل أمكنةً تظنها ملاذًا.

استدارت الحمامة فجأة نحو غرفة الاستقبال، ثم ارتفعت إلى الأعلى.

وفي لحظة خاطفة...

ارتطمت بالمروحة.

دوى الصوت فى المكان كصفعة مباغطة.

تناثر الرىش فى الهواء، وتمزق جلدها الرقيق، وسالت قطرات من الدم قبل أن تسقط على الأرض كنجمة انطفأت وهى تظن أنها اقتربت من الضوء.

أسرع محمد إليها.

حملها بين كفيه، ووضع أمامها قليلاً من الماء... , كانت ترتجف، بينما كانت عيناه تحدقان فيها كأنهما تنظران إلى شيء أبعد من طائر جريح.

هناك، فى أعماق ذاكرته، استيقظت صورة قديمة.

قبل سنوات، دخلت حمامة بيضاء بيتهم القديم فجأة.

بنت عشاً فى زاوية هادئة، ومكثت أسبوعاً كاملاً.

فى ذلك الوقت كانت ابنته أزهار مريضة.

وحين رحلت أزهار عن الدنيا، غادرت الحمامة البيضاء البيت فى اليوم

نفسه، دون أن تلتفت خلفها.

لم ينسَ المشهد قط.

لكنه لم يفكر فيه منذ زمن طويل.

أما الآن فقد عاد إليه دفعة واحدة.

وفي الغرفة المجاورة كانت حفيدته مها، ابنة أزهار، ترقد مريضة.

شعر محمد بشيء يضيق في صدره.

لم يعرف هل كان حزنًا على الحمامة الصغيرة، أم خوفًا على حفيدته، أم أن

الذاكرة قد فتحت بابًا قديمًا وأطلقت منه أشباحها دفعة واحدة.

ثم أدرك فجأة أن ما أخافه ليس الطائر.

ولا الدم.

ولا الذكرى.

بل ذلك العجز القديم الذي يرافق البشر منذ فجر وجودهم؛ عجزهم عن

معرفة ما إذا كانت الأحداث رسائل، أم مجرد أحداث.

فالإنسان لا يخشى الموت بقدر ما يخشى جهله بما سيأتي.

أما الحمامة، فلم تكن تعرف شيئاً عن النذر أو الشؤم أو المصائر البشرية .

كل ما أرادته أنها رأت باباً مفتوحاً فدخلت.

ورأت فضاءً واسعاً فحلّقت.

لكنها لم ترّ المروحة.

ظل ينظر إلى الطائر الجريح.

ثم تذكر فكرةً طالما راودته ولم يجد لها جواباً:

هل تأتي الكائنات إلينا مصادفة؟

أم أننا نحن الذين نلبس المصادفات وجوه أحبائنا الغائبين؟

كان عقله يقول إن الحمامة مجرد طائر أضاع طريقه.

لكن قلبه كان يفتش بين الريش المتناثر عن معنى آخر.

عن رسالة.

عن إشارة.

عن كلمة واحدة يهمس بها الغيب للقلق البشري.

غير أن الصمت كان أبلغ من كل الإجابات.

عندها بدت له الحمامة كرمزٍ للوجود نفسه.

دخلت تبحث عن مأوى، فوجدت جرحًا.

حلقت نحو فضاء ظنته آمنًا، فاصطدمت بما لم تكن تراه.

وفجأة فهم محمد سر حزنه.

لم يكن يخشى الحمامة.

ولا المروحة.

ولا حتى المرض.

بل كان يخشى الحقيقة التي يهرب منها الإنسان طوال عمره:

أن كثيراً من آلامه لا تأتي من العواصف التي يتوقعها، بل من الأشياء

المألوفة التي يطمئن إليها.

فالحمامة لم تسقط لأنها ضعيفة.

بل لأنها لم ترَ الخطر الكامن في المكان الذي حسبته ملاذاً.

وكذلك البشر.

كم مرة دخلوا بيوتاً وظنوها أوطاناً فجرحتهم؟

وكم مرة وثقوا بوجوهٍ حسبوها أماناً فكانت مراوح تدور فوق رؤوسهم

بصمت؟

رَبَّت محمد على الطائر الجريح، ثم رفع عينيه نحو السقف.

كانت المروحة تدور بلا اكتراث.

أما الحمامة فكانت تقاوم الحياة بما بقي فيها من نبض.

وفي تلك اللحظة شعر أن المشهد كله ليس سوى مرآة كبرى للوجود:

نحن أيضاً ندخل الحياة كما دخلت تلك الحمامة؛ نبحث عن دفءٍ أو معنى أو نجاة، ثم نصطدم بما لم نكن نراه... وبعد كل جرح، لا يبقى أمامنا إلا أن ننهض من الأرض، أو أن نتعلم متأخرين أن بعض العقبات لا تكمن في الطريق، بل في ما ظنناه ملاذًا.

ثم ربت على رأس الطائر الجريح.

وقال في نفسه:

"لعلنا جميعًا حماماتٌ أخطأت طرق السماء والأرض ، فدخلت بيوت الحياة... ؛ نحسب أن الجراح علامات على غضب القدر، بينما هي في كثير من الأحيان مجرد اصطداماتٍ بما لم نكن نراه."

ثم رفع بصره نحو السقف.

كانت المروحة ما تزال تدور، غير آبهةٍ بشيء.

كما يدور الزمن دائمًا...

بينما نحن منشغلون بالبحث عن معنى الريشة التي سقطت منه.

نعم , أحياناً لا تأتي الجراح من العواصف، بل من الأشياء التي تبدو مألوفة
وآمنة... ؛ فالطائر الذي نجا من فضاء السماء قد تعثر بدوران مروحة
صغيرة؛ وكأن الحياة تذكّرنا بأن بعض العقبات لا تكمن في الطريق، بل في
ما نظنه ملاذًا.



الجائعون (20)

حين بلغ سامر العشرين، كان يظن أن العالم كله مختصر في جسد امرأة.

لم يكن الأمر شهوة خالصة، كما كان يخبر نفسه كل ليلة، بل شيء أكثر تعقيداً وأشد قسوة.

كان يريد يداً تمسح على شعره حين يعود مهزوماً من يوم طويل.

كان يريد صوتاً أنثوياً يقول له:

— لا بأس... لقد تعبت كثيراً.

كان يريد أن يشعر بأنه مرئي.

كان وحيداً في غرفة ضيقة تتسع لسرير معدني وخزانة خشبية متشققة... ؛

يتناول خبزاً يابساً ويحتسي الشاي الرخيص، بينما يراقب عبر نافذة الغرفة

الفتيات العائدات من الجامعة، يمشين في ضوء المغيّب كأنهن يعرفن إلى أين

يمضين.

أما هو، فلم يكن يعرف.

كانت أجساد النساء تمر في حياته مثل وعد بعيد؛ رائحة عطر في حافلة
مزدحمة، ضحكة متقطعة في مقهى، خصلة شعر أفلتت من حجاب فتاة
عابرة.

وكان قلبه يركض خلف كل ذلك ككلب ضال.

قال له صديقه خالد ذات مساء:

— أنت لا تبحث عن امرأة يا سامر... أنت تبحث عن نجاة.

ضحك سامر وهو يشعل سيجارته الرخيصة.

— وما الفرق؟

أجابه:

— فرق كبير... المرأة إنسان، أما النجاة مؤقتة .

لم يفهم يومها.

كان الجوع أبلغ من الحكمة.

مرت السنوات .

عمل في كل شيء.

حملاً في المخازن.

موظفاً صغيراً في شركة لا تعرف أسماء موظفيها.

بائعاً للأحلام المؤجلة.

كان يجمع المال كما يجمع الناجون حطب الشتاء.

شيئاً فشيئاً، صار له راتب محترم، وقميص جيد، وساعة لامعة.

لكن ذلك الفتى الجائع ظل حياً داخله.

يجلس في العتمة.

ينتظر.

حين التقى ليلي، شعر أن السماء كافأته أخيراً.

كانت تضحك بعينيها قبل شفتيها.

تقول له:

— تبدو قوياً.

ولم يكن أحد قد قال له ذلك من قبل.

أمسكت يده في الشارع ذات مساء.

ارتجف.

ليس من الحب.

بل من الدهول.

أن يصبح هو، الذي نام سنوات إلى جوار وحدته، جديراً بيد امرأة.

بعد شهرين تزوجها.

لم يسأل كثيراً.

لم يسأل إن كانا يعرفان بعضهما حقاً.

لم يسأل ماذا تخاف.

ولا ماذا تحب.

ولا كيف تتشاجر.

ولا كيف تسامح.

كان يرى شيئاً واحداً فقط:

"لن أنام وحيداً بعد اليوم."

في السنة الأولى، اكتشف أن البيوت لا تُبنى بالرغبة وحدها.

ليلي أيضاً كانت جائعة.

لكن جوعها مختلف.

كانت تريد رجلاً يرمم شعورها القديم بالنقص.

كانت تريد من يقول لها إنها الأجمل.

الأهم.

الأكثر استحقاقاً.

كانت تريد حباً بلا حدود، بينما كان هو يريد طمأنينة بلا شروط.

كل منهما مدّ صحنه الفارغ نحو الآخر.

وقال بصمت:

أطعم جوعي.

في إحدى الليالي، بعد شجار طويل، قالت له وهي تبكي:

— أنت لا تحبني... أنت خائف فقط من أن تبقى وحيداً.

أجابها بعصبية:

— وأنتِ؟ ماذا عنك؟

صمتت.

ثم همست:

— وأنا أيضاً خائفة.

لأول مرة، رأى هشاشتها.

لم تكن ساحرة شريرة جاءت لتسلبه روحه.

كانت طفلة قديمة تختبئ داخل امرأة ناضجة.

طفلة تخشى أن تُترك.

كما كان يخشى هو.

مرّت أعوام أخرى.

ذبلت الرغبة الأولى.

هدأت العواصف.

لم يعد الشديان مركز الكون.

ولا الفراش خلاصاً نهائياً.

صار الحب شيئاً آخر.

فنجان شاي تعدّه له حين يمرض.

دواء تنسى أن تتناوله فيذكرها به.

رسالة قصيرة:

"قدت السيارة بحذر؟"

نوم متجاور.

صمت متفاهم.

ومشاجرات حول فواتير الكهرباء.

ثم مصالحة على طبق عدس ساخن.

اكتشف سامر متأخراً أن الجسد باب، لكنه ليس البيت كله.

وأن الرغبة نار تشعل البداية، لكنها لا تكفي لتدفئة الحياة.

في الخمسين، جلس وحيداً في شرفة منزله.

راقب ابنه الشاب محمد وهو يتألق للخروج.

ابتسم.

تذكر نفسه.

ذلك الذئب الهزيل الذي كان يركض خلف أي ابتسامة أنثوية، ظناً منه أن

امرأة واحدة تستطيع أن تنقذه من نفسه.

اقترب الابن منه وسأله:

— أبي... كيف يعرف الرجل أنه مستعد للحب؟

ظل صامتاً طويلاً.

ثم قال:

— حين يتوقف عن البحث عن أمٍّ داخل كل امرأة.

نظر إليه الابن باستغراب.

فأضاف:

— وحين لا يرى المرأة خبزاً لجوعه، ولا دواءً لوحده، ولا امرأة لرجولته... ؛

بل يراها إنساناً كاملاً، له خوفه ورغباته ونقصه وأحلامه.

سكت قليلاً، ثم ابتسم ابتسامة متعبة.

— أخطر ما في الجوع يا بني، أنه يقنعك بأن أول مائدة هي وليمة العمر.

رفع رأسه نحو السماء الرمادية.

وأدرك أخيراً أن الإنسان لا ينجو بالآخرين وحدهم.

وأن الحب ليس أن يجد نصفه الضائع.

بل أن يأتي كاملاً بما استطاع من شظاياه، ويجلس إلى جوار شظايا إنسان
آخر، ثم يحاولان معاً، بصبرٍ ورحمة، أن يصنعا من هذا النقص المشترك حياةً
أقل وحشة.

فالجائع لا يحتاج دائماً إلى امرأة.

أحياناً...

يحتاج أولاً إلى أن يتصالح مع الطفل الجائع الذي يسكن داخله .



الجائون

ضحكةٌ بلهاء في زمنِ حكمِ الهجناء (21)

كانت المدينة في ذلك الصباح ترتدي ثوب الحداد، لكنها - كعادتها - لم تتخلَّ عن هوايتها القديمة في صناعة الكوميديا من قلب المأساة.

فقد اقتصر وصول خبر استشهاد السيد محمد الصدر، في الساعات الأولى، على القلة القليلة من أتباعه ومقلديه ...

وما إن سمع راضي صوت الإطلاقات النارية وازيز الرصاص، ورأى الناس يركضون مذعورين، حتى سأل جاره الحاج مهدي:

— ماذا حدث؟

أجابه العجوز بصوت متهدج وعينين مغرورقتين بالدموع:

— استشهاد السيد محمد الصدر...

— استشهاد السيد محمد الصدر... ؛ الله أكبر على الظلمة .

لم ينتظر راضي كلمةً أخرى .. ؛ أغلق راضي دكانه بسرعة البرق، وقبض على يدي أخويه الصغيرين يجزّهما وراءه صوب جامع "المحسن" حيث تقام صلاة الجمعة في نهاية شارع الجوادر، مابين ساحتي "مظفر" و"55".

كانت الخطى حثيثة، والأخوان يلهثان خلفه كجروين خائفين... ؛ في الطريق، شهد راضي سريلية المشهد العراقي: جموع تندفع كالسيل العارم صوب الجامع بصدور عارية، وجموع أخرى تقهقرت مذعورة وولّت الأدبار هاربة باتجاه شارع الفلاح والجوادر، بعد أن اشتدت المواجهات المسلحة بين مدنيين عزل وعناصر الأجهزة القمعية وعتاة البعث والشرطة.

عند ساحة "55"، تجمدت ساقا راضي.. ؛ كان التقدم انتحاراً؛ فالطريق نحو جامع المحسن صار أشبه بفم بركان ؛ والرصاص ينهمر كال مطر، والدخان يملأ المكان، وأخواه يرتجفان... ؛ وصراخهما كبّلاً حركته...

قال في نفسه: البطولة والجهد وسأم شرف، لكن تحمّل مسؤولية أخوين صغيرين، وصونهما ورعايتهما، أشرف وأعظم...

ثم انحرف مسرعاً باتجاه "قطاع 10" ليلوذ ببيت أحد أقاربه...

وما إن دخل حتى رأى قريبه فيصل، الذي يسكن في قطاع ١٩ مثله.. ,

كان فيصل هناك، متصبياً بالعرق...

— فيصل، ما الذي جاء بك إلى بيت أبي غني؟

— كنت في جامع المحسن، وعندما أطلق البعثيون النار بكثافة، جئتُ إلى هنا.

— هل رآك أحد من البعثية؟

— لا، لم يشاهدني أحد.

وبينما هما كذلك، إذا بالصيحات تقترب من بيت أبي غني، وتتوقف

الجموع الثائرة أمام سيارة "البيك أب" التي تعود لأبي غني.. , أراد الثائرون

نقل أحد الجرحى في تلك السيارة إلى المستشفى، لكن أبا غني اختبأ في

الغرفة.

دخل عليه راضي مسرعاً:

— ما الذي تفعله؟ أصبت بالجنون؟ أنت حَبْل؟

— ماذا تريدني أن أفعل؟ الفرقة الحزبية أمام داري، وهم الآن يقتلون

ويعتقلون المصلين والمحتجين في جامع المحسن... ؛ لكن هذا لا يعني أن

قطاع ١٠ بلا رقيب، جواسيسهم في كل مكان... ؛ ما إن أنقل الجريح

أو أعطي السيارة حتى يأتي البعثيون ليزجوا بي في السجن...

قال فيصل:

— لا تخف منهم، خف من الله فقط.. ، هؤلاء الجرحى والقتلى مثواهم

الجنة.

— عمي، الجنة التي لا أصل إليها إلا عن طريق الإعدام لا أريدها.. ،

خذها أنت.. ، لا أريد جنة يطاردني بسببها عناصر الأمن ورفاق البعث.

قال فيصل بحماسة:

— خف من الله، لا من صدام والبعث .

أجاب أبو غني وهو يهز رأسه:

— المشكلة أن الناس يرفعون التقارير أسرع مما ترفع الملائكة الأعمال!

خرج راضي إلى الشارع محاولاً تدارك الموقف... ؛ كانت الجموع تموج
كتيارات صاخبة يمنة ويسرة.. ، تفرس في الوجوه؛ كانت مزيجاً غريباً لا
يجمعه سوى ذلك الطبع العراقي الأزلي: التجمهر في الملمات والمصائب
وكأنهم في نزهة عامة!

رأى "المطيرجي" و"القمرجي" يركضان جنباً إلى جنب مع المتدين والمصلي
والصدري العقائدي.. الصالح والطالح، البقال بجوار الشاعر.. ، العامل
بجوار العاطل.. ؛ كان الشارع لوحة عراقية خالصة.

والكل يصرخ بذات الحنجرة: "الله أكبر!".

ثم يختلفون بعد خمس دقائق على أولويات الهتاف...

صاح بهم راضي بقصد إنقاذ جاره: "شباب.. أبطال.. يا مجاهدون! والله
العظيم صاحب السيارة غير موجود، والمفاتيح بحوزته.. ولا حول ولا قوة إلا
بالله!"

اقتنع القوم بالخدعة وصدقوه ، وحملوا جريحهم وتابعوا ركضهم صوب شارع
الفلاح...

في العراق، أحياناً تكفي نبرة الصوت أكثر من الحقيقة...

لكن أحد المتجمهرين من أبناء الشوارع المستهترين ("الخوشية") التفت إلى
راضي قائلاً:

— وشرفي إذا كنت تكذب علينا، إلا أن أنكح أختك على صدرك؟!

شعر راضي بالذهول والارتياح؛ فرغم قسوة الكلمات، إلا أنه نجح في
إنقاذ قريبه وعائلته وسيارته من الهلاك المحتم... ؛ فضلاً عن ذلك، فإن أمه
لم تلد له أختاً أصلاً . . .

دخل البيت، فوجد فيصل ما زال يغزل نقاشه الديني اللاهوتي قائلاً:
"سيسقط صدام بدماء السيد الصدر والشهداء".

رد عليه أبو غني بتهكم مرير: "من (دبش) يسقط!"

لو ينزل الله بعظمته ما يسقط هذا النظام؟!

ترك راضي هذه النقاشات العتيقة التي لا تجدي نفعاً، ولا تغيّر شيئاً من الواقع.. , و أخذ أخويه ومشى بهما من قطاع ١٠ إلى قطاع ١٩ .. , وبينما هو يمشي، صدمه مشهد آخر من مشاهد العبث الوجودي: مجموعة من الشباب كانوا يلعبون كرة القدم في الساحة الترابية في قطاع 15 ، وكأنهم يعيشون في كوكب آخر معزول عن بركان المدينة...

كانت البلاد كلها تغلي...؛ أما المباراة فكانت بالنسبة إليهم نهائي كأس العالم...!!

وسمعهم:

— علي، سدّ الرمية جيداً.

— لا تخف، سوف نفوز على فريق قطاع ٢٥.

— أُخْ (الكحبة) دائماً تقول نفوز، ثم نخسر فيما بعد.

— (العن أبوك والعن أبو الطوبة... قندرة عتيكة على فريقنا وعلى فريق

قطاع ٢٥ ويانه) .

ولم تكذ الشتيمة تنتهي حتى تشابك اللاعبين : عليّ مع صديقه حامد ،
ثم تحول الأمر إلى معركة شوارعية طاحنة بين الفريقين ؛ لكلمات وركلات
وأحذية تتطاير من كل حدب وصوب، وعلا الصراخ والسباب... حين
سمع "بعثيو" القطاع هذه الضوضاء والجلجلة، ظنوا أن انتفاضة مسلحة قد
اندلعت ضد النظام في القطاع، فأقبلوا يهرولون مدججين بالسلاح...

وما إن رأى المتشابكون عناصر الحزب مقبلين بينادقهم، حتى تفرقوا في
لحظة وولوا الأدبار هارين، تاركين كرة القدم وحيدة وسط الساحة الترابية..
؛ كانت الكرة تقف هناك كشاهد أخرس على مهزلة الوجود والاجتماع
البشري في هذه البلاد البائسة...

انحرف راضي عن مسار البعثيين حتى وصل إلى بيته مكدوداً... ؛ لم تمر
دقائق حتى دخل عليه صديقه "سيد علي" لاهثاً ومتحمساً: "راضي، يجب
أن لا نسكت بعد الآن!"

— "وماذا نفعل يا سيد؟"

— "نوزع منشورات ضد الطاغية ونظامه!"

أجابه راضي بيأس: "يا سيد علي، لا أعتقد أن هذا النظام الدموي سيهتز
بورقة منشور..."

يا سيد ... ؛ المنشورات لا تخيف الأنظمة الدكتاتورية والاجرامية ... ؛
لكنها تمنح أصحابها رحلة مجانية إلى المعتقل أو مقصلة الاعدام .
ثم انطلقا معاً إلى جارهـما "باسم" .

رغم بؤس المدينة المتهالكة وأسمال الفقر التي يرتديها الناس، كان "باسم"
دائم الابتسامة، ضاحك الأسنان، فكان يبتسم ابتسامةً ثابتة حتى ظن
الناس أن عضلات وجهه نسيت كيف تحزن... ولو قيل له إن القيامة
ستقوم بعد ساعة، لأجاب وهو يضحك: "إن شاء الله تقوم بعد الغداء
...؛ وكأنه يعيش في مسرحية كوميدية لا يسدل ستارها أبداً.. , كان
يواجه عبث الواقع بعث المضغ والضحك.

ما إن طرقا الباب حتى خرج إليهما بجثته الضخمة، حاملاً بين يديه صحناً كبيراً مليئاً بـ "التشريب" واللحم، ويداه ملطختان بالمرق الأحمر الطازج، وهو يقهقه: "أهلاً بكما! تفضلاً.. الطعام ما زال ساخناً!"

تطلع إليه سيد علي بتقزز وقال: "باسم.. أنت بشر بلا مشاعر؟!"

عقد باسم حاجبيه بدهشة: "لماذا يا سيد؟ ماذا دهاك اليوم متغيراً علي؟"

— "السيد الصدر اغتيل ومات!"

أخذ باسم قضمته وقال ببرود: "إلى رحمة الله.. الموت حق. أبي وأبوك ماتا، وجددي وجدك ماتا.. هذه سنة الحياة".

استشاط سيد علي غضباً وصرخ: "أي سنة حياة؟! تباً لهذه السنة! أقول

لك الطاغية صدام قتل الصدر، وتقول لي الموت حق؟!"

تراجع باسم خطوة وقال متهمكماً: "عمي أنا آسف، أنا مخطئ.. الموت

ليس حقاً!"

تباً للحق وتباً للباطل!

ما بالك تنفجر في وجهي وكأنني أنا من أطلقت النار على السيد الصدر

!؟

شتان بيني وبين القتلة البعثية .

قال سيد علي بنبرة مقاطعة حاسمة: "الظاهر أنك لا تستحي.. ؛ من الآن

لا أعرفك ولا تعرفني!"

رد باسم وهو يعود لصحنه الشهوي : "طرز فيك!

خفة وراحة.. ؛ وكأن الهواء والماء سينقطعان عني إن لم أرك!

إلى الجحيم وبئس المصير".

أراد راضي الهروب من هذه الأجواء المشحونة بالانقسامات والشجار ،

فتوجه إلى منزل صديقه "طالب"... ؛ طرق الباب، فخرجت والدته العجوز

"أم طالب" بوجهها البشوش: "أهلاً بك يا راضي، تفضل.. لقد جلبت

لك ولطالب اليوم رماناً حلواً".

— والنعم منك يا خالة.

سلم على طالب وجلسا معا .

بمجرد أن استقر بهما المجلس، التفت طالب إلى راضي وقال بملامح جادة
للغاية:

"راضي.. منذ الصباح وحتى هذه اللحظة، رغبتى الجنسية مستعرة بشكل لا
يطاق!

كان قضيتي منتصباً كخشبةٍ تأبى الانكسار ...

أنا بحاجة إلى النكاح الآن أكثر من أي وقت مضى... ؛ لو رأيت حمراً
في طريقي لجامعته! لقد سئمت الكبت والاستمناء.. , بلغت الحادية
والعشرين ولم أتزوج بعد!"

نظر إليه راضي بذهول وصرخ: "يا طالب!

الناس في الخارج في هرج ومرج، والبلاد تغلي بسبب استشهاد السيد
الصدر، وأنت كل همك وشغلك الشاغل هو الجنس؟!"

أجابه طالب ببرود فلسفي وعينين غائرتين: "يا راضي.. , كل منا ييكي على ليلاه، ولكل امرئ ما يشغله من كبت وحرمان".

قال راضي ممتعضاً: "أعلم ذلك.. ولكن ألا يهتمك أمر الدين والبلد؟!"

هز طالب رأسه، وتناول رمانة وفلقها نصفين وهو يقول: "بلى يهمني..

ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟

أقول كما قال عبد المطلب ل أبرهة الحبشي: للبيت ربٌ يحميه!".

ثم تنهد طالب وقال:

— الناس لكل واحد منهم همٌّ يحمله فوق كتفيه... بعضهم يحمل همَّ

الوطن، وبعضهم يحمل همَّ المستقبل، وبعضهم لا يفكر إلا في الزواج الذي

تأخر... ؛ وبعضهم لا تشغله قضية، ولا يؤرقه شأن، سوى القضيبي

المنتصب والشبق الجنسي...

ضحك راضي رغم كل شيء...!!

ثم قال:

— غريب أمر العراقي...

إذا نزلت عليه المصيبة، أقام لها مجلسًا.

وإذا طال المجلس... بدأ يروي النكات.

نظر طالب من النافذة.

كان دخان الاطارات المحترقة لا يزال يتصاعد من بعيد.

أما أصوات الأطفال، فقد عادت تملأ الأزقة.

عندها أدرك راضي أن هذه البلاد تملك معجزة لا توجد في أي مكان

آخر...

كلما اقتربت من البكاء...

وجدت من يضحكك.

وكلما ضحكت...

تذكرت أن سبب الضحك، في الحقيقة، كان مأساة...!!

ولعل قائل «شَرِّ البلية ما يضحك» لم يكن إلا عراقياً؛ فما من أمةٍ اجتمع

عليها من المفارقات ما اجتمع على العراق ...



ضحكةٌ بلهاء في زمن حكم الهجناء

صرخة محمد... وسقوطنا جميعاً (22)

1- بيت الندم: غرفة لا تنام

لم يكن البيت بيتاً بالمعنى الذي يُطمئن اليه وفيه .

كان أشبه ببقايا مدينةٍ داخل صندوق رماد: جدران رمادية متآكلة بالرطوبة، وساعة معلقة توقفت عند لحظة الانفجار الأولى، وكأن الزمن نفسه اختار أن ينسحب احتجاجاً.

في الداخل، كان صادق يجلس على أريكة ممزقة، يثبت شقوقها بشريط لاصق شفاف، كما لو أنه يحاول إقناع الماضي بأن يظل متماسكاً... , إلى جانبه، كان حسين يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، بعينين لا تستقران، كمن يبحث عن شيء لا يعترف حتى لنفسه أنه ضاع إلى الأبد.

قال صادق بصوت منخفض، أقرب إلى الاعتراف منه إلى السؤال:

— تتذكر محمد؟

توقف حسين لحظة، ثم ابتسم ابتسامة لا تشبه الفرح:

— أتذكره؟ نحن لم نتوقف عن دفنه منذ مات.. , كل يوم نعيد موته
بطريقة جديدة.

صديق:

— كان يحلم بدولة لا يُعتقل فيها الفقير لأنه فقير، ولا يُهان فيها الناس
عند الحواجز.

ضحك حسين بمرارة:

— كان يحلم... نحن لم نكن نحلم.. , كنا نؤجل موتنا فقط.. , بعضنا
صار شهيداً، وبعضنا صار جلاداً، وبعضنا ظل عالقاً بين الاثنين.
صمت قصير.

ثم أضاف حسين، كأنه يضغط على جرح قديم:

— المشكلة ليست في النظام الذي سقط... المشكلة أننا نحن من سقط
قبله، وسقطنا بلا مقاومة.

2- محمد: فكرة أُعدمت مرتين

كانت صورته معلقة على الجدار.. , وجه شاب لا ينظر إلى أحد تحديداً،
كأنه يحدّق في شيء أبعد من الغرفة، أبعد من المدينة، أبعد من الزمن كله.
محمد لم يكن حزبياً.. , لم يكن واعظاً.. , لم يكن مشروعاً سياسياً.
كان خطأً في حسابات الجميع: إنساناً في مكان يُعاقب فيه الإنسان على
وضوحه.

خرج ذات مساء من مسجد صغير، لا ليهتف باسم أحد، بل ليقول
ببساطة إن الظلم لم يعد يُحتمل.. , كانت كلماته قصيرة، لكنها كانت
كافية لتُشعل ما لا يُطفأ.

لم يقتلوه لأنه خطير.

قتلوه لأنه كان واضحاً أكثر مما ينبغي.

أبو جعفر، الذي كان يجلس في الزاوية، قال وهو يشعل سيجارة:

— في هذا البلد، لا يُقتل الإنسان لأنه مخطئ... بل لأنه يصّر على أن

يكون صحيحاً في زمن فاسد.

3- ما بعد السقوط: الدولة التي تغيّر أقمعتها فقط

سقط النظام.

لكن شيئاً لم يسقط معه.

تبدلت الأسماء، لا البنية.. , تغيّرت الشعارات، لا الآليات.. , خرجت

العمائم إلى الشاشات، وتحولت السجون إلى “مراكز عدالة”، وصار

القاتل يتحدث عن الضحية بلغة الوعظ.

المدينة لم تعد مدينة.. أصبحت ساحة لتوزيع الغنائم باسم المبادئ.

قال صادق، وهو يحاول أن يبدو عملياً:

— السياسة لا تنتظر أحداً.. , علينا أن نأخذ موقعنا، قبل أن يأخذه
غيرنا.

التفت إليه حسين بعنف مفاجئ:

— موقع؟! أي موقع؟ فوق جثة محمد؟ أم فوق ذاكرة الذين لم يعودوا
يجرؤون على الكلام؟
اقترب منه أكثر:

— كل مرة نقول “نشارك”، نكتشف أننا يعاد إنتاجنا كنسخة أخرى
من نفس الجريمة.. , فقط نغيّر اللغة.

4- ساحة الضجيج: وطن يتكلم بألف لسان ولا يقول شيئاً

خرجوا إلى الساحة.

كانت المدينة تصرخ من كل جهة، لكن الصراخ لم يكن واحداً:

“الموت للطغاة!”

“المقاومة حق!”

“الفدرالية خيانة!”

“الوحدة المقدسة!”

“نحن الأصل!”

“نحن الأكثرية!”

“نحن المظلومية!”

لنا الحكم ولكم اللطم ... الخ .

لكن وسط كل هذا الضجيج، لم تكن هناك جملة واحدة تقول: نحن بشر..

نحن عراقيون .. نحن مواطنون .

توقف أبو جعفر عند الحافة، وقال بهدوء يشبه السخرية:

— هذه ليست ثورة... هذه أرشيف هويةٍ فقدت قدرتها على أن تكون

واحدة.

وأضاف:

— كل مجموعة هنا لا ترى الأخرى... لكنها جميعاً تطلب من الدولة أن تراها وحدها.

5- قبر محمد: المكان الوحيد الذي لا يكذب

المقبرة كانت أبسط من كل شيء... , صامته بشكل يفضح المدينة.

قبر صغير، لا اسم بارز عليه.. , شجرة توت نمت بجانبه كأنها تعوّض ما لا يمكن قوله.. , طيور تقف ثم تغادر دون ضجيج.

انحنى حسين، ووضع يده على التراب:

— يا محمد... لم نقتلك مرة واحدة.. , نحن قتلناك كلما صنفنا لقاتل، وكلما صممتنا عن الحقيقة، وكلما بعنا الحلم مقابل نجاة فردية.

صاّدق، بصوت مكسور:

— لو عدت... هل كنت ستبدأ من جديد؟

أبو جعفر أجاب قبل أن يكتمل السؤال:

— الشهداء لا يعودون ليعيدوا التجربة... يعودون فقط ليكشفوا أن كل

ما بعدهم كان خطأ مستمراً.

6- النهاية: لا شيء انتهى

في اليوم التالي، ظهر وجه جديد على الشاشة.

يتحدث بلغة مطمئنة: عن الإصلاح، عن الدولة، عن الشعب، عن

الكرامة، عن الدين، عن المستقبل.

كان كل شيء مألوفاً.

ضحك حسين بصوت خافت:

— نفس البداية... نفس النهاية... فقط تبدّل الممثل.

ثم أضاف:

— نحن لا نتعلم.. , نحن نبذل الطغاة كما نبذل القمصان.

صمت لحظة، ثم قال جملة كأنها خلاصة العمر:

— محمد لم يميت في الشارع... مات فينا.. , ثم بقينا نحن أحياء لنكمل

موته كل يوم.

خاتمة داخل النص

وفي مكان ما، حيث لا تصل الكاميرات ولا البلاغات، بقي اسم محمد

يتكرر في الضمير كجرس إنذار لا أحد يريد أن يصحو عليه.

ليس لأنه شهيد فقط...

بل لأنه الحقيقة الوحيدة التي لم تُهزم بعد.



سعدية في قبضة العتمة (23)

في تلك الحقبة الرمادية من منتصف ثمانينيات القرن المنصرم، كانت مدينة
الثورة تغرق في ليل كثيف يشبه ذاكرة مثقلة بالحرب.. , حيث كان الموت
هو الحقيقة الوحيدة التي لا تحتاج إلى برهان ...

تحولت أزقة "مدينة الثورة" ليلاً إلى برزخ معلق بين الوجود والعدم.. ,
الشوارع لم تكن خالية من البشر فحسب، بل كانت خالية من "الزمن"
نفسه؛ لا يقطع صمتها إلا صدى خطوات متباعدة أو نباح كلب ضائع،
وكأن المدينة كلها قد انكمشت على نفسها خوفاً وانتظاراً...

كان الرجال والشباب قد غادروا إلى الجبهات، حيث الحرب تلتهم الأعمار
بلا تمييز، وتعيد تشكيل معنى الحياة والموت في آن واحد... ؛ إذ سحب
الرجال إلى أتون حرب التهمت الأعمار فرادى وزرافات، فصارت المدينة
جسداً بلا ظل، تحرسه أمهات ثكالى وشيوخ ينتظرون ساعي البريد
بوجل...

بقيت البيوت مكتظة بالنساء والأطفال والعجائز، كأنها جزر صغيرة في
محيط من الغياب، لا تخرج منها الأرواح إلا للضرورة القاهرة، أو في
مناسبات اجتماعية عابرة سرعان ما تنفض عن نفسها غبار الفرح المزيف.

في تلك الليالي التي كانت تتساقط فيها أرواح الرجال كأوراق الخريف على
جبهات الحروب العبيثة، كانت أزقة مدينة الثورة تغرق في صمت كثيف،

صمت لا يشبه السكينة، بل يشبه ذاك الفراغ المخيف الذي يتركه الموت خلفه حين يمضي بالاحباب دفعة واحدة إلى العدم.

في الجبهات ، كان الرجال والشبان يقاتلون في معركة الوكالة عن الآخرين "قادسية صدام"، يموتون بالجملة ، لا نصر يحققون ولا وطنًا يحمون، بل نيابة عن أطماع ومخاوف خارجية لا تبقي ولا تذر... ؛ أما هنا، في الداخل، فقد تحولت البيوت إلى مقابر صغيرة للأحياء، يلتحف فيها النساء والأطفال والشيوخ بالخوف والقلق والوجل ...

في زاوية من ذلك العالم المفرغ، كان نور، ذاك الغلام الصغير ...

كان الفتى "نور" - وقد سمته أمه بهذا الاسم تيمنا بضوء لعله يثقب عتمة الروح - لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، غير أن الحياة التي لفظته في مهب الريح جعلته يبلغ من الحنكة ما يفوق أضعاف سنه ...؛ كانتا عيناه مثقلتين بعمر لم يعيشه، كأنهما ورثتا ذاكرة أقدم من جسده.

كان يتردد على قريته "الحاجة صبرية"، تلك العجوز التي كانت تستدعيه
يومياً؛ والتي نذرت وقتها لتعليم القرآن، تطلب من نور أن يقرأ عليها
ويعينها على الحفظ، وكأن الحروف وحدها كانت قادرة على ترميم ما تهشم
من العالم.

"الحاجة صبرية"، تلك المرأة التي لم تكن تملك في آخر أيامها سوى رغبة
ملحة في فك طلاس الكتاب المقدس، كأنها تبحث عن معنى أضاعته
خطى عمر تقاذفته المآسي.

وفي ليلة كاحلة، انقطع فيها التيار الكهربائي ليترك المدينة تحت رحمة
فوانيس النفط الشاحبة، خرجت "سعدية" (٣٥ عاماً) تبحث عن جرعة
دواء لطفلتها التي ينهشها السعال... ؛ كان عليها المرور بـ "شارع
الداخل" المحاذي لبناية نادي الفارس العربي - ذلك المعقل الذي كان
يضم بعثتي المدينة القساة - ؛ حيث تفوح من الغرف العفלקية رائحة
الخوف والتعذيب والاغتراب .. ؛ ومقابل الجدار الأيمن، رصت نفسها

سلسلة من محلات مهجورة، أبوابها مؤصدة كأفواه نسيت الكلام، بعد أن تركها أصحابها وذهبوا إلى الحرب.

كانت تحمل على كتفها ثقل عميرين: عمر عاشته، وآخر لم يعيش بعد...
؛ خرجت قبل الغروب بنص ساعة ، مع طفلتها الرضيعة المريضة بحثا عن
دواء ...

وما إن خطت سعدية في ذلك الممر الذي يفصل بين بناية نادي الفارس
العربي والمحلات المهجورة حتى شعرت بأن الهواء تغير، وأن المكان فقد
انتظامه المؤلف... ؛ لم تر شيئا واضحا، لكن إحساسا غريبا اجتاحتها،
كأن الزمن انكسر لثوان ثم عاد مختلفا...

انشق جيب الظلام، وارتطم بها "شيء" لم تعرف له كنها، كان أسرع من
الضوء، وأخفى من الروح... ؛ لم يكن ارتطاما جسديا، بل كان اقتحاماً
للذات، خرقا لحواجز الوعي، ففقدت صوابها في لحظة، كأن الزمن توقف
في شريانها...

نعم , عند نقطة التلاشي بين جدار بناية الحزب وبقايا المحلات -

الدكاكين - المهجورة، حدث الشرخ الميتافيزيقي.

لم يكن شيئاً مادياً ما هبط عليها، بل كان "تكتفاً طاقياً سلبياً ظلامياً" لكل العذابات والآلام المحبوسة في ذلك المكان وتلك المدينة المنكوبة... ؛ ففي لحظة خاطفة، اخترقت وعيها صدمة باراسايكولوجية عنيفة؛ شحنة من الوعي الجمعي الوعر لضحايا الحرب وقتلى النظام ؛ انمحت الأنا الفردية لـ "سعدية"، وتلبس جسدها "الوعي الكوني المعذب".

لم يكن ذلك اعتداءً جسدياً، بل كان اختراقاً ميتافيزيقياً للكيان، كأن روحاً هائمة من أرواح الضحايا الذين سحقوا هنالك قد التصقت بروحها الحية طلباً للشهادة...

فقدت سعدية صوابها في الحال، وبدأ لسانها يلفظ كلمات غريبة بلغة سريانية قديمة لم تعرفها في حياتها الواعية، وترددت على شفثيها الجافتين أسماء ملوك الجن وأرواح العالم السفلي في ترتيب رهيب ... ؛ كأنها تستدعي ملوك الجان، أو تستعيد صرخات أمم رافدينية غابرة... ؛

ومضت في سيرها، لا بإرادتها، بل كأن قوة غيبية عاتية تسوقها سوقا نحو دارها...

تابعت طريقها مسرعة، لا تعرف إن كانت تهرب من شيء أم تقاد إلى شيء لا اسم له.

في تلك اللحظة، لم تكن سعيدة سوى مرآة لوعي مدينة كاملة. فالجني الذي اقتحمها لم يكن سوى "الآخر" المكبوت في لا واعي الجمع؛ ذلك الخوف الأزلي من العدوان، ومن جدار البعث القاسي، ومن الغياب الذكوري الذي حول النساء إلى أوعية للرعب والفقد والحسرة والخوف والجفاف العاطفي ... ؛ إن غيبوبتها ليست نسيانا، بل هي حجاب رحيم وضعته النفس لتحمي نفسها من رؤية حقيقتها: أنها كانت تسكن جسدا استعارته أرواح الغائبين والقتلى والمعذبين .

كان "نور" منهمكا في تعليم الحاجة صبرية آيات القرآن ، اذ كان يرتل آيات السكينة، وصوت الحاجة صبرية يتلثم خلفه كظل خجل ... ؛ غير عالم بأن العتمة نفسها كانت تتسلل إليهما من ثغر لا يرى...

وبينما كانا على تلك الحال، إذا بسعدية تدخل الغرفة على عجل، يلهث
القلق في عينيها قبل أن تنطق بكلمة ...

كانت ترتجف.. , دفعت طفلتها نحو الحاجة صبرية فجأة، ثم سقطت هي
على الفراش، وكأن خيوط الجسد قد انقطعت دفعة واحدة...

وجسدها يهتز على إيقاع لغة مجهولة، ليست لغة البشر اليومية، بل ترانيم
آرامية وسريانية قديمة ؛ لغة الأرض الأولى حين كانت تصرخ من وطأة أول
قطرة دم سفكت عليها...

بدأت تتلوى كأفعى مذعورة وتئن، وتغيب وتعود، وعيناها تحدقان في
سقف لا تراه، وشفاهها تتمتم بكلمات غير مفهومة، كأن لغة أخرى
تحاول أن تتكلم عبرها...

ثم صرخت صرخة مزقت حيز المكان.. ؛ وجحظت عيناها حتى كادت
تخرجان من محجريهما، وازرق لسانها كلون السماء في أعماق لحظات
الشتاء، وجفت شفاتها المتشققتان حتى صارتا كقطعتي خشب...

ارتبكت عمتها الحاجة صبرية ، لكن الفتى "نور" أدرك بحسه الروحي أن
"سعدية" ليست ممسوسة بشيطان، بل هي "ممسوسة بالحقيقة"؛ لقد انفتح
بصيرتها فجأة على ألم الوجود الإنساني في أسمى وأقسى تجلياته الميتافيزيقية..
، تداخلت طاقة المكان المرعبة مع روحها الشفافة.

اقترب نور ، ولم يقرأ القرآن بنية طرد "الآخر"، بل قرأه بنية "السلام
والسكينة" للروح المعذبة.. ، لكن الصوت القرآني، بدل أن يسكنها، كان
كالنار تزيد الجلد التهابا؛ فازدادت صراخا، وكأن النور يحرق ما في داخلها
من ظلمات قديمة.

ثم وضع يده على جبهتها وبدأ يرتل: ((يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي
إلى ربك راضية مرضية)).. ، كان صوته بمثابة جسر طاقي يعيد وعيها
الشارد من أبعاد الكون السحيقة إلى سجن الجسد الأرضي.

أحضرت الحاجة صبرية ماء منقوعا بـ "الورد والقرنفل"، ورشته على
وجهها... ، تحول صراخ سعدية إلى نشيج روحي طويل، كأنها تبكي
نيابة عن كل الأرامل والموتى في الجبهات والمعتقلات الصدامية .. ، وما

إن شربت قطرات من الماء، حتى حدث "التفريغ الطاقى" الكامل.. ,
سقطت كقطعة قماش بيضاء في نوم مغناطيسي عميق.

نور : هو الراعى الصغير الذى يحمل شعلة الروح فى عصر انقطاع الوحي
واضمحلال الطاقات الايجابية وشيوع الطاقات الظلامية والشيطانية والبعثية
المقننة ؛ يحاول أن يزود الجسد المفقوع بلغة السماء، غير عالم أن بعض
الجراح لا تداوى بالآيات، بل بالعودة إلى جذر الألم فى الميثولوجيا القديمة..
، واللغة السريانية التى نطقت بها ليست لغة جن، بل هى صدى أمة
مدفونة تحت رمال الحرب والقهر الصدامي ، تستعيد حقها فى الكلام عبر
جسد امرأة ضعيفة، فى تجل ميتافيزيقي يثبت أن الأرواح لا تموت، بل
تنتقل إلى حوامل جديدة حين تضيق بها الأرض.

فى الفجر، حين تسلل الضوء الأول إلى النوافذ، فتحت عينيها.. , كانت
المدينة كما هى، لكن شيئاً فيها قد تغير.. , نظرت حولها بصمت طويل،
ثم سألت بصوت خافت عن سبب وجودها فى غرفة عمتهما الحاجة صبرية
، وكأن الذاكرة نفسها قد أغلقت بإحكام...

لم تتذكر شيئاً... , لا الزقاق، لا الصيدلية، لا اللغة السريانية، ولا ملوك
الجن.. , كان عقلها قد محا الحلقة بأكملها، كأن نافذة الروح قد أغلقت
على مشهد لا يحتمل التذكر.

ولا أحد في الغرفة كان قادراً على الجزم بما حدث حقاً:
أكان خوفاً؟ أم انخياراً نفسياً؟ أم أن للمكان نفسه ذاكرة خفية تلتهم من
يمر به؟

بقي السؤال معلقاً في الزقاق، مثل ظل لا يزول...
ومثل مدينة تعيش بين الواقع والغياب، لا تدري إن كانت تشفى... أم
تتذكر فقط..

ثم رفعت رأسها إلى الحاجة صبرية ورحيم، وسألت بصوت طفلي بريء،
خال من أي أثر لليلة الماضية:

— ماذا جرى؟ لماذا أنا هنا؟

سؤال سعدية البريء في الصباح: "ماذا جرى؟" هو سؤال الإنسان الأبدى
عن معنى الآلام...

إن الغيبوبة هي استجابة وجودية للا معنى؛ فقد أثر العقل العدم على
معرفة شر الحقيقة، كأن الذاكرة نفسها كانت تحتاج إلى رقية من الفزع
الذي لا يحتمل.

في تلك الليلة، لم يكن الجني قد اقتحم سعدية، بل اقتحمت سعدية حائط
الواقع، فرأت ما وراء الجدار من كائنات تكون مصير البشر...

أما "نور"، فقد خرج من تلك الليلة بشيء قد فقد منه إلى الأبد، وشيء
آخر قد ولد في أعماقه... ؛ لقد فقد براءة الاعتقاد بأن العالم يسير بمنطق
مفهوم، ولكنه ولد من جديد بوعي مرعب أن الحروب والهموم والنكبات
والصراعات والمصائب لا تنتهي بإعلان السلام أو برفع الشعارات ، بل
تستمر في التسلل إلى أرواح الناس، وفي الأزقة المعتمة، وفي ذاكرة الجدران.
وأن الكتاب المقدس، الذي كان يحمله ليعلمه للحاجة صبرية ، لم يكن

يحمل إلا النور، لكن العتمة كانت خارجه، في قلوب الناس، وفي تاريخ
المكان المنحوت بالدم والقهر والدموع .



خالة انا دخيلة (24)

لم تتذكر فاطمة وجه أمها جيداً.

كل ما بقي في ذاكرتها عن المرأة الراحلة: رائحة حليب دافئ، ويد باردة
كانت تمسح صدرها حين تشتد نوبات الربو، وصوت خافت يقرأ آية
الكرسي قبل النوم.

بعد ذلك اختفى كل شيء.

ماتت الأم، ثم لحق بها الأب بعد عامين، كأن البيت كان يقوم على رئتین
متعبتين، وما إن توقفتا حتى انهار السقف فوق الجميع.

في مساء دفن الأب، جلست أشواق قرب النافذة المكسورة في البيت
المستأجر، تحديق في الظلام الذي يغطي الأزقة الطينية.

كان محمد، أخوها غير الشقيق، يبكي بصمت.

أما فاطمة، ذات الأعوام السبعة، فكانت تراقب النعش وهو يبتعد بعينين

واسعتين، كأنها لم تفهم بعد معنى أن يختفي الإنسان إلى الأبد.

قال محمد بصوت مرتجف:

— شنسوي هسه؟

لم تجبه أشواق.

كانت تشعر أن المدينة كلها تنظر إليهم كجيفة تُركت على قارعة الطريق.

بعد أربعين يومًا فقط، طردهم صاحب البيت.

وقف الرجل عند الباب وهو يتجنب النظر إلى وجوههم.

قال باعتذار بارد:

— والله مو بإيدي... إذا ما تدفعون الإيجار أطلعكم.

في تلك الليلة، حملوا أكياس الملابس، وبعض الأغطية القديمة، وصورة
للأب وهو يتسم ابتسامة باهتة.

استأجروا شقة صغيرة في عمارة إسمنتية متآكلة عند أطراف المدينة.

كانت المنطقة تشبه مقبرة عملاقة للأحياء.

كل شيء هناك مريض:

الجدران.

الأرصفة.

الأطفال.

حتى الهواء.

ومنذ الأيام الأولى بدأ محمد يبيع قناني الماء في التقاطعات.

تغيرت ملامحه بسرعة مخيفة.

الأطفال الفقراء يكبرون بطريقة بشعة.

يكبرون دفعة واحدة.

كأن الزمن يركلهم بأحذيته الثقيلة نحو الشيخوخة.

أما فاطمة فكانت أكثرهم هشاشة.

جسد نحيل، أصابع دقيقة كأغصان محترقة، شحوب دائم، وسعال يوقظها ليلاً.

كانت تشعر دائماً بأنها دخيلة على الحياة نفسها.

حتى أبوها لم يفرح بها كثيراً حين وُلدت.

كان يريد ولداً.

أي ولد.

قبيحاً، أعرج، معاقاً... لا يهم.

المهم أن يكون ذكراً.

وكانت تدرك هذا، رغم صغرها.

فالأطفال يفهمون القسوة قبل اللغة.

في البداية حاولت أشواق المقاومة.

اشتغلت في تنظيف البيوت.

غسل الصحون.

كنس الأرضيات.

لكنها كانت تعود كل ليلة منهكة، ويدها ترتجفان من التعب.

وذات مساء، طرقت بابهم امرأة ممتلئة ترتدي عباءة سوداء ضيقة وتفوح

منها رائحة عطر ثقيل.

كانت أم ميادة.

دخلت وهي تحمل صحن رز ولحم.

قالت:

— الجوع كافر يا بنتي.

ثم نظرت طويلاً إلى وجه أشواق.

إلى رقبتها البيضاء.

إلى شعرها الأسود الطويل.

إلى امتلاء جسدها.

شيء ما لمع في عينيها.

شيء يشبه الجوع أيضاً.

لكن جوعاً من نوع آخر.

تكررت الزيارات.

مرة تحمل طعاماً.

مرة عطراً.

مرة ملابس.

ومرة كلمات حنونة.

وكانت أشواق، التي لم تسمع كلمة طيبة منذ موت أبيها، تتعلق بها شيئًا فشيئًا.

الفقراء لا يسقطون دفعة واحدة.

إنهم ينزلقون ببطء.

ببطء شديد.

مثل شخص يغرق في مستنقع، ويظن في البداية أن الطين لن يصل إلى صدره.

أخذتها أم ميادة إلى صالون تجميل تديره امرأة اسمها شهد.

كانت شهد تضحك كثيرًا.

وتتكلم بثقة تشبه ثقة القوادين ورجال السياسة.

في الصالون عالم آخر:

نساء يضحكن بصوت عالٍ.

هواتف لا تتوقف.

روائح صبغات.

أغنيات هابطة.

ورجال يأتون بسيارات فارهة ثم يختفون.

في البداية، كانت أشواق تخاف من الجميع.

تخفض رأسها.

وترتب أدوات المكياج بصمت.

لكن شهد كانت تعرف جيداً كيف تُروّض الخوف.

قالت لها يوماً:

— البشر مو نوعين: شرفاء وفاسدين... البشر نوعين: ناس عندها فلوس

وناس ما عندها.

ظلت الجملة عالقة في رأس أشواق أياماً طويلة.

كانت تقاومها، ثم تعود لتفكر فيها مجددًا.

الفقر يجعل الأفكار السامة تبدو منطقية.

حين ظهر نزار، كانت أشواق قد تعبت من المقاومة.

جاء بسيارة حديثة.

ساعة لامعة.

ابتسامة هادئة.

وصوت منخفض يشبه أصوات الممثلين في المسلسلات الرومانسية.

لم يلمسها في البداية.

وهذا ما أسقطها.

الرجال الذين يريدون أجساد النساء فقط، غالبًا يبدأون بالعاطفة .

كان يصغي لها طويلاً.

يسألها عن طفولتها.

عن أمها.

عن خوفها.

عن أحلامها الصغيرة.

ولأول مرة منذ سنوات، شعرت أشواق أن أحدًا يراها حقًا.

لا كأنتى.

بل كإنسان.

قال لها ذات ليلة:

— أنتِ تستحقين حياة أحسن من هالجحيم.

فبكت.

بكت بطريقة أخافت نفسها.

كانت تبكي كطفلة ضائعة عثرت فجأة على بيت.

في اليوم الذي أخذها فيه إلى المنزل الفخم، كانت ترتدي فستاناً أزرق
بسيطاً.

وكان قلبها يرتجف من الفرح والخوف.

دخلت البيت وهي تتلفت بدهشة.

الثريات.

الرخام.

الستائر الثقيلة.

الرائحة الطيبة .

الارضيات النظيفة.

شعرت أنها دخلت عالماً لا يخص البشر الذين تعرفهم.

ناولها كأس عصير.

ثم ابتسم.

بعد دقائق، بدأ كل شيء يذوب.

الجدران.

الضوء.

صوته.

جسدها.

ثم العتمة.

ثم استيقظت وهي تشعر بألم حاد بين ساقيها.

كان جسدها أثقل من الحجر.

حاولت النهوض.

فشلت.

رأت بقع الدم.

ورأت آثارًا زرقاء على صدرها.

شيء ما داخلها انهار في تلك اللحظة.

ليس غشاء البكارة فحسب .

بل فكرتها عن العالم.

دخل نزار الغرفة مبتسمًا.

اقترب منها.

قبل رأسها.

وقال بهدوء:

— لا تخافين... صار خير.

لكنها كانت تنظر إليه كما لو أنها تراه للمرة الأولى.

فهتم فجأة أن الوحوش لا تملك دائمًا أنيابًا.

أحيانًا ترتدي أرقى الملابس وتضع أغلى العطور .

حين عادت إلى البيت، كانت فاطمة أول من رآها.

اقتربت منها بخوف.

ثم شهقت.

كانت أشواق تمشي بصعوبة.

وجهها شاحب.

وعيناها غارقتان في ذهول كثيف.

في تلك الليلة سمعت فاطمة بكاء أختها داخل الحمام.

بكاءً مكتومًا يشبه صوت حيوان يحتضر.

جلست قرب الباب.

وضمت ركبتيها إلى صدرها.

ولأول مرة شعرت أن العالم مكان غير آمن بالكامل.

بعد أيام، اختفى نزار.

أغلق هاتفه.

تبخر.

كأن الرجل لم يكن سوى حلم قذر.

وحين ذهبت أشواق إلى شهد، لم تجد تعاطفًا.

وجدت سخريّة باردة.

قالت شهد وهي تشعل سيجارة:

— الرجال هيچ... وإذا كل وحدة تبجي لأن رجال لعب بيها جان غرگت

الدنيا بالبجي.

شعرت أشواق بشيء ينمو داخلها.

شيء أسود.

شيء يشبه الحقد.

الحقد لا يولد فجأة.

إنه يتخمر داخل الروح مثل جثة في ماء راكد.

بدأت تتغير.

صارت تصرخ كثيراً.

تكسر الصحون.

تضرب فاطمة لأسباب سخيفة.

وأحياناً بلا سبب.

كانت ترى في أختها الضعيفة شيئاً يثير غضبها.

ربما لأنها تشبه نسختها القديمة.

البريئة.

الخائفة.

المهزومة.

وفي كل مرة تضربها، كانت تشعر براحة قصيرة.

راحة تشبه راحة المدمن بعد جرعة سم.

ثم جاء أمين.

أسمر.

طويل.

بعينين حادتين.

كان يعرف كيف ينظر إلى المرأة.

وكيف يجعلها تشعر بأنها أجمل امرأة في العالم.

هذه المرة لم تقع أشواق في الحب فقط.

بل وقعت في الحاجة.

الحاجة إلى أن يرسم أحد ما صورتها المحطمة.

كانت تريد أن تثبت لنفسها أنها ما تزال قابلة للحب.

وأن ما حدث مع نزار لم يحولها إلى خرابة بشرية.

استمرت علاقتهما أشهرًا.

ضحك.

خروج.

مكالمات طويلة.

أحلام.

جنس.

ثم اختفى هو الآخر.

كأن الرجال في حياتها كانوا أبوابًا تفتح على هاوية.

في تلك المرحلة، مات شيء أخير داخل أشواق.

شيء لا اسم له.

ربما الحياء.

ربما الإيمان.

ربما المعنى.

ربما الشرف .

وبدأت تنام مع الرجال مقابل المال.

في البداية كانت تبكي بعد كل مرة.

ثم صارت تبكي أقل.

ثم توقفت عن البكاء تمامًا.

الإنسان يتكيف حتى مع الجحيم.

وهذه من أكثر الحقائق رعبًا.

أما فاطمة، فكانت تتحول تدريجيًا إلى شبح.

جسدها يزداد هزالًا.

وعيناها تكبران بطريقة مخيفة.

كانت تقوم بكل أعمال البيت.

تغسل الملابس.

تنظف.

تطبخ.

ثم تجلس قرب النافذة الصغيرة وتقرأ القرآن بصوت خافت.

أحياناً كانت تحرق طويلاً في السماء.

وتتساءل:

لماذا خلق الله البشر إذا كانوا سيؤذون بعضهم بهذا الشكل؟

لكنها كانت تخاف حتى من أفكارها.

في إحدى الليالي، عادت أشواق مخمورة بالغضب.

ضربت فاطمة بعنف.

ثم حبستها في غرفة صغيرة.

بقيت هناك أيامًا طويلة.

الجوع.

العتمة.

الرائحة الخانقة.

والخوف.

الخوف الذي كان يتمدد داخلها مثل سرطان.

كانت تسمع ضحكات الرجال في الصالة.

وصوت أختها.

وأصوات الأسرة المعدنية.

فتضع أصابعها في أذنيها وتقرأ المعوذتين.

وفي عصر يوم قائظ، استطاعت الهرب.

تسلقت الشباك.

سقطت فوق سقف صفيح.

جرحت ركبتيها.

ثم ركضت حافية في الزقاق.

كانت تبكي وهي تطرق باب بيت الشيخ المجاور.

فتحت امرأة عجوز الباب.

ارتمت فاطمة عند قدميها.

وقالت بصوت متقطع:

— خالة... أنا دخيلة... دخیلج لا تسلميني.

كانت ترتجف كلها.

كعصفور مبتل.

دخلت المرأة في صدمة.

أجلستها بسرعة.

جاءت أشواق بعد دقائق.

وجهها متوتر.

وعيناها مجنونتان.

قالت:

— هاي أختي.

لكن فاطمة تشبثت بعباءة المرأة وهي تبكي:

— والله تموتني... خالة لا تسلميني إلها.

ساد صمت ثقيل.

صمت يشبه اللحظات التي تسبق الكوارث.

زوجة الشيخ كانت خائفة.

من الشرطة.

من العشائر.

من الفضيحة.

من العالم كله.

والبشر، حين يخافون، يتحولون غالبًا إلى جبناء.

في النهاية، سلمتها.

كانت فاطمة تصرخ وهي تُسحب من ذراعها:

- خالة دخيلج... خالة لا تعوفيني.

لكن الباب أُغلق.

وبقي صوتها يرتطم بالجدران.

في البيت الجديد الذي انتقلت إليه أشواق بعد الحادثة، صار العنف أكثر وحشية.

ذات صباح، أحرقت يد فاطمة بقطعة حديد ساخنة.

رائحة اللحم المحترق ملأت المطبخ.

صرخت فاطمة حتى بحّ صوتها.

ثم جلست في الزاوية ترتجف.

كانت تشعر أن روحها تغادر جسدها بالتدريج.

كأنها تموت ببطء شديد.

وفي اليوم الأخير، كانت وحدها في الشقة.

الهدوء ثقيل.

والمكان بارد رغم حر آب.

جلست قرب برميل النفط.

وظلت تحرق طويلاً في الأرض.

ثم بدأ الصوتان.

واحد يقول:

— انتهى.

والآخر يقول:

— اصبري.

صوت يدعوها إلى الموت باعتباره رحمة.

وصوت يتمسك بخيط رفيع من الإيمان.

لكنها كانت متعبة أكثر من أن تقاوم.

الأرواح المكسورة لا تنتحر دائماً لأنها تريد الموت.

أحياناً تنتحر لأنها لم تعد قادرة على احتمال الحياة.

سكبت النفط على جسدها.

أغمضت عينيها.

وأشعلت النار.

حين كسر الجيران الباب، كانت كتلة من الذهب تركض داخل المطبخ.

وصل محمد بعد دقائق.

وقف مذهولاً.

ينظر إلى الجثة المتفحمة.

إلى الرائحة.

إلى الناس.

إلى الشرطة.

ثم التفت ببطء نحو أشواق.

كانت تبكي وتصرخ وتلطم وجهها.

لكن شيئاً ما انكسر داخل محمد نهائياً.

دخل المطبخ.

خرج حاملاً سكيناً.

وتقدم نحوها.

لم يقل شيئاً.

طعنها مرة.

ثم مرة.

ثم مرة أخرى.

حتى سقطت.

والدم ينتشر تحتها ببطء.

كأن البيت كله كان ينزف منذ سنوات، وهذه آخر بقعة فقط.

في المساء، أخذت سيارة الإسعاف جثتين.

وأخذت الشرطة محمد.

وكانت العمارة كلها صامتة.

صامتة بطريقة مخيفة.

كأن أحداً لم يم.

وكان المأساة حدث عادي في مدينة اعتادت رؤية الخراب.

أما فاطمة، فقد انتهت أخيراً.

انتهت رحلتها القصيرة في هذا العالم.

العالم الذي دخلته ضعيفة... وغادرته محترقة.

وبقي صوتها الأخير معلقاً في ذاكرة الجدران:

— خالة... أنا دخيلة.



حين يختبر الذِّكْرُ القلب (25)

لم يكن عامر رجل طقوسٍ باردة، ولا جامعٍ أوراِدٍ للتفاخر الروحي، بل كان كائنًا قلقلًا، يفتّش عن الطمأنينة كما يفتّش الغريق عن قشةٍ في بحرٍ بلا شواطئ.

كان مولعًا بالذكر، لا بوصفه ألفاظًا تُردّد، بل بوصفه مفاتيح خفية، يظنّها قادرة على فتح أبواب الصفاء المطلق، والاتصال بما وراء العالم.

بحث عن الذكر في الأزقة، كما تُبحث اللُقى في أطلال المدن المنسيّة،
وفتّش عنه في الكتب كما تفتّش الأرواح عن مرآتها.

حتى وقع بصره، ذات مساءٍ مُتعب، على ذكرٍ منسوب إلى العارف السيد
علي القاضي، قيل عنه إنه يُهدّب النفس من أدرانها، ويقمع الشيطان،
ويُطفئ وساوسه كما تُطفأ جمرةٌ ملتهبة في كفٍّ من ماءٍ عذب.

التزم عامر بالورد، وأقبل عليه بإصرار ناسكٍ مبتدئ، يعدّ الكلمات كما
تُعدّ حبات المسبحة في العتمة.

غير أن الطمأنينة لم تأتِه كما تحيّل؛ فما إن استقام على الذكر حتى انخالت
عليه المصائب كتائب متلاحقة، كأن القدر قرر امتحانه دفعةً واحدة، أو
كأن الذكر فتح نافذةً لم يكن الهواء خلفها رحيماً.

ردد الورد أكثر من عشرة آلاف مرة، حتى نحل جسده، وصار كقشرةٍ
خاوية تحمل روحًا متعبة.

أوى إلى فراشه مُكرِّهاً، وهناك—في تلك المنطقة الرمادية بين النوم واليقظة، حيث تختلط الصور بالأصوات وتتكشف البواطن—وقع الهجوم.

جاءوا عليه دفعةً واحدة، وإن بدوا متفرِّقين؛ أشكالٌ مرعبة، ملامح متناقضة، وأسلحة كأنها مقتطعة من كوابيس قديمة، حتى حُيِّل إليه أنهم يأجوج ومأجوج.

كان وحيداً، أعزل، لكن شيئاً ما في داخله استطال فجأة، كأن الذكر أعار روحه قامَةً أعلى من جسده.

ارتفع صوته، لا صراخاً بل يقيناً، وقال:

“سأحرقكم بـ: قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.”

دام الصراع، وكانت الغلبة تميل إليه، حتى تقدّم أحدهم وقال بصوتٍ لا يخلو من سخريةٍ سوداء:

“ما كنا لتتجرأ على مقامك يا شيخ عامر، لولا فعلتك، ولولا الذنب الذي
سوّد صحيفتك.”

عندها فزع عامر من نومه، وقلبه يخفق كمن عاد من حافة الهاوية.
تذكر.

تذكر تلك اللحظة التي أغرى فيها امرأةً متزوجة، وتذكر أن رحمة الله وحدها
حالت دون الوقوع في الفعل...

نعم، لم يزن، لكنه نوى.

وهنا انكشف له المعنى الذي طالما غفل عنه:

أن النية السيئة قد تكون أقبح من الخطيئة نفسها، لأن القلب هو موضع
النظر، لا الجوارح.

في تلك الليلة فهم عامر معنى الآية القرآنية :

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فالله لا ينظر إلى كثرة الأوراد، ولا إلى الصلوات المتراكمة، ولا إلى المظاهر

ولا المقامات، بل إلى القلب وحده:

هل هو نقي؟

هل يخلو من الحقد، والحسد، ونوايا السوء؟

من جاء بقلبٍ سليم فقد فاز فوزًا عظيمًا،

ومن جاء بقلبٍ أسود، فلا تغنيه صلاته ولا صيامه، ولا تحميه أذكاره من

نارٍ تبدأ من داخله قبل أن تكون في الجحيم.

ومنذ تلك الرؤيا، لم يعد عامر يسأل:

كم ذكرت؟

بل صار يسأل:

بأي قلبٍ ذكرت؟



حين تعود الوجوه بلا ذاكرة والنفوس بلا عاطفة (26)

لم يكن ينام قبل أن يراه، كأن الليل لا يكتمل إلا بظله، وكأن صوته هو
الخيوط الأخير الذي يربط العالم بمعناه.. , كانت صداقتهما في المراهقة
ليست علاقة عابرة، بل تشبه اعتقاداً سريعاً لا يُقال، أقرب إلى طقس يوميٍّ
خفيٍّ يُمارس دون وعي، حيث يتحول الصديق إلى مرآة، ثم إلى فكرة، ثم
إلى كائنٍ يكاد يلامس التقديس.

ولا غرو في ذلك، فتلك هي طبيعة صداقات المراهقين وقوانينها، إذ قد يتحول الصديق القريب والخليل الحبيب إلى "إله مصغر" أو صنم يُعبد من دون الله.

لكن الزمن، ذلك الذي لا يترك شيئاً على حاله، شقّ بين رامي وسامي مسافةً لا تُقاس بالأيام والسنوات فقط، بل بما يتراكم في الروح من تبدّل صامت. تفرقا كما تتفرق أمواج البحر بعد عاصفة، لا وداع واضح، ولا نهاية معلنة، فقط انطفاء تدريجيّ لشيءٍ كان يظن نفسه أبدياً.

فرقت بين رامي وسامي السنون والأيام ؛ تلك المطاحن الصامتة، دارت دوراتها القاسية ؛

وطوّت الذاكرة ما كان بينهما من ودّ.

وفي إحدى صالات مطاعم العاصمة المزدهمة، حيث ضجيج الأطباق
وصيحات النادلين، وحيث الوجوه تمر كأنها استعارات بلا أسماء، التقت
العينان صدفة.

توقف الزمن لحظة، أو هكذا بدا للرامي.. ؛ كان وجه سامي مألوفًا بشكل
يجرح الذاكرة، كأنه محفور في طبقة أعمق من النسيان.. ؛ أما سامي،
فشعر بانجذاب غريب، كأن شيئًا قديمًا في داخله يحاول أن يتذكر سببًا لا
يتذكره.

امتدت النظرات بينهما أطول من المنطق، كأنها تحاول استنطاق ماضٍ فقد
لغته.. ؛ وفك شفرات الملامح المتغيرة، وتبدل الطباع، وتحول الشخصيات
إلى نقيضها تمامًا ، لم تكن نظرات لقاء، بل نظرات اختبار: هل أنت أنت
حقًا؟

أم مجرد نسخة مرّت بها الحياة ثم أعادت تدويرها في هيئة أخرى؟

جاء صوت الأب، جافاً، قاطعاً، كحجر يسقط في ماء راكد: —

سامي... هذا رامي، صديقك القديم. أما زلت لا تذكره؟

إلا أن والد سامي، الذي كان يجلس بجانبه، هو من قطع الشك باليقين

قائلاً: "سامي، هذا رامي صديقك... هل نسيتَه؟!".

أدرك والد سامي، الذي يجلس بجانبه ؛ كجبلٍ أكلت عوامل الزمن أطرافه،

وبقيت منه هيئةٌ لا تستطيع الأيام محوها ... ؛ هذه الهزة الوجودية والحيرة

العاطفية .. ؛ كان هو الجسر الوحيد المتبقي بين صفتين انهارتا.. ؛ اذ قال

بصوت هادئ، قاطعاً به حيرة الشك:

"سامي...؛ هذا رامي، شطر روحك القديم.. ؛ هل نسيتَه ؟!"

انتفض الجسدان في لحظة واحدة كأن صعقة كهربائية أصابتهم.. ؛ قفزا

من مقعديهما، مدفوعين بذاكرة العضلات لا بوعي الحاضر.. ؛ اقتربا،

لكن خطى كل منهما كانت ترتطم ببرزخ خفي من الجليد.

التقى الاثنان في المسافة الفاصلة بين الذاكرة والغربة...

لا عناق.. , لا دموع.. , لا ذلك الانفجار العاطفي الذي يُنتظر عادة

في مثل هذه اللحظات.. , ولم يقبّل أحدهما الآخر كما يفعل العراقيون في

لقاءاتهم الحارة ... ؛ سؤالان بسيطان، كأنهما يُختزلان كل العمر:

— أنت سامي؟

— وأنت رامي؟

- بلى .

تلا ذلك ثلاث دقائق من اللغو الجنائزي.. ؛ أسئلة باردة كالمعادن عن

الأهل والصحة، كلمات ميتة خالية من الدسم العاطفي، تُقال لمجرد ملء

الفراغ المرعب الذي تركه غياب الحب القديم.. , كانت الحروف تخرج من

أفواههما وتتساقط فوراً على الأرض لتتحطم مثل زجاج رخيص.

ثم، بآلية مفرطة، أدار كل منهما ظهره للآخر ومضى في سبيله، مخلفين

وراءهما جثة ذكرياتهما ملقاة بين الأطباق الساخنة.

نعم , ثلاث دقائق فقط كانت كافية لتثبيت شيءٍ مرعب: أن ما كان بينهما لم يعد صالحًا للاستخدام، وأن الذاكرة لا تكفي لإحياء علاقة ماتت في منطقة لا يزورها القلب..

افترقا كما يلتقي الغريبان: بأدبٍ كامل، وغيابٍ داخليٍّ تام..

وغادر كلُّ منهما وهو يحمل دهشة صامتة واحدة:

كيف تتحول العشرة التي كانت يوماً حياةً كاملة إلى مجرد اسمٍ يمكن نسيانه بسهولة...؟!

نعم ؛ يُخَيَّل للمرء أحياناً، أن الناس الذين نعاشرهم بحب وود، يموتون ويدفنون تحت الثرى، ثم يبعثون إلينا بلا ذاكرة.

ثم جلس سامي يحدق في الفراغ، وقد تملكه يقين مرعب: إن أولئك الذين نُسرف في حبهم، لا يرحلون عنا إلى مدن أخرى، بل يموتون سراً، ويدفنون في مقابر جماعية داخل رؤوسنا، ثم يخرجون ذات يوم إلى الشوارع متقمصين أجساداً غريبة، يعيشون بيننا بلا ذاكرة، كأنهم لم يولدوا يوماً في دمناء.



حين تعود الوجوه بلا ذاكرة
والنفوس بلا عاطفة

وحشة المحراب ونفاق المئذنة (27)

في المدن التي أنهكتها الحروب، لا يموت الناس من الرصاص وحده، بل يموتون أيضاً من فرط الثقة والسذاجة .. ، وحين يتآكل الوعي ، يصبح الإنسان أشبه بطفلٍ يسير في غابةٍ مليئة بالذئاب، يظن أن كل من يتسم له راعٍ، بينما بعضهم لا يرى فيه سوى فريسة.

كان محمود واحداً من أولئك الذين ولدوا بقلوبٍ طيبة ونفوسٍ ساذجة لا تستطيع الشك فضلاً عن المكر والدهاء ...

لم يكن ملاكاً، لكنه إذا أخطأ أحسَّ أن الخطأ شوكةٌ مغروسة في ضميره، فلا يهدأ حتى يقتلعها بالاعتذار أو التوبة... ؛ كأن قلبه نهرٌ ينجل أن يحمل ورقةً ذابلة، فكيف يحمل طين الخطيئة؟

كان محمود رجلاً نقيَّ السريرة في زمنٍ أصبح فيه الصدقُ تهمةً، والضميرُ عبئاً، والوفاءُ سلعةً كاسدة.

كان يظن أن البيوت التي يُذكر فيها اسم الله لا تشبه الأسواق؛ وأن الدعاء لا يسكن إلا القلوب التي عشقت تلك البيوت .. , لذلك اعتاد ارتياد المساجد، والحسينيات ، والمراقد الدينية ، باحثًا عن سَكِينَةٍ تشبه سَكِينَةَ الانبياء ... ؛ لذلك وجد في المساجد والمجالس الدينية ملاذًا روحيًا، لا طلبًا لمنصب أو منفعة، بل بحثًا عن الطمأنينة التي كانت المدينة تسرقها منه كل يوم.

نعم , كان محمودٌ رَجُلًا يَسِيرُ في الأَزَقَةِ كأنه بَقِيَّةٌ باقيةٌ من زَمَنِ الأنبياء؛ جَوْهَرًا نَقِيًّا في جُغَرافِيا ملوثةٍ بالزيف... ؛ كان نَفْسًا لَوَامَةً تَصْقُلُهَا التوبةُ كُلِّما حَدَثَ عَفْوَيتُهَا بَشْرِيَّتُهُ، فَيُسَارِعُ إلى غَسْلِ وِزْرِهِ بالدموعِ، كَنَهْرٍ سَامٍ يَأْنِفُ الرُكُودَ كَي لا تَتَوَطَّنَهُ القاذورات.

كانت حُطَاةُ مَرْسُومَةٍ بين عَتَبَاتِ الْمَسَاجِدِ، وَحَرَارَةُ الْحُسَيْنِيَّاتِ، وَهَيْبَةُ الْمَرَاقِدِ التي يَسْتَمِدُّ منها مَاءُهُ الرُّوحِيَّ.

وكان دأبه الصلاة والدعاء في المساجد والحسينيات، وزيارة المراقد المقدسة،
ومجالسة الملتزمين دينياً، يلتمس في صحبتهم سكينة لروحه القلقة، وتصديقاً
لإيمانه المتردد ...

كان يؤمن أن للمساجد أرواحاً كما للناس أرواحاً، وأن الجدران تحفظ
أنفاس الساجدين، وأن الأرض التي تبتل بدموع التائبين تصبح أكثر دفئاً
من حضن الأم...؛ وأنها ستشهد له يوم القيامة، بين يدي الله، وأمام الملائكة
الأعلى، بأنه سجد لله عليها...

وفي أحد أيام الشتاء، قادته قدماه إلى مسجد صغير في آخر الحي... ؛
كان المسجد قديماً، جدرانه متشققة، وساحته خالية إلا من شجرة سدر
يابسة.

كان هادئاً حدّ الوحشة، حتى حُيِّل إليه أن الجدران تُصَلِّي وحدها.

وما إن فرغ من الصلاة حتى شعر بانقباضٍ غريب؛ لم يكن المكان موحشًا، بل كان خاليًا من ذلك الدفء الخفي الذي يشعر به المؤمن حين يذكر الله .

أدّى صلاته، لكنه خرج منها بقلبٍ أثقل مما دخل به؛ شعر أن المكان مزدحم بالقلة القليلة من المصلين، لكنه خالٍ من الأرواح، وأن السقف يردد الكلمات، بينما السماء لا تسمع شيئًا...

نعم ، صلى محمودُ ركعته بخشوعٍ من يعرفُ أنَّ الله يرى ما لا تراه العيون... ؛ لكنَّ المكانَ لم يكن فارغاً من المصلين فحسب؛ بل فارغاً من الروحانية ذاتها، كأنَّ جدرانَهُ تنثُنُّ من فراغٍ وجوديٍّ، وكأنَّ المحرابَ يبكي غيابَ النورِ الإلهي.

وقبل أن يغادر، اقترب منه إمام المسجد، رجل خمسيني يُدعى السيد رحمن الموسوي ... ، كان حسن المظهر، هادئ الصوت، واسع الابتسامة، يعرف كيف يجعل محدثه يشعر بأنه شخصٌ مهم.. ، له عينان غائرتان تختبئ خلفهما دهاليز لا تُفضي إلى نور...

كان السيد يجيد الكلام أكثر مما يجيد الصمت، ويجيد الابتسام أكثر مما يجيد النظر في العيون... ؛ أما محمود، فكان يرى في الناس ما يحب أن يكون فيهم، لا ما هم عليه حقًا؛ ولذلك كان فريسة سهلة لكل من يتقن صناعة الأقنعة.

صافحه بحرارة وقال:

"أراك غريبًا عن مسجدنا يا مولاي ؟".

ابتسم محمود بتواضع.

"أحب أن أصلي في كل بيتٍ يُذكر فيه اسم الله."

السيد رحمن الموسوي ؛ رجلٌ يَرْتَدِي مَسْحَةَ الدِّينِ لِيُخْفِيَ تَحْتَهَا ذَنْبًا نَفْعِيًّا، مَشْبُوهَ السَّيِّرَةِ، لَا يَتَّقُ بِهِ دَانَ وَلَا قَاصٍ... ؛ لَكِنَّ سَيِّدَ رَحْمَن، بِحَسَبِ الْإِنْتِهَازِ الْمَاكِرِ، أَذْرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ "الْعُمْلَةُ الذَّهَبِيَّةُ" الَّتِي يَفْتَقِدُهَا؛ فَقَدْ عَرَفَ أَنَّ مُحَمَّدًا ثِقَّةُ رِجَالِ الدِّينِ وَعُنْوَانُ النَّزَاهَةِ... ؛ وَ بَدَأَ رَحْمَنُ

يَسْتَدْرِجُهُ، يَدْعُوهُ يَوْمِيًّا بَعْدَ الصَّلَاةِ لِشُرْبِ الْقَهْوَةِ فِي غُرْفَتِهِ الْخَاصَّةِ
الْمُلَاصِقَةِ لِلْمَسْجِدِ، حَيْثُ تُطْبَخُ الْمَكَايِدُ فِي صَمْتٍ.

كان صوته ناعماً كالحرير، لكن محموداً شعر للحظة أن شيئاً ما في نبرته لا
يتطابق مع ابتسامته، كأن الصوت والوجه ينتميان إلى شخصين مختلفين...
كان الإمام - امام المسجد السيد رحمن - يتحدث كثيراً عن التقوى،
وأكثر حديثه عن الثقة، وأكثر من ذلك عن الناس الذين لا يُؤْتَمَنُونَ... ؛
أما محمود، فكان يظنه رجلاً صالحاً.

الفصل الأول: اسْتِثْمَارُ الظِّلِّ

ومنذ ذلك اليوم، صار السيد يدعوهُ بعد كل صلاة إلى غرفةٍ صغيرة
ملاصقة للمحراب، يقدم له القهوة والشاي ، ويسأله عن أحواله، ويستمع
إليه أكثر مما يتحدث.. , شعر محمود لأول مرة منذ سنوات أن أحداً يهتم
لأمره.

لكن ما لم يكن يعلمه أن بعض الصيادين لا يلقون الشّباك في البحر، بل في قلوب البشر.

تَحَوَّلَ مُحَمَّدٌ، دُونَ أَنْ يَدْرِي، إِلَى ظِلِّ يَسِيرُ مَعَ السَّيِّدِ رَحْمَنٍ فِي المناسبات الدينية والاجتماعية .

شيئًا فشيئًا، صار السيد يطلب منه خدماتٍ صغيرة: إيصال رسالة، أو مرافقة شخص، أو التوسط عند رجلٍ كريم.. , ولم يكن سالم يرى في ذلك إلا بابًا من أبواب الخير...

لكن الحقيقة كانت تُحاك في الظل..

كان السيد يعرف أن محمود يحظى بسمعة طيبة بين الناس، وأن كثيرًا من التجار والمتدينين يثقون بكلمته أكثر مما يثقون بالخطب الطويلة.. , لذلك لم يحاول استغلاله مباشرة، بل بدأ بخطوات صغيرة.

مرةً طلب منه أن يرافقه لزيارة رجلٍ كريم.

ومرةً أخرى أن يعرّفه إلى أحد وجهاء الحي.

ثم صار يردد أمام الناس:

"هذا الشاب من أنقى وأطهر من عرفت."

وكان محمود يخجل من المديح، ولا يدرك أنه صار يُستعمل بوصفه شهادةً
حيّة على نزاهة رجلٍ آخر.

في إحدى الأمسيات، رافقه إلى مجلسٍ خيري يجتمع فيه أهل اليسار لجمع
التبرعات للأسر المحتاجة.

دخل السيد وحده إلى غرفةٍ جانبية، بينما بقي محمود ينتظر في الخارج.

وبعد دقائق خرج السيد مبتسمًا وهو يخفي ظرفًا ورقيًا داخل عباءته.

سأل محمود:

"هل انتهى الاجتماع؟"

قال السيد وهو يربت على كتفه:

"الحمد لله... الناس ما زال فيهم خير."

لم يسأله محمود عن شيء.

كان يعتبر الفضول نقصاً في حسن الظن.

ومرت الايام.

صار محمود يلاحظ أموراً صغيرة لا ينتبه إليها غيره.

المسجد يجمع تبرعات لترميمه منذ سنوات وشهور، لكن الجدران لا تتغير.

الأسر الفقيرة التي يُعلن عن مساعدتها لا يعرف أحد أسماءها.

والسيد يتحدث كثيراً عن الزهد، بينما تتبدل سيارته كل عام.

كان يطرد هذه الأفكار من رأسه كلما حضرت.

ويقول لنفسه:

"ربما أنا الذي أسأت الفهم."

فالنفوس الطيبة تتعب كثيراً قبل أن تصدّق وجود الخداع.

كان السيد يقتات على ثقة الناس كما يقتات السوس على الخشب.. ,
يجمع التبرعات باسم الفقراء، ويبيع الوعود باسم الدين، ويُلبس الكذب
ثوب الفتوى، حتى أصبح يصدق نفسه وهو يكذب.

وفي إحدى المرات، جلس محمودٌ في نهاية المجلس، بينما تحرك سيد رَحْمَن
بِحَقَّةِ الْأَفْعَى نَحْو "السَّيِّدِ كَاطِمِ الْمُوسَوِيِّ"، وَكِيلِ الْمَرْجِعَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْحَيِّ،
وَالَّذِي يُمَثِّلُ سُلْطَةً رُوحِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً مُؤَثَّرَةً.

انْحَنَى سيد رَحْمَن وَهَمَسَ بِنَبْرَةٍ تَقْطُرُ تَبَاكِياً:

- "سَيِّدَنَا الْفَاضِلُ.. صَدِيقِي الْجَالِسُ هُنَاكَ فِي زَاوِيَةِ الْمَسْجِدِ، هُوَ مُحَمَّدٌ..
رَجُلٌ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ مَرِيضٌ جِدًّا، فَقِيرٌ وَخُتَّاجٌ، وَلَدَيْهِ أَحْوَاتٌ صِغَارٌ يَتِيمَاتٌ
يَعِيشْنَ فِي بُؤْسٍ شَدِيدٍ، وَهُمْ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةِ لِلْمَعُونَةِ".

تَقَرَّسَ السَّيِّدُ كَاطِمُ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ الشَّاحِبِ الْبَادِي عَلَيْهِ الزُّهْدُ، ثُمَّ سَأَلَ
سيد رَحْمَن:

- "هَلْ تَعْرِفُهُمْ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ؟ وَهَلْ هُمْ مُلْتَزِمُونَ دِينِيًّا؟"

أَجَابَ رَحْمَنُ بِحَمَاسٍ مُصْطَنَعٍ: "بِالتَّأَكِيدِ مَوْلَايَ.. بِذِمَّتِي وَرَقَبَتِي".

مَدَّ السَّيِّدُ كَاطِمَ يَدِهِ إِلَى دَوْلَابِهِ الْحَشِيَّ الْعَتِيقِ، وَأَخْرَجَ رِزْمَةً نَقْدِيَّةً بِمَبْلَغِ
(مِلْيُونِ دِينَارٍ) وَسَلَّمَهَا إِلَى سَيِّدِ رَحْمَنٍ... ؛ عَادَ الْأَخِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ مُسْرِعًا،
وَطَلَبَ مِنْهُ بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ خَفِيَّةٍ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى السَّيِّدِ كَاطِمَ وَيَخْرِجَ مَعَهُ فَوْرًا...
؛ تَقَدَّمَ، سَلَّمَ مُحَمَّدٌ بِأَدَبٍ عَلَى السَّيِّدِ الَّذِي كَانَ مَشْغُولًا بِغَيْرِهِ، وَخَرَجَا
دُونَ أَنْ يَعْلَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّ عِفَّتَهُ وَسِيمَاهُ الرَّاهِدَةَ قَدْ بِيَعَتَا فِي صَفْقَةٍ حَاطِفَةٍ.

فِي الطَّرِيقِ، انْفَتَحَتْ فِي عَقْلِ مُحَمَّدٍ نَافِذَةٌ سِرِّيَّاتِيَّةٌ مِنَ الْمَاضِي، وَقَالَ
بِعَفْوِيَّةٍ:

- "هَذَا السَّيِّدُ.. أَلَيْسَ اسْمُهُ كَاطِمَ الْمُسَوِيِّ؟"

تَوَجَّسَ رَحْمَنُ وَقَالَ: "بَلَى.. وَلِمَذَا تَسْأَلُ؟"

قَالَ مُحَمَّدٌ بِنَبَرَةٍ صَافِيَةٍ: "تَذَكَّرْتُهُ الْآنَ.. كُنْتُ قَدْ حَمَسْتُ عِنْدَهُ أَمْوَالِي قَبْلَ
سَبْعِ سِنِينَ أَنَا وَصَدِيقِي جَاسِمٌ، حِينَمَا كَانَ يُؤْمُ الْمَصْلِينَ فِي مَسْجِدِ عَمَّارٍ
بْنِ يَاسِرٍ".

سقطت كلمات محمود على قلب سيد رحمن كجمرة، لكنه سرعان ما
أخفى ارتبأكه بابتسامة صفراء...

الفصل الثاني: البلاط المكشور

لم يكن محمود ممن يراقبون الناس أو يفتشون في نياتهم.. , كان يؤمن أن
سوء الظن يفسد القلب قبل أن يفسد العلاقات.. , لكنه كان يؤمن أيضاً
أن الله يمنح الإنسان إشارات صغيرة حين يريد أن ينقذه من وهم كبير.

في صباح يوم جمعة، وبينما كان يكنس ساحة المسجد قبل الأذان، لاحظ
رجلاً مسناً يقف عند الباب متردداً.. , كان يحمل ظرفاً أبيض في يده،
وعيناه تملئان برجاء الفقراء.

دخل الرجل إلى غرفة السيد , ولم يمض سوى دقائق حتى خرج وهو يتسم
براحة غريبة، كأن حملاً ثقيلاً أزيح عن صدره.

سأل محمود السيد بعد أن انصرف الرجل:

"من كان هذا؟"

ابتسم السيد وهو يرتب أوراقه.

"أحد المحسنين."

"وهل كان يريد التبرع؟"

"بل جاء يطلب المساعدة."

استغرب محمود، فقد رأى الظرف يدخل مع الرجل، ولم يره يخرج معه.. ,
لكنه صمت.

لَمْ تَقِفْ شَهِيدٌ سِيدَ رَحْمَنٍ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ؛ بَعْدَ أَيَّامٍ، اضْطَحَبَ مُحَمَّدًا إِلَى
مَكْتَبِ أَحَدِ كِبَارِ الثُّجَّارِ المعروفين بالكرم في المَدِينَةِ... ؛ استقبلهما التاجر
بحفاوة، وبعد حديث قصير قال السيد:

"المسجد بحاجة إلى ترميم عاجل.. , السقف يتسرب منه المطر، والبلاط
أصبح متهاكاً..."

تَأَثَّرَ التَّاجِرُ بِوُجُودِ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَبْدُو عَلَيْهِ الصَّلَاحُ، فَدَخَلَ مَكْتَبَهُ وَخَرَجَ
وَبِيَدِهِ (عَشْرَةُ مَلَايِينَ دِينَارٍ)... ؛ ثم قال بابتسامة:

"أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجْعِلَهَا فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِنَا."

خرجنا من بيت التاجر، والحقيقة في يد السيد .

وفي الطريق، سألت محمود:

"متى سنبدأ بالترميم؟"

أجابته السيد دون أن ينظر إليه:

"حين تكتمل المبالغ."

مر شهر...

ثم شهران...

ولم يتغير في المسجد حجر واحد.

الحَقِيقَةُ السُّودَاوِيَّةُ كَانَتْ أَنَّ سَيِّدَ رَحْمَنٍ يَتَعَمَّدُ إِنْقَاءَ بَلَاطِ الْمَسْجِدِ

مَكْسُورًا، يَسْتَدِرُّ بِهِ شَفَقَةَ الْمُحْسِنِينَ، فَقَدْ تَحَوَّلَ الطِّينُ وَالكَاشِي وَالْحَرَسَانَةُ

الْمُنْهَارَةُ إِلَى دَجَاجَةٍ تَفِيضُ ذَهَابًا.

نعم , كان المسجد بالنسبة له بقرة حلوباً، وكلما تهالك أكثر، كلما درّت المال أكثر.. , كان الفراغ الروحي الذي أحسّه محمود في أول زيارة له هو فراغ الضمير، فراغ المعنى، فراغ الإله الذي طُرد من بيته ليحل محله صنم المال.

الفصل الثالث: دَنَسُ المَلَاهِي وَصَفَقَةُ رجل الدين

وفي احد الايام ؛ التَقَتَ سيد رَحْمَن إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: "مُحَمَّدُ.. أَنْتَ عَلاَقَتُكَ طَيِّبَةٌ بِالْمَرْجِعِ الدِّينِيِّ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الطَّهْرَانِيِّ، وَأَرْجُو مِنْكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَامٍ".

سَأَلَهُ مُحَمَّدٌ بِبَرَاءَةٍ: "مَا هُوَ هَذَا الْأَمْرُ؟"

أَجَابَهُ سيد رَحْمَنُ بِعُمُوضٍ: "سَأُخْبِرُكَ بِهِ فِيمَا بَعْدُ".

هَنَا تَتَشَابَهُ خُيُوطُ الْحِكَايَةِ مَعَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ لِلْمَدِينَةِ... , قَبْلَ سَنَةٍ، عَقَدَ سيد رَحْمَنُ قِرَانًا شَرْعِيًّا بَيْنَ "الْمَيَاءِ"، وَهِيَ امْرَأَةٌ تَعْمَلُ فِي الْمَلَاهِي اللَّيْلِيَّةِ بِالْحَقَاءِ، وَبَيْنَ شَخْصٍ يُدْعَى "زَيْدًا"، وَهُوَ مُجْرِمٌ وَابْنُ شَوَارِعَ يَكْبُرُهَا

بِسَنَوَاتٍ ... ؛ كَانَ زَوْاجًا نَفْعِيًّا بَحْتًا؛ هِيَ تَمْنَحُهُ الْجِنْسَ وَالْمَالَ، وَهُوَ يُوفِّرُ لَهَا
الْعِطَاءَ الاجْتِمَاعِيَّ وَالشَّرْعِيَّ.. ، وَلِأَنَّ الْعُقْدَ تَمَّ ذَوْنَ عِلْمٍ أَهْلِهَا، اخْتَفَظَ
سَيِّدُ رَحْمَنٍ بِالْوَثِيقَةِ لِنَفْسِهِ لِيُضْمَنَ سُلْطَتُهُ عَلَيْهِمَا ، وَلِتَجَنَّبَ أَيَّ مَسْأَلَةٍ
قَانُونِيَّةٍ أَوْ عَشَائِرِيَّةٍ قَدْ يَتَعَرَّضُ لَهَا مُسْتَقْبَلًا.

دَارَتِ الْأَيَّامُ وَأُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَى زَيْدٍ بَتُّهُمْ النَّصْبِ وَالْاِخْتِيَالِ، فَوَجَدَتْ
لَمَيَاءُ نَفْسَهَا بِلاَ حِمَايَةٍ ذُكُورِيَّةٍ فِي مُجْتَمَعٍ لَا يَرَحِمُ... ؛ وَ جَاءَتْ إِلَى سَيِّدِ
رَحْمَنٍ تَطْلُبُ الطَّلَاقَ... ؛ اتَّصَلَ سَيِّدُ رَحْمَنٍ بِزَيْدٍ فِي سِجْنِهِ، فَجَاءَ رَدُّ
الْمُسْجُونِ قَاسِيًا وَمُهْدِدًا:

- "اسْمَعْ يَا سَيِّدَ رَحْمَنٍ.. لَمَيَاءُ زَوْجَتِي إِلَى الْأَبَدِ، وَلَنْ أُطْلِقَهَا لَوْ سُجِنْتُ
مِائَةَ عَامٍ.. ، وَإِذَا تَجَرَّأَ أَيُّ رَجُلٍ دِينَ عَلَى تَطْلِيقِهَا غِيَابِيًّا، سَأَقْتُلُهُ بِيَدَيَّ
هَاتَيْنِ فَوْرَ خُرُوجِي!".

خَافَ سَيِّدُ رَحْمَنٍ الْجَبَانَ، لَكِنَّ لَمَيَاءَ عَرَضَتْ عَلَيْهِ مَبْلَغًا يَسِيلُ لَهُ اللَّعَابُ:
(ثَلَاثَةُ مَلَايِينَ دِينَارٍ)... ؛ هُنَا، تَحَرَّكَتْ شَيَاطِينُ الْمَكْرِ فِي عَقْلِهِ... ؛ وَ قَالَ
هَذَا: "الطَّلَاقُ الْغِيَابِيُّ لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا الْمَرْجِعُ الدِّينِيُّ، وَهَذَا يَتَطَلَّبُ شُهُودًا

وَقَسَمًا بِأَعْلَظِ الْإِيمَانِ؛ بَأَن نَقُولَ أَمَامَ الْمَرْجِعِ إِنَّ زَيْدًا لُوطِيٌّ، سَيِّءُ
الْأَخْلَاقِ، هَاجَرَ إِلَى أَوْرُوبَا وَتَرَكَكَ مُعَلَّقَةً".

وَأَفَقْتُ لَمَيَاءَ عَلَى هَذَا السِّينَارِيُو الْمُرِيفِ.

الفصل الرابع: المسرحية

فِي الْيَوْمِ التَّالِي، اسْتَدْعَى سِيدَ رَحْمَنَ مُحَمَّدًا الطَّاهِرَ، وَطَلَبَ مِنْهُ التَّوَسُّطَ
لَدَى الْمَرْجِعِ عَلَيِ الطَّهْرَانِي لِتَطْلِيْقِ "امْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ، عَفِيفَةٍ، مَظْلُومَةٍ تَعَرَّضَتْ
لِقَهْرٍ زَوْجٍ شَاذٍ وَمُنْحَرِفٍ".

انْتَفَضَتْ نَحْوَةُ مُحَمَّدٍ الدِّينِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَقَالَ:

- "سَيِّدَنَا.. غَالِي وَالطَّلَبُ رَخِيسٌ .. , هَذَا مَوْقِفٌ مُشْرِفٌ يَخْدُمُ الدِّينَ
وَالْإِنْسَانِيَّةَ.. , بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ لِسَعْيِكَ فِي خَلَاصِ هَذِهِ الْمُؤْمِنَةِ، وَأَنَا رَهْنُ
إِشَارَتِكَ".

قَامَ سِيدَ رَحْمَنٍ بِالِاتِّصَالِ بِلَمَيَاءَ فَوْرًا أَمَامَ مُحَمَّدٍ: "أَهْلًا لَمَيَاءَ.. الْآنَ يَجْلِسُ
بِقُرْبِي إِنْسَانٌ مُؤْمِنٌ صَالِحٌ، لَدَيْهِ عِلَاقَةٌ وَطِيدَةٌ بِمَرَايِجِ قُبَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَسَيَسْعَى
فِي طَلَاقِكَ.. ؛ تَحْدِثِي مَعَهُ الْآنَ."

تَنَاولَ مُحَمَّدٌ الْهَاتِفَ بِوَقَارٍ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ يَا أُخْتِي
الْقَاضِلَةَ.. ، سَأَبْذُلُ قُصَارَى جُهِدِي لِتَخْلِيصِكَ مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ".
أَجَابَتْهُ نَبْرَةً صَادِرَةً مِنْ عُمُقِ الْمَلَاهِي: "شُكْرًا لَكَ، وَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ".

بَعْدَ يَوْمَيْنِ، نَفَذَ رَحْمَنٌ مَسْرُحِيَّتَهُ الْكُبْرَى لِعَزْلِ مُحَمَّدٍ وَإِتْمَامِ النَّصْبِ... ؛
اتَّصَلَ بِلَمَيَاءَ قَائِلًا:

"اسْمَعِي يَا لَمَيَاءَ.. هَذِهِ الْمَسَائِلُ الدِّينِيَّةُ مُعَقَّدَةٌ وَيَخَافُ النَّاسُ فِيهَا مِنْ
الْمَسْئُولِيَّةِ الْعَشَائِرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ... ؛ وَ مُحَمَّدٌ سَيَتَكَلَّلُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَكِنَّهُ
رَجُلٌ مُتَشَدِّدٌ فِي عَقْتِهِ، لَا يَقْبَلُ أَنْ تَخْصُلِي عَلَى رَقْمِهِ، وَلَا أَنْ تَجْلِسِي
مَعَهُ.. ، بِمُجَرَّدِ أَنْ يُنْهِيَ الْمُهَمَّةَ يَنْقَطِعُ كُلُّ شَيْءٍ.. ، وَأَنَا أَيْضًا خَارِجُ
الْمَسْئُولِيَّةِ، مُجَرَّدُ وَاسِطَةٍ خَيْرٍ".

تَوَجَّسْتُ لَمَيَاءُ ضَمْنِيًّا: "سَيِّدَ رَحْمَنٍ.. كَيْفَ لِي أَنْ أَثِقَ بِأَنَّهُ طَلَّقَنِي دُونَ
وَرَقَةٍ رَسْمِيَّةٍ وَدُونَ أَنْ أَرَاهُ؟!"

ضَحِكَ سَيِّدُ رَحْمَنٍ بِحُبِّهِ: "يَا لَمَيَاءُ، الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَانُونِيَّةً مَدَنِيَّةً، بَلْ
شَرْعِيَّةً غَيْبِيَّةً.. , و الطَّلَاقُ يَقَعُ بِالْكَلامِ فَقَدْ، وَخَمُودٌ ثِقَةٌ الْمَرَاجِعِ وَهَذَا
يَكْفِي".

سَأَلَتْهُ مُسْتَسْلِمَةً: "يَعْنِي هَذَا الْأَمْرُ صَحِيحٌ وَبِذِمَّتِكَ؟"

أَجَابَهَا وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ: "طَبْعًا... ؛ صَحِيحٌ شَرْعًا وَأَنَا الْمَسْئُولُ
أَمَامَ اللَّهِ فَقَطْ، وَلَسْتُ مَسْئُولًا أَمَامَ أَهْلِكَ أَوْ زَوْجِكَ".

فِي الْعَدِ، جَاءَتْ لَمَيَاءُ وَسَلَّمَتْهُ الْمَلَائِكَةُ الثَّلَاثَةُ... ؛ فَبَضَّ الْمَالَ وَنَقَدَهَا
بِعَيْنَيْهِ الْجَشِعَتَيْنِ قَائِلًا: "الآنَ سَأَمُرُ خَمُودًا بِالسَّفَرِ فَوْرًا إِلَى قُمَّ الْمُقَدَّسَةِ
لِلْإِجْرَاءِ الطَّلَاقِ، سَيَبْقَى هُنَاكَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ نَعْرِفُ النَّتِيْجَةَ".

الفصل الخامس : الخيط الأول

في الليلة التي سبقت مجيء لمياء إلى سيد رحمن... ؛ و بينما كان يغلق

أبواب المسجد، سمع خادم المسجد ابو فلاح يقول لرجل آخر:

"كل سنة يجمعون أموالاً للبلاط...؛ وأنا أبدل البلاطات المكسورة من

مالي الخاص."

توقف محمود مكانه.

كانت الجملة قصيرة، لكنها سقطت على قلبه كحجر في بئر ساكنة.

في تلك الليلة لم ينم..

ظل يتذكر كل موقف مر به مع السيد ..

كل كلمة..

كل زيارة..

كل تبرع..

كل ابتسامة..

بدأ يشعر بأنه لم يكن يرى الحقيقة، بل الصورة التي أراد هو أن يراها...

لكن الحقيقة لا تطرق الباب دفعةً واحدة.

إنها تبدأ عادةً بهمسة...

ثم تتحول إلى سؤال...

ثم إلى يقين لا يستطيع الإنسان الفرار منه.

وفي تلك الليلة، لم يكن محمود يعلم أن الخطوة التالية ستقلب حياته كلها، وأن الرجل الذي ظنه مرشدًا روحيًا لم يكن يراه إلا قطعةً ثمينة على رقعة شطرنج، يحركها متى شاء، ويخفي وراءها لعبةً أكبر بكثير مما كان يتخيل...

الفصل السادس الخيط الثاني

وفي اليوم التالي، جاء محمود إلى المسجد، لكن خطاه هذه المرة لم تُقدها رغبةً في العبادة أو الخدمة كما اعتاد، بل ساقه إليها دافعٌ آخر؛ دافعُ البحث والتقصي، والرغبةُ في كشف ما خفي من الحقائق.

لقد دخل المكان بعين المحقق لا بعين العابد، وبأسئلةٍ أثقل من صمته،
وكأن شيئًا غامضًا كان ينتظره بين جدران المسجد، يطالب بأن يُكشف
أخيرًا.

وقد جاء إلى المسجد شاب في الثلاثين من عمره، تبدو على وجهه
علامات الانكسار...

قال للسيد :

"سيدنا... زوجتي مريضة، وقد أخبرتموني قبل أشهر أن الجمعية الخيرية
ستكفل بعلاجها."

قطب السيد حاجبيه.

"راجعني الأسبوع القادم."

خرج الشاب منكسرًا.

اقترب منه محمود خارج المسجد.

- "أتعرف السيد منذ زمن؟"

- قال الرجل بحزن:

"منذ سنة.. , وكل مرة يقول: الأسبوع القادم."

- "وهل استلمت شيئاً؟"

- "ولا دينارًا واحدًا."

شعر محمود ببرودة تسري في أطرافه..

كانت هذه أول مرة يسمع فيها شكوى مباشرة..

في المساء، عاد إلى بيته.

وقف أمام المرأة طويلاً.

وقال بصوت خافت:

"يا رب... إن كنت مخطئًا فاغفر لي سوء ظني... وإن كنت محقًا، فلا

تجعلني شريكًا في ظلم أحد."

وفي تلك اللحظة، شعر أن رحلته الحقيقية لم تبدأ يوم دخل المسجد...

بل بدأت الآن، يوم قرر أن يبحث عن الحقيقة، لا عنطمأنينة.

ولم يكن يعلم أن الحقيقة، حين تُكشف، لا تهدم صورة شخص واحد

فحسب، بل قد تهدم العالم الذي بناه الإنسان داخل نفسه.

الفصل السابع : الخيط الثالث

وفي اليوم التالي ، وبينما كان محمود يؤدي عمله المعتاد في غرفة السيد

رحمن؛ يكنسها، وينظفها، ثم يعيد ترتيب كتب الفتاوى والاستفتاءات على

رفوفها، استوقفه مشهد لم يكن يتوقعه... ؛ فقد كان الدرج الخشبي الخاص

بالسيد رحمن مفتوحًا على غير عادته، فرأى داخله رزمًا متراصة من الدنانير

والدولارات، حتى بدا وكأن الدرج يخترن ثروة لا يُستهان بها.

لم يطل تأمله، فأغلق الدرج بهدوء، غير أن الصورة بقيت عالقة في ذهنه.

وقبيل أذان صلاة الظهر، دخل المسجد شيخٌ أحذب الظهر، يكسو وجهه

نور الوقار، بينما كانت ملامحه تنطق بالفقر والعوز الطارئ... ؛ تقدم

بخطوات متناقلة نحو السيد رحمن، صافحه بجرارة، ثم قال بصوت اختلط فيه

الحياء بالألم:

. هل عرفتني؟

أنا الحاج محمد الساعدي، صديق والدك المرحوم إسماعيل الموسوي... ؛

كنتُ أحمس أموالِي عنده حين كانت الدنيا قد وسعت عليّ، لكن الأيام

دارت، وأراد الله أن أصبح فقيراً لا أملك إلا رحمته...

لم أطرق باب أحدٍ من قبل، لكن معرفتي بوالدك دفعتني إلى المجيء

إليك... ؛ زوجتي، أم جاسم، بحاجة إلى عملية جراحية عاجلة، وقد

استطعت تدبير نصف تكلفتها فقط، فجئت أرجو أن تعينني بما

تستطيع...

ولم يكذب يمينه حديثه حتى قاطعه السيد رحمن قائلاً:

. أهلاً وسهلاً بك يا حاج محمد، ويشهد الله أن حضورك أسعدني، وأنني

كلما رأيته تذكرت والدي رحمه الله... ؛ لكن، والله العظيم، لا أملك

مألاً أستطيع أن أساعدك به... ؛ لقد تغيّر الناس، ولم يعودوا يلتزمون بما عليهم من حقوق شرعية؛ فلا خمس، ولا زكاة، ولا صدقات كما كان في السابق... ؛ فاعذربي، فما بيدي شيء.

ساد صمتٌ ثقيل... ؛ انكسرت ملامح الشيخ، وأطرق رأسه دون أن ينبس بكلمة، ثم استدار ببطء وغادر المسجد، يجر خلفه خيبةً أثقل من خطاه.

وكان محمود يراقب المشهد بصمت، بينما لم تغادر ذاكرته صورة الدرج المفتوح، الممتلئ برزم الدنانير والدولارات... ؛ عندها بدأ سؤالٌ ثقيل يطرق عقله بالحاح: أكان الرجل صادقاً في اعتذاره، أم أن الحقيقة كانت شيئاً آخر؟

ولعل من أقسى ما يذوقه الإنسان أن يضطر، بعد عمرٍ من العطاء والغنى، إلى مدّ يده لأول مرة، ثم يُقابل طلبه الأول بالرفض... ؛ فذلك لا يردّ صاحبه خائباً فحسب، بل يترك في نفسه جرحاً عميقاً، ويهز كرامته هزاً قد لا تبرئه الأيام.

في كل مرة كان محمود يكتشف تناقضًا في سلوك سيد رحمن ، وكان يقنع نفسه - وكالعادة - بأن سوء الظن خطيئة، وأن حسن النية عبادة.

وبدأت الأسئلة تكبر داخل محمود كما تكبر الشقوق في الجدران القديمة.

الفصل الثامن : انفصال العوالم

بعد أن دفعت لمياء المبلغ كاملاً وغادرت، مرّت ثلاثة أيام على تلك الحادثة دون أن يحدث ما يستدعي الانتباه.. , غير أنه، وفي ساعة متأخرة من الليل، وعلى غير عادته، تلقّى محمود اتصالاً من السيد رحمن.. , كان الأمر غريبًا بما يكفي ليثير في نفسه القلق والتساؤل، إذ لم يكن الرجل ممن يجرون الاتصالات الليلية، ولا ممن يطلبون أحدًا في مثل ذلك الوقت إلا لأمرٍ استثنائي.

- "أهلاً محمود.. أرجو أن لا تُكَلِّفَ نَفْسَكَ بِقَضِيَّةِ طَلَاقِ الْبِنْتِ الَّتِي حَدَّثْتُكَ عَنْهَا".

تَعَجَّبَ مُحَمَّدٌ الصَّادِقُ: "لِمَاذَا يَا سَيِّد؟ إِنَّهَا مِسْكِينَةٌ وَجِبْتُ تَقْدِيمُ الْعَوْنِ
هَآ لَتَحْلِيصِهَا مِنْ ذَاكَ الْفَاسِدِ!".

اِحْتَلَقَ رَحْمَنُ كِذْبَةً تُنَاسِبُ الثَّقَافَةَ السَّائِدَةَ: "لَقَدْ تَدَخَّلَ وَالِدُهَا وَرَفَضَ
الطَّلَاقَ تَمَامًا، وَهَدَّدَنِي بِالْعَشَائِرِ إِنْ تَدَخَّلْنَا فِي أُمُورِهِمْ".

تَنَفَّسَ مُحَمَّدُ الصُّعْدَاءُ وَقَالَ: "إِذْنٌ لَا دَخَلَ لَنَا.. الْقَضِيَّةُ عَائِلِيَّةٌ وَعَشَائِرِيَّةٌ
وَهُمْ أَذْرَى بِشَأْنِهِمْ".

اتَّصَلَ سَيِّدُ رَحْمَنٍ بِلَمِيَاءَ، وَبِنَبْرَةٍ حَاشِعَةٍ مُهَنِّئَةً قَالَ:

"مَبْرُوكٌ يَا لَمِيَاءَ.. لَقَدْ عَادَ مُحَمَّدٌ الْيَوْمَ مِنْ قُبَمِ الْمُقَدَّسَةِ، وَتَمَّ طَلَاؤُكَ
الشَّرْعِيُّ بِحَمْدِ اللَّهِ.. لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَتَحَدَّثِي بِالْأَمْرِ، أَبْقِيهِ سِرًّا مُطْلَقًا لِكَيْ
لَا نَقَعَ فِي مَشَاكِلِ".

أَجَابَتْ لَمِيَاءُ بِفَرَحَةٍ غَامِرَةٍ، وَهِيَ تَنْظُرُ أَنَّ السَّمَاءَ قَدْ فَتَحَتْ هَآ بَابًا:

"بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ سَيِّدَنَا.. وَكَثَّرَ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِكُمْ!".

ساور الشكُّ محمودًا، ولم يجد في جواب السيد رحمن ما يبّد حيرته أو يقنع عقله، لكنه آثر الصمت... ؛ لم يكن من طبعه التسرع في إطلاق الأحكام، وكان يؤمن أن الحقيقة لا تُبنى على الظنون، وأن الله كفيلاً بأن يكشف المستور في أوانه... ، لذلك ترك الأمر للزمن، منتظرًا أن تأتيه الإجابة من حيث لا يحتسب.

وفي تلك الليلة، تمدد على فراشه، لكن النوم جافاه.. ، ظلّ ذهنه مشغولًا بصورة السيد رحمن، يستعيد كلماته، ويوازن بينها وبين تصرفاته، ويتذكر ما كان يتداوله بعض الناس عنه همسًا، ثم يقارن ذلك كله بما يراه كل يوم من خلوّ المسجد إلا من قلةٍ من المصلين، وغياب الوجوه المعروفة بالورع والاستقامة عنه.

كانت الأسئلة تتكاثر في رأسه أكثر مما تتكاثر الأجوبة، حتى أحس أن وراء هذا الهدوء الظاهر سرًّا لم يكشف عن نفسه بعد.

الفصل التاسع : وجه المرأة

بعد تلك الليلة، لم يعد محمود يدخل المسجد بالطريقة نفسها.

كان في السابق يعبر عتبه بقلبٍ مطمئن، أما الآن فقد صار يشعر أن كل حجر فيه يسأله سؤالاً واحداً:

"هل ترى الحقيقة... أم ترى ما تريد أن تراه؟"

جلس بعد صلاة المغرب في آخر الصفوف.

دخل رجل يحمل ظرفاً سميكاً يضم رزمةً من النقود... ؛ ووضعه بهدوء قرب صندوق التبرعات، ثم خرج دون أن يلتفت.

بعد دقائق، جاء سيد رحمن ، فتح الصندوق، وأخذ الظرف إلى غرفته الخاصة.

لم يكن المشهد وحده كافياً للحكم، لكنه ترك في نفس محمود أثراً لم يستطع محوه.

في اليوم التالي، زاره صديق قديم اسمه جابر.

كان يعرف محمود منذ الطفولة.

نظر إليه طويلاً ثم قال:

"تغيّرت."

ابتسم محمود ابتسامة باهتة.

"ربما كبرت."

قال جابر:

"لا... الإنسان لا يكبر في سنة .. , هناك شيء يثقل قلبك."

ظل محمود صامتاً.

ثم قال:

"هل يمكن للإنسان أن يخدع نفسه سنوات أو شهور وهو يظن أنه يرى

الحقيقة؟"

أجابه جابر:

"أحياناً لا يخذعنا الآخرون... بل تخذعنا حاجتنا إلى الإيمان بهم."

كانت تلك الجملة أشبه بمفتاح فتح باباً ظل مغلقاً في ذهن محمود.

بدأ يراقب نفسه بدلاً من مراقبة السيد .

اكتشف أن المشكلة لم تكن في السيد وحده.

لقد كان هو أيضاً يصنع صورة مثالية لكل من يرتدي ثوب الوقار والدين .

وكان كلما ظهرت علامة تناقض، أسرع إلى تبريرها حتى لا تنهار الصورة.

أدرك أن الإنسان قد يصبح شريكاً في الوهم، لا لأنه يحب الكذب، بل

لأنه يخاف الحقيقة.

الفصل العاشر : رؤيا الحق والحقيقة

بعد عودة محمود إلى البيت، ألقى بجسده على الفراش كما يلقي الغريق

نفسه على جذع خشبية بعد صراعٍ طويل مع الأمواج.. , كان التعب قد

استنزف جسده، وأرهقت الحيرة روحه، فما إن استقر رأسه على الوسادة

حتى استسلم لنوم عميق، كأنما أراد العقل أن يفرّ مؤقتًا من أسئلته، وأن يمنح القلب هدنةً قصيرة من ثقل الشكوك.

في تلك الليلة، رأى حلمًا غريبًا.

رأى مسجدًا عظيمًا بلا أبواب.

كلما اقترب الناس منه، وجدوا أنفسهم ينظرون إلى مرايا معلقة على الجدران بدل المحراب.

وكان كل واحد منهم يسجد لصورته دون أن يشعر.

أما في وسط المسجد، فكان طفل صغير يحمل مصباحًا، لكنه كلما اقترب من الناس أطفأوا المصباح بأيديهم، لأن النور كان يكشف وجوههم الحقيقية.

ثم رأى نهرًا يجري تحت الرماد الذي غطّى وجوه المصلين، ورأى العمائم تتحوّل إلى حمامات بيضاء تخلق فوق القباب، وتسمع همسًا يقول له: "يا

محمود، ليس الشريف من ينظف ثوبه عن الأوساخ، بل من يغسل قلبه من

أوهام الناس الذين يلبسون ثياب السماء وهم يحملون تراب الأرض".

ثم رأى سيد رحمن يصعد المنبر، فإذا بصوته يخرج من فم شيطان، بينما

كان وجهه يشبه وجه ملاك.

ورأى ميزاناً عجيباً؛ تُوزن فيه النوايا لا الأعمال، فإذا بكلمة حق قالها

متدين فقير أثقل من آلاف الخطب التي ألقاها معمم منافق.

استيقظ مدعوراً.

وفي تلك اللحظة، وسط ظلام الليل وصمت الكون، سمع صوتاً داخلياً،

صوتاً لا يأتي من الخارج، بل من أعماق نقطة في روحه.. , صوت يشبه

صوت النهر، همس له: "الطهارة ليست في المكان الذي تتواجد فيه، بل في

قدرتك على التمييز بين الماء والسراب، بين الصادق والمنافق، بين بيت الله

وسوق النخاسة... , انخفض، واغسل روحك، وعد إلى ينبوعك الأول".

"يا رب... كنت أبحث عنك في المباني والمساجد ، فاكتشفت أنك كنت

تنتظرنني في ضميري وقلبي ."

كم كنت غافلاً حين هدمتُ مسجدَ القلب الذي أودعته فيّ، وسعيتُ إلى

عمارة مساجدٍ لا يسكنها إلا الرياء... ؛ لقد تركتُ المعبدَ الحقيقي

موحشاً، وأضأتُ قناديلَ النفاق في بيوتِ خاوية من الصدق...

ومنذ ذلك اليوم، أدرك أن أخطر الأصنام ليست تلك المنحوتة من الحجر،

بل تلك المصنوعة من الهيبة الزائفة، والخوف، والتقديس الأعمى...

ولم يعد يسأل عن عدد المصلين.

بل صار يسأل عن صدق الإمام.

ولم يعد يبهره طول اللحية.

ولا عذوبة الموعدة.

ولا كثرة التساييح.

فقد تعلم أن القداسة لا تسكن العمايم، بل تسكن الضمائر.

وأن الدين لا يفسده الملحدون كما يفسده المنافقون.

وأن أخطر اللصوص ليس من يسرق أموال الناس، بل من يسرق ثقتهم بالله.

وأدرك أخيراً أن الشيطان لا يحتاج دائماً إلى أن يهدم المسجد...

يكفيه أحياناً أن يجلس في الصف الأول، ويبتسم، ويقول للناس:

"اتركوا الأمر لي... فأنا أعرف الطريق إلى الله."

وعندما استعاد محمود ذكرياته في مسجد سيد رحمن، أخذت المشاهد

تتدفق إلى ذاكرته تباعاً؛ كأنها صفحات قديمة أعاد الزمن فتحها، أو شريطٌ

صامت أخذ يعرض أمام عينيه كل ما رآه وسمعه وعاشه في تلك الأيام...؛

وشعر بأنَّ كلَّ جدرانِ المسجدِ تضحكُ عليه ضحكةً صامتة، وأنَّ القبلةَ

التي يتجهُ إليها ليستُ في اتجاهِ مكةَ بل في اتجاهِ شهواتِ البشرِ المختبئةِ

تحتَ العمايم...

وصار يقول لكل من يسأله عن الإيمان:

"الإيمان لا يُقاس بطول اللحية، ولا بكثرة الشعارات، ولا بضجيج الخطب... الإيمان الحقيقي هو أن يبقى قلب الإنسان نقيًا عندما تتاح له كل فرص الفساد."

ولما تقدمت به السنون، كتب في آخر صفحة من مذكراته:

"لقد اكتشفت أن الشيطان لا يكره المعابد؛ بل قد يسكنها إذا غاب عنها الصديق.. , وأن الإنسان لا يسقط عندما يخطئ، وإنما يسقط حين يجعل من الخطأ دينًا، ومن الكذب رسالة، ومن استغلال الناس عبادة.. , أما الحقيقة، فهي كالشمس؛ قد تحجبها الغيوم طويلاً، لكنها لا تموت أبدًا."



وحشة المحراب ونفاق المئذنة

وادي الهلاك (28)

**غرور العابدين

كان نذير يعيش حياته مطمئناً إلى حد الغرور.

لم يكن يشك لحظة أنه من أهل الجنة.

كان يصلي، ويصوم، ويكثر من التسبيح، ويحسب حسناته واحدةً واحدةً،

حتى صار يتعامل مع رحمة الله وكأنها استحقاق، لا منحة، ومع الجنة وكأنها

وعدٌ مكتوب باسمه.

وكان كلما سمع أحداً يتحدث عن الخوف من سوء الخاتمة، ابتسم في داخله

وقال:

"ذلك لأنهم يعرفون أنفسهم... أما أنا فأعرف طريقي."

وفي تلك الليلة، توضأ بخشوع، وأطال السجود، حتى ابتلت الأرض

بدموعه.

مسح على لحيته وكأنه يمسح غبار الدنيا عن روحٍ عرفت طريقها يقيناً .. ,
وهو يطوي سجادة الصلاة المخملية، وفي صدره يقين أصلب من الصخر:
أنا من أهل الجنة.

رفع يديه إلى السماء وقال:

"اللهم أكرمني بالفردوس ... فأنا عبدك."

كان يرى عباداته كصكوك غفران مكتوبة ببحر لا يمحي، وينظر إلى بقية
البشر من برج عاجي من الطهر المدعى.

وكان يرى في مرآة الحمام وجهه، فيبتسم؛ ليس غروراً بالملاح، بل غروراً
بالخاتمة... ؛ كان يظن أن الجنة عقدٌ موقّع، وأن النار حديثٌ عن
الآخرين، عن أولئك الغافلين، عن عصاة العصر، عن من لا يصلّون.. ,
أما هو، فاسمه مسطورٌ في عليّين، أو هكذا أوهمته نفسه التي كانت ألدّ
أعدائه، وأبرعهم في التمويه.

لكنه، وقبل أن يجف ماء وضوئه، استسلم لنداء شهوة خفية، و معصية
دنيئة ظن أن ليل الغرفة المظلم سيتستر عليها، وأن استغفاراً عابراً في الصباح
كفيل بمحوها.. , وقال لنفسه:

"إنها هفوة صغيرة... والله غفور رحيم."

نعم , في تلك الليلة، خرج من صلاته كمن خرج للتو من مغسلةٍ روحية،
لكنه قبل أن يخلد إلى فراشه، مرّت به خطيئةٌ صغيرة؛ كلمة جارحة بحقّ
جاره، قالها في نفسه ولم يتلقّظ بها، لكن قلبه ارتضاها.. ؛ ثم نظر إلى
خادمتة نظراً ازدراءٍ خفيفة لأنها أخرت الطعام... ؛ ثم لجأ إلى العادة
السرية، بينما كان خياله ينسج صورةً متوهّمةً لسعاد، زوجة جاره الجميلة،
وكأنها حاضرة أمامه."

لم يتب، بل قال في خلديه مرة أخرى : "الحسنات يُذهبن السيئات، وهذه
صلاة العشاء التي صليتها تكفي لأمثال هذه الزلات".

** الهبوط إلى الرماد

ثم تمدد فوق فراشه مطمئن القلب، كأن الملائكة قد كتبت له صك النجاة.

ضرب وسادته وكأنه يضرب موعداً مع النعيم، وأسدل جفنيه.

هبط به الفراش، لكنه لم يهبط إلى غرفة النوم، بل إلى هاويةٍ سحيقة.

وجد نفسه يقف على حافة جرف ممتد من صخور تشبه العظام النخرة،

سواء المكان كانت مزيجاً كابوسياً من حمرة الدم وسواد الدخان الكثيف.. ,

لم يكن وحده؛ كان هناك الآلاف، بل الملايين، ممن يرتدون أثواباً بيضاء

تلوثت بالرماد، وجوههم تحمل ذات الملامح: صدمة الدهول وإنكار الواقع.

فجأة، شق الفضاء صوت رعدي، لم يكن قادماً من حنجرة بل من جوف

السماء نفسها، صوت يحمل سخرية وجودية مريرة صاحت بالجميع:

"انزلوا إلى هذا المكان! خلصوا أنفسكم من الهلاك إن كنتم تستطيعون! أين

صلواتكم ؟ أين صكوككم , أين دعائكم ؟"

انزلوا أذلاء خاسئين...

لم يفتح عينيه، بل انفتحت عيناه على سقفٍ من زوابعٍ صدئةٍ ودخانٍ
كثيفٍ، كأن السماء هناك هي جوفٌ تنينٍ عجوز... ؛ ثم ثم سمع صوتاً
آخر ينبعث من بعيد ليس له جهة، جهورياً كصوت البوق، يملأ الأفق
ويشقّ الآذان:

"يا معشر المغرورين، يا من افترضتم أنفسكم في دار الكرامة، انزلوا إلى هذا
المكان، وخلصوا أنفسكم من الهلاك، إن كنتم تستطيعون..."

ارتجف نذير ... ، رأى حوله جموعاً من البشر... ؛ كانوا مثله تماماً:
وجوههم تلمع ببقايا ماء الضوء، وثيابهم بيضاء ، وأيديهم ما زالت مرفوعةً
بالدعاء، لكن أعينهم كانت محدقةً كالغزلان المدعورة.

قُذفوا جميعاً في الوادي الأسود.

كان مكاناً أشبه بغابةٍ قائمة، لكن أشجارها ليست من خشب، بل من
عروقٍ نابضة كعروق الذراع، تنبض بالدماء الفاسدة... ، أما التربة فلم
تكن تراباً، بل زبدًا يغلي من تنهداتٍ مكبوتة... ، والأرض رطبة، يغطيها

عشب أسود، وأشجار شاهقة متشابكة، حتى بدا المكان كله كأنه غابة
نبتت داخل الليل نفسه... ؛ وفجأة، انطلقت من أعماق الوادي أصواتٌ
تهز الأرض: صوت زئير ديناصوراتٍ مهيبة، لم يرها نذير إلا في أفلام الخيال
العلمي والذكاء الاصطناعي .. , لكنها هنا لم تكن نماذج رقمية، بل لحمًا
ودمًا، أعينها جمر، وأنيابها حجارة، وأشواك ظهورها تحمل جماجم بشرية.
ومعها، أفاعٍ خضراء، طويلة كالجسور، تتلوى بين الأشجار، وأعينها بحجم
الصحون، تنظر دون أن تطرف، كأنها تعرف كل ذنب ارتكبه كل إنسانٍ
هنا.

ثم انشقت أرضُ ذلك المكان الأسود كبركانٍ ثائرٍ يلفظ حممه الملتهبة،
وانبعث منها صراخٌ مدوّ مفزع، يهزُّ الأرجاء كدويّ القصف العنيف :
"يا معشر من ظنّ أنه ابن الجنة ووارث الفردوس، انزلوا إلى هذا الميدان
الأسود! انزلوا إلى هذا المكان، وخلّصوا أنفسكم من الهلاك إن كنتم
تستطيعون!"

ارتجف نذير، تراجع خطوة إلى الخلف وهو يهمس بدعر: "هذا خطأ... أنا

نذير!

أنا من قوامي الليل! لا يمكن أن أكون هنا!"

ألقي نذير مع آلاف البشر كما تُلقى الحجارة في بئر سحيقة.

صرخ الرجال.

وبكت النساء.

وتعلقت الأيدي بالأيدي.

ثم رفع بصره إلى السماء كعادته في الدنيا، فإذا هي سماء غريبة لا تشبه ما

عرفه من قبل؛ سوداء حالكّة، خالية من النجوم والقمر والأفق... ؛ وكان

الهواء يثقل الأنفاس، كأنه مزيجٌ خائئٌ من الكبريت والدخان.

بجانبه، كانت تقف امرأة تجثو على ركبتيها، تمزق ثوبها الأبيض المذهب

وتصرخ: "لقد بنيتُ ثلاثة مساجد! تصدقتُ بنصف مالي! كيف انتهى بي

المطاف في وادي الهلاك؟"

صرخ رجل بجوار نذير:

"لقد كنت إمام مسجد!"

صرخت امرأة:

"كنت أحفظ القرآن!"

وصاح شيخ:

"لقد حججت سبع مرات!"

لكن الغابة لم تكن تصغي لأحد.

وكأن المكان كله لا يعرف اللغة التي يتحدث بها البشر.

** حصاد الاروح

قبل أن يجدوا جواباً، اهتزت الأرض الرمادية، وظللت السماء كائنات

عملاقة، سريالية التكوين... ؛ لم تكن شياطين بقرون تقليدية، بل كانت

تجسيدا هندسيا مرعبا لآثام البشر؛ كائنات مشوهة بلا وجوه، تتداخل

أطرافها كالمقاصد الحديدية، وتتحرك بآلية باردة خالية من أي رحمة.

وبدأت المجزرة ...

رأى نذير بأمر عينيه كيف أن تلك المخلوقات العملاقة لم تكن تفترس الناس

بقوة، بل بدقةٍ جراحية... ؛ كانت الديناصورات الضخمة تلتقط البشر

كما تلتقط الدجاجة حبات الذرة الصغيرة؛ تلتقط الرجل من قميصه، ترميه

في الهواء، ثم تبتلعه دفعة واحدة، وعينها لا ترمش... ؛ البعض الآخر

كانت الشعابن تعصره كأنه ليمونة، حتى تفرغ روحه وتلقي بجسده الجاف

جانبا.

أما أصوات البشر، فكانت أغرب من صراخهم... ؛ كانوا يرددون آيات

القرآن، يصلون، يستغفرون، لكن الكلمات كانت تسقط على الأرض

كقطعٍ من الصمغ، لا تعلو إلى السماء.

رأى نذير رجلاً كان يظن نفسه عالماً جليلاً يُلتقط من قفاه ويهرس في
جوف الكائن المرعب كحبة قمح جافة... ؛ و رأى امرأة علوية هاشمية
كانت تظن أن نسبها يشفع لها تُخطف في الهواء وتتلاشى.

الوجود في الوادي الاسود جرد الجميع من ألقابهم، من هندامهم، ومن
أوهامهم.. ، الكل أصبح مجرد "حبّات" صغيرة في معصرة الحقيقة الإلهية.
بدأ البشر بالركض... ؛ تحول المشهد إلى لوحة مربعة من الذعر
الجماعي... ؛ انطلق نذير يركض، يفرز جسده أدريالين الخوف
الوجودي، يرى المفارقة الصادمة أمامه: كان البشر، بكل كبريائهم
وعقائدهم وزهوهم الدنيوي، يركضون ويتعثرون... ؛ بينما تلك الكائنات
تلاحقهم وتبسط أطرافها الطويلة.

رأى ديناصورات لها عيون تحترق بلهب السموم، وأفاعٍ تفوق طولها مئات
الأذرع، تزحف بينهم، لا تلهث وراء الأجساد فحسب، بل وراء الأرواح...
؛ انتشر الذعر والرعب كما تنتشر النار في الهشيم... ؛ ركض الناس في
كل اتجاه، لكن الوحوش كانت تلتقطهم كما تلتقط الدجاجة الحب

الصغير من الأرض؛ بسرعة هائلة، بلا رحمة، تارة بمنقار ضخمة يخرق
الجسد، وتارة بذيل يلف العنق ويسحقه... ؛ صرخات الذبح كانت تملأ
الأرجاء، لكن الغابة كانت تبتلع الصوت كأنه لم يكن.

رفع نذير رأسه مرة أخرى الى السماء من هول المشهد ...

فرأى مخلوقات لم ير العقل مثلها قط.

ديناصورات بأحجام الجبال.

أفاعي خضراء، أعينها بحجم النوافذ، وألسنتها تتشعب كأنها شقوق في
النار.

وحوش لا أسماء لها.

وأجساد تمشي على عشرات الأرجل.

وكانت كلها جائعة.

جائعة بطريقة لم يعرفها الخيال.

ثم بدأت المطاردة الثانية .

لم تكن الوحوش تركض...

بل كانت الأرض هي التي تقرّبها من الناس.

وكان البشر يفرون بكل ما بقي فيهم من أمل.

لكن الوحوش كانت تلتقطهم .

بلا مقاومة.

بلا رحمة.

بلا اكتراث.

كان الإنسان يصرخ...

ثم يختفي.

وكأنه لم يكن موجودًا قبل لحظة.

** الحوار الفلسفي: مواجهة الذات

أثناء ركضه الهستيري، سقط نذير في حفرة ضيقة، ليجد نفسه وجهاً لوجه مع شيخ طاعن في السن، كان يرتدي عمامة ممزقة، لكنه لم يكن يركض، بل كان يجلس هادئاً، ينظر إلى الكائنات بعينين مألّهما الندم العميق.

* نذير (وهو يلهث ويدفع الشيخ): "قم اركض! ستلتقطنا! كيف يحدث هذا؟ أنا مؤمن! أنا أفضل من هؤلاء العصاة!"

* الشيخ (بابتسامة مكسورة وسخرية سوداوية): "إلى أين أركض يا بني؟ لا ركض يجدي هنا.. ؛ الأرض سجن، والسماء سقف من نار."

* نذير: "لكنني صليت! صليت حتى تورمت قدماي! كيف تساويني هذه الكائنات بمن لم يسجد قط؟"

* الشيخ (يهز رأسه): "أنت لم تكن تصلي لله يا نذير...؛ كنت تصلي لتبني صنماً حول كهريائك.. ، كنت تشتري الجنة بعُجبك.. ، هل تذكر ليلتك الأخيرة؟ تلك المعاصي التي استهنت بها لأنك ظننت أن رصيدك عند الله يسمح لك بالقليل من القذارة؟"

* نذير (يتلثم والصدمة تشله): "إنها... إنها هفوة... الله غفور..."

* الشيخ: "الله غفور لمن انكسر قلبه، لا لمن تجرأ على المعصية اتكالاً على

طاعته!

لقد عبدنا أصنامنا الداخلية؛ عبدنا 'ذواتنا المؤمنة' ونسينا الله.. , انظر

إليهم... (يشير إلى الجموع)... ؛ كلهم ظنوا أنهم صفوة الخلق، والآن

يُلتقطون كالحب، لأن قلوبهم كانت فارغة من الداخل، كقشور القمح."

** هروب نذير

جري كالمجنون، يتخلّى عن جلبابه الأبيض الذي كان مصدر فخره، تخلي

عنه لأنه أصبح يعيقه ...

ركض نذير حتى تمزقت قدماه...

وأخذ يردد:

"أنا مؤمن... أنا من أهل الجنة... لا بد أن هناك خطأ... لا بد أنهم سيعيدونني..."

وجد خلف أجمةٍ من الشوك الأسود محبباً صغيراً.. , زحف إليه، يضع يده اليمنى على فمه ليكنم شهيقه.. , كان قلبه يخفق كطبول المعركة... وراح يرتجف.. , في تلك اللحظة، لم يعد "نذير المؤمن"، بل أصبح "نذير الخائف".

سمع خطواتِ أصدقائه السابقين يُفترسون واحداً تلو الآخر... ؛ ثم سمع رجل الدين الفلاني وهو ينادي باسم الله، فجاءت أفعى عملاقة وضربتة بذيلها فتحول إلى تمثالٍ من الملح...

كان يرى أبا زيد - جاره الذي احتقره - يركض قربه، فتخطفه يد عملاقة وتقذف به في فم زاحف، وسمع أبو زيد يصرخ: "أين حسناي؟! " ثم تلاشى... ؛ صُعق نذير، بدأ يعدّ تسبيحاته التي حفظته في الدنيا، لكن الكلمات جفت على لسانه، كأنها تتحول إلى رماد يخرج مع زفيره.

**مواجهة الافعى العملاقة

ثم سمع صوتاً خلفه.

صوت احتكاك شيء ضخم بالأرض.

استدار ببطء...

فرأى أفعى خضراء هائلة.

كانت عيناها ساكنتين بصورة مرعبة.

لا غضب فيهما...

ولا شفقة.

فقط يقين.

لم تكن كباقي الأفاعي؛ لونها كالياقوت الأخضر الفاتح، وعيناها كمرأتين

كبيرتين، تنعكس فيهما صورة نذير وهو طفلا , صغيراً، شاباً، كهلاً، وفي

كل مرحلة كان وجهه مغطىً بقناعٍ من الكبرياء.. , كانت تنظر إليه بنظرةٍ
ليست مفترسة، بل نظرةً الذي يعرف كل ما خبأه صدره.

اقتربت حتى صار رأسها فوق رأسه.

همس نذير مرتجفًا:

"أنا أصلي..."

ولم تجب.

قال:

"أنا صمت رمضان."

فسكتت.

قال:

"أنا لست مثلهم."

فمالت برأسها قليلًا...

وكأنها تسأله سؤالاً واحداً:

"ومن قال إنك كنت تعرف نفسك؟"

لم تكن تنظر إليه بعنف الحيوان، بل بفضول الفيلسوف الذي يقرأ روحاً..
، توقف نذير عن الحركة، لاحظ أن الأفعى تتجاهل الآخرين، وكأنها
مبعوثة خصيصاً لأجله...

ثم همست بصوتٍ أزيزي يشبه الحفيف: "أين صلاتك الآن يا نذير؟ أين
سجودك الذي كنت تراه مفتاحاً للفردوس، وأنت تحمل في جيبك الآخر
احتقار الجيران، وازدراء الخادمة، واستباحة الخيال في اشتهاٍ نساء الآخرين
، وعظمة النفس التي تظن أنها لا تخطئ؟"

مدّت الأفعى رأسها ببطء شديد، ورغم قدرته على الحركة، أصيب نذير
بشلل روحي.. ، رأى في عينيها انعكاس صورته المتكبرة وهو يرفع يديه
بالدعاء كالمملك، وفي اللحظة التي فتح فيها فاه ليقول "أستغفر الله"، كانت

أنياهما تغرس في يده اليمنى - يد الأعمال، يد الصلاة، يد التسبيح، يد
التصدق - تلك اليد التي كان يظنها مفتاحاً للجنة، أصبحت الآن جرحاً
ينزف شعوراً بالانكشاف.

شعر وكأن السم لم يدخل عروقه... ، بل دخل غروره.

لم يشعر بالألم أولاً، بل بشيء يشبه التيار الكهربائي يجري في ذراعه... ،
سمع طقطقة العظام، وشعر بأن كل الحسنات التي جمعها على هذه الكفّ
تتحول أمام عينيه إلى رمادٍ أسود يتساقط... ؛ صرخ صرخةً لم يخرج فيها
باسم الله، بل باسم نفسه التي كانت تهوي: "أنا! أنا نذير ! أنا من كان
سيدخل الجنة!"

لكن الأفعى زادت عضّتها، وفي عينيها رأى انعكاساً لحقيقته: لم يكن مؤمناً
حقيقياً، بل كان مؤمناً بنفسه وبصلاته وبعمله، وليس بالله وحده.. ، كان
جحيمه هنا، في هذا الوادي، ليس عقاباً، بل كشفاً.

ثم أطبقت أنيابها على يده اليمنى بقوة ، وشعر بعظامه تتكسر، وبأوهام
عمره تتبخر في ثانية واحدة... ؛ صرخ بكل ما أوتي من قوة، صرخة هزت
أركان روحه: "ربّ ارجعون!"

وقبل أن تغيب روحه، صاح في أعماقه سؤال وجودي: "إن لم أكن أنا من
أهل الجنة، فمن يكون؟"، فأجابت الأفعى وهوامش الغابة معاً: "أهل الجنة
هم الذين يخافون النار في كل لحظة، ويعلمون أنهم لا يستحقون شيئاً، وأن
الباب مفتوح بالفضل لا بالثمن... ؛ أنت جعلت من صلاتك برجاً
يافعاً، ومن طاعتك سوراً حديدياً، وظننت أنك خلقت لتعيش في
القصور... ؛ و النار التي تراها هنا ليست جهنم الموعد، بل هي انعكاس
غورك في مرآة الحقيقة."

** اللحظة الوجودية والاستيقاظ

في تلك اللحظة - لحظة تقاطع الأنياب مع الجلد - استيقظ نذير فجأة
على صوته المرتفع، والعرق البارد يغمر جبينه، والكآبة تغشى قلبه كسحابة

ثقيلة.. , نظر إلى يده اليمنى: سليمة، لا أثر للجرح، لكن روحه كانت
مجروحةً إلى الأبد.

في تلك الهزيع الأخير من الليل، أدرك أن الجنة ليست وجهةً لمن يحفظ
الأعمال، بل هي أملٌ يبقى القلب خائفاً راجياً، وأن النار التي رآها لم تكن
مكاناً للعذاب الأبدي بقدر ما كانت - في تلك الليلة - كشفاً لـ "أنا"
الزائفة التي بنى حولها معبده.

نفض نذير من فراشه، وتوضاً مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يدعُ بطلب
الجنة، بل بكلماتٍ يابسةٍ من خشوعٍ حقيقي:

"اللهم إن كنتَ كتبتني من أهل النار، فهوها عليّ، لكّني أسألك أن تمحو
من قلبي اعتقادي بأني أهلاً لجنّتك، وأبدله بخوفٍ يليق بعبدٍ بين يديك."

ذلك الحلم لم يغادره أبداً.. , كان كلما رفع يده اليمنى ليتصدق أو
ليسبح، يشعر بوخز خفي، يذكره بأن هناك جحيماً داخليةً أكبر من نار
الغابة التي رآها: جحيم الاستحقاق.. , وهكذا، تعلّم نذير أن أخطر أنواع

الكفر ليس إنكار الرب، بل إنكار احتمالية الخطأ في النفس، وأن الجنة الحقيقية تبدأ حين يعتقد الإنسان أنه لا يستحقها، فيعمل رجاءً لا استحقاقاً، ويخاف حباً لا عقاباً.

ثم قام ليصلي صلاة الفجر، لكنه هذه المرة، لم يرفع يديه للتكبير، بل رفعهما ليقول بصدق لأول مرة: "الله أكبر"—أي أنه لا يوجد شيء أكبر من حقيقة أنه لا حول له ولا قوة إلا به ، وأنه بين لحظةٍ وأخرى قد يكون فريسةً حقيقةً نفسه التي تغافل عنها طويلاً.

ونام بعدها هادئاً، ليس لأنه آمن، بل لأنه عرف أنه خائفٌ حقاً، وهذا الخوف هو بداية الطريق الوحيد للنجاة.

لم يعد نذير يخاف الجحيم وحده.

بل صار يخاف أن يخدعه شعوره بالأمان.

وأدرك أن أخطر المعاصي ليست تلك التي تُرتكب بالجوارح فحسب...

بل تلك التي تجعل الإنسان يظن أنه قد ضمن النهاية.

فالإيمان الحقيقي لا يولّد الغرور...

بل يولّد تواضعًا، وخشيةً، ورجاءً لا ينقطع.

ولعل أقسى الغابات ليست تلك التي رأيناها في المنام...

بل تلك التي تنبت بصمت داخل النفس، حين يتحول الاطمئنان إلى يقين

بالنفس، ويحلّ الأمن من المآل محلّ الخوف من التقصير.



وادي الهلاك

نعيّ على جناحيّ ططوة (29)

عاد من المدرسة يجرّ خطاه في الازقة المتعرجة ...

كانت حقائب الكتب تثقل كتفيه، وكأنها نعوش صغيرة تحمل أحلامه إلى مقبرة المدرسة ..

وفي رأسه ضجيج امتحانات البكالوريا للصف الثالث المتوسط، وكان يظن أن أقسى ما في ذلك النهار هو أسئلة الرياضيات .

تلك الهواجس التي تحوّلت في ذهنه إلى طيور سوداء تنقر جدار الجمجمة من الداخل... ؛ صف الثالث متوسط، وعالمه يضيق حتى صار بحجم ورقة أسئلة...

وما إن بلغ باب الدار حتى رأى في السماء مجموعة من طيور الططوة ، تشق السكون بصياحها الحاد.. , وبدأ صوتها يتكسر على جدران الدار كزجاج منشور ...

طالما سمع محمد صيحات طيور الططوة... ؛ لكن الصيحات هذه المرة كانت مختلفة.. ؛ لم تكن مجرد صياح عابر، بل نحيبًا طويلًا، كأن طيور الططوة تبكي على ماضٍ لا تعرفه، أو مستقبلٍ تقرأه من علوها.

هنا، أوجس محمد في نفسه خيفة، و ارتجف شيءٌ خفيٌّ في داخله...

حاول أن يستجمع كل دروسه، أن يتذكّر أنه يرفض فكرة الطيرة والتشاؤم

...

كان محمد يسخر دائماً من خرافة التشاؤم، ويرفض أن يُحمّل طائرٌ صغير

وزرَ أقدار البشر.. ؛ يهز رأسه بفلسفة المراهق المتمرد: "خرافات! الطير

طير، والنحس في عقول الناس لا في أجنحته..." ؛ لكنه، لأول مرة، شعر

أن الوعي قد يخسر معركته أمام خوفٍ قديم يسكن الذاكرة أو اللاوعي

أكثر مما يسكن الحقيقة.

تذكر محمد كلام مدرس مادة العلوم استاذ فاخر ؛ اذ قال في احدى المرات

: إن الطيور لا تنذر...

وتذكر أن أقاربه وجيرانه الجهلة وهم من يصفون الشخص المنحوس أو

الفقير أو البائس بأنه "ططوة"...

لكن صياح الطائر اخترق دفاعاته المنطقية مثل مسمار حديدي يُدَق في خشب رطب... ؛ شعر ببرودة تسري في عموده الفقري... ؛ لا يدري لماذا، رأى وجه عمه عصمان فجأة مبتسمًا في المسافة القصيرة المؤدية الى

باب الدار ، ثم لَوَّح له بيده كمن يودّع...!!

دفع الباب بيدٍ متردة... ؛ وهو يصارع هذا الهاجس، وصياح الططوة ما زال يجلد أذنيه من السماء ومن أعلى سطح الدار...

لحظة دخوله الى البيت ؛ انقطع صياح الطيور فجأة، وحلّ محله رنين الهاتف الأرضي.. ، لم يكن رنينًا عاديًا، كان صدى الصياح نفسه لكن بصيغة معدنية، كأن الططوة تحوّلت إلى صوت الجرس وهي تحتضر في سمّاعة البلاستيك...

رفعت أمه السماعة. ارتسم كل شيء في البيت بطيئًا، الساعة المعلقة على الجدار توقفت عقاربها، ذرات الغبار العائمة في شعاع الشمس تجمّدت،

ويد أمه التي أمسكت السماعة صارت من زجاج شفاف يظهر تحته عظم

خائف... ؛ رأى محمد وجهها ينهار قبل أن ينطق المتصل بشيء...

تحول وجهها، ذلك الوجه الذي عرف كيف يصمد أمام قسوة الأيام، إلى

لوحة تجريدية من الدهول...

ثم صرخت.. ، لم يكن صراخًا، بل كانت الططوة كلها تخرج من فمها،

ريشًا أسودًا وكلمات مبحوحة...

صرخت صرخة لم تكن من حنجرتها، بل من روحها كلها:

يُمّه محمد... يُمّه محمد... عمّك عصمان مات... عمّك اللي شال حملنه

بعد موت أبوك... لحاك أبوك بتراب النجف... عمّك الزين مات... يُمّه

محمد... وين نروح؟ منو إله بعد؟!

سقطت حقيبة المدرسة من يده...

كل شيء في البيت بدأ يتقلص.. ، النوافذ انكمشت، وسقف الدار هبط

ليمسح على رأسه بيتّم مفاجئ.. ، كلماتها " مات عمك عصمان .. ،

عملك الزين مات ... " تحولت إلى مطارق حديدية تضرب الأرض تحت قدميه، ليتطاير الإسمنت ويتحول إلى غبار تطفو فيه ذكريات عمه الراحل: ابتسامته، كفه الدافئة، وثقله الذي كان يستند إليه البيت بأكمله...

وقف محمد مذهولاً، مشدوهاً في بؤرة السريالية المريرة؛ عقله الواعي يرفض أن طائراً جلب الموت، لكن روحه الخائفة رأت الطائر يطير كظلالٍ ممتدة داخل الصالة، يمسح بجناحيه على دمع أمه، مخلفاً وراءه حقيقة واحدة مرعبة: لقد انكسر الظهر، وتبخر السند، وباتت أسئلة البكالوريا مجرد حبر تافه على ورق لا قيمة له أمام امتحان الفقد المباغت...

بعدها أيقن محمد أن التشاؤم لم يكن خرافة، بل كان تأويلاً حزيناً تتعلمه الروح حين تشم رائحة الغياب عن بعد ...



نعي على جناحي ططوة

نسخة من أبيه (30)

في تلك اللحظة التي عبرت فيها القابلة عتبة الغرفة، تحمل بين ذراعيها كتلةً
ورديّة صغيرة تصرخ معلنةً ميلادها، اجتاح خالد شعورٌ غامضٌ بالغبّة... ؛
اقترّب ببطء، وحقق في عيني المولود الواسعتين؛ كانتا تلمعان ببريقٍ لم

يألفه... ؛ ثم أعاد النظر في ملاحظه مرةً بعد أخرى، باحثًا عن شيءٍ من نفسه، فلم يجد سوى وجهٍ غريب، كأن كائنًا هبط من مجرةٍ أخرى ليعيث في يقينه وحيرته.

وقال في قرارة نفسه:

«هذا الوليد لا يشبهني... إنه صياغةٌ خاطئةٌ لقصةٍ لم أكتبها»

اطمأن قلبه لهذه الغربة العابرة، ومضت الأعوام وهي تُراكم بينهما تفاصيل الحياة أكثر مما تُراكم ملامح الوجوه...

لكن حين بلغ حسّون عتبة المراهقة، انقلب المشهد دفعةً واحدة... لم يتبدّل وجهه فحسب، بل تبدّلت نبرته، وانفعالاته، وصمته، وغضبه، وحتى طريقته في النظر إلى المرايا... ؛ كان كأنما الأب قد خرج من جسده القديم، واستأنف حياته في جسد آخر.

كانت حركاته العفوية، طريقة قضم أظافره عند القلق، ونظراته الشاردة نحو الأشياء؛ كلها تفاصيل تسللت من مسامات خالد لتسكن جسده... ؛

لم يعد "هو" ... لقد تبرعم خارجه وأصبح "خالد"، نسخة سريالية متجذرة
في حاضرٍ يطارد ماضي.

عندها فقط، أدرك خالد : أن الشبه الحقيقي لا يُقاس بتضاريس الوجوه في
البدايات ، بل بتضاريس الأرواح في النهايات .

فتذكّر مقولةً تُنسب إلى بعض الفلاسفة الأمريكيين: "الابن هو الكتاب
المفتوح لحياة أبيه."

وأيقن، في لحظةٍ أقرب إلى الهذيان الوجودي، أن الإنسان لا يورث أبناءه
ملاحمه فحسب... بل يورثهم فصولاً كاملةً من ذاته، حتى تلك التي ظنّ أنه
دفنها إلى الأبد.

في تلك اللحظة أدرك أنه لم يُنجب طفلاً، بل أنجب امتداداً لقلقه
الوجودي... ؛ وأن «حسون» لم يكن إلا المرأة التي كسرّها بيديه، غير أن
شظاياها لم تمت، بل عادت لتلتئم في وجه مراهق يحمل ملاحمه، وتواجهه
بالحقيقة التي أفنى عمره وهو يفر منها.



من رأى وجهي ثانيةً (31)

تعرفتُ على ظليّ قبل أن أعرف اسمه.. , كنّا جسداً برأسين، وقلباً يضحّ
دماً واحداً في حلمين متجاورين.. , ثم افترقنا كما تفرق القارات، بصمتٍ
بطيء، لا يُسمع له صوت ولا يُرى له غبار.

وبعد خمسة عشر عاماً، لمحتُه في بهو الفندق، تحت ثريّاً تفيض ضوءاً
مسفوحاً كالعسل.. , كان وجهه هو، لكنّه ليس وجهه.. , كانت عيناه
هما، لكنّ بهاءهما قد نُزع واستُبدل بزجاجتين ملساوين تعكسان العالم دون
أن تبثّلتا بشيء منه.

كان كمن أعار جثّته لشخص آخر، شخص لم ألتق به قطّ.
اقتربنا.. , مددتُ يدي فمدّ يده.. , تصافحنا كما يتصافح الغرباء في
مؤتمر، والأصابع تلمس الأصابع دون أن تتعارف الخلايا، دون أن تستيقظ
ذاكرةُ الجلد.

جلسنا.. , صبّ لنا النادل ماءً بارداً.. , نظرتُ إلى كأسِي فرأيتُ وجهي فيه مشوّهاً بالتكتّف... ؛ ثم سمعتُ صوتاً يخرج من فمِ الجالس قبالي، صوتاً محايداً كنشرة أخبار، يسأل عن عملي، عن زواجي، عن أولادي.. ؛ كنتُ أجيب وكأنني أملأ استمارة.. ؛ كان هو أيضاً ينتظر دوره ليملأ استمارته. وفجأة، وأنا أحدّق في الفراغ الواقع بين حاجبيه، رأيتُ الفتى القديم جالساً هناك، في تلك المسافة الضيّقة، متكوراً كجنين ميت، يرتدي وجهه الأوّل، ويتسم ابتسامته التي لا يشاركني فيها أحد.

كان هناك، لكنّه بلا نبض.. , كان محفوظاً في الذاكرة كما تُحفظ الفراشات المثبّطة بدبايس في صناديق زجاجية، ألوانها باقية، لكنّ طيرانها قد مات.

نُحضنا..

قال: "سرت بلقائك".

قلتُ: "وأنا أيضاً".

كذبنا معاً، كذبةً واحدةً مشتركة، ربما كانت آخر ما تبقي من صداقتنا.

مشيتُ في الردهة الطويلة نحو باب الفندق الدوّار، وكان ظلي يسير خلفي
مطيعاً، وفيّاً، صامتاً.. , فكّرتُ كم نحن وحيدون حتّى ظلالنا تخوننا حين
نكبر، إذ تصير أطول مما ينبغي، كأكاذيب تُمدّ على الأرض لتغطّي شيئاً لم
يعد موجوداً.



من رأى وجهي ثانيةً

قفل الروح (32)

كان حميد جالسًا في غرفته الصغيرة , في الطابق العلوي من المنزل .. ,
تحيط به الكتب من كل جانب؛ فلسفة وتاريخ وأدب وعلم نفس.. ,
وكان غارقًا في قراءة كتاب عن معنى الحرية، حين دوى طرقٌ عنيف على
الباب.

. بابا!.. بابا!.. افتح الباب!

ابتسم حميد وهو ينهض ببطء.

. نعم يا حسوني، قادم يا حبيبي.

فتح الباب، فاندفع حسين إلى الداخل.. , كان وجهه الصغير مكفهراً
على غير عادته، وعيناه تحملان تلك المرارة التي لا يعرفها إلا الأطفال حين
تصطدم رغباتهم الأولى بجدار الواقع.

قال وهو يكاد ييكي:

- بابا، قلت لك أكثر من مرة إنني أريد جهاز ألعاب (بلاي ستيشن) ..

؛ كل أصدقائي يملكون واحداً.. , أنت دائماً تطلب مني أن أبقى في

البيت وألا أخرج إلى الشارع، وألعب مع الأطفال المشاغبين , فلماذا لا

تشتريه لي؟

ربت حميد على رأسه.

- يا روح أبيه، والله لو كان الأمر بيدي لفعلت.. , لكن المال الذي

استلمته -الراتب التقاعدي - أمس يكفي بالكاد لمصاريف البيت.

رفع الصبي حاجبيه مستغرباً:

- ألسنتُ أنا من البيت؟

ارتجف شيءٌ في صدر حميد.

- بل أنت البيت كله يا بني.

لكن الكلمات لم تُقنع حسين.

استدار الصبي وغادر وهو يجرّ خيسته خلفه كظلّ طويل.

أغلق حميد الباب وعاد إلى كرسیه.. , إلا أن الكتاب بقي مفتوحًا دون
أن يقرأ منه حرفًا واحدًا.

كان هناك بابٌ آخر قد انفتح داخله.

بابٌ قديم.

بابٌ يقود إلى طفلٍ نسيه الجميع.

حتى هو.

تذكر فجأة تمثيلية شاهدها في ثمانينيات القرن الماضي... ؛ كان بطلها
طفلًا فقيرًا يقف خلف واجهات محلات الألعاب، يراقب الأطفال الآخرين
وهم يضحكون، بينما يقف هو خارج الفرحة كمتسوّل على أبواب مدينة لا
يدخلها.

ثم كبر ذلك الطفل.

وصار رجلاً ناجحًا.

امتلك بيتًا وسيارةً فاخرة ومالًا وفيرًا.

لكن جرحه بقي صغيرًا كما هو.

وفي إحدى الليالي، أوقف سيارته أمام محل ألعاب.

كسر الباب.

دخل.

وأخذ عشرات الألعاب.

وحين جاءت الشرطة وجدت صندوق النقود ممتلئًا كما هو.

لم يسرق المال.

لقد سرق طفولته.

أو حاول أن يستعيدها متأخرًا.

ابتسم حميد بمرارة.

كان يومها قد استغرب القصة.

أما الآن فقد فهمها.

فبعض الفقراء لا يكبرون.

إنهم يغيّرون أحجام أجسادهم فقط.

وتذكر حديث زميله غسان.

اذ كان يروي بحزن وأسى ؛ كيف عاد جارهـم الحاج عمر من الحج محمّلاً

بالألعاب النادرة لأطفاله.

كانت ألعاباً لا يراها أطفال العراق آنذاك إلا في الأحلام.

ضحك الرجال يومها.

أما الأطفال فظلوا يتذكرونها سنوات طويلة.

فالأشياء الصغيرة التي ينساها الكبار تصبح عند الصغار أحداثاً مؤسّسة

للحياة.

أغمض حميد عينيه.

وغاص أعمق.

أعمق بكثير.

رأى نفسه طفلاً.

لم يكن يطلب الألعاب.

لم يكن يبكي.

لم يكن يحسد أحداً علناً.

بل كان يقف متعالياً.

يقنع نفسه بأنه أكبر من اللعب.

وأذكى من الأطفال.

وأعمق منهم.

كان يحتقر رغباته كي لا يشعر بعجزه عن تحقيقها.

وكان يسمى الحرمان زهدًا.

ويسمي العجز حكمة.

ويسمي الخسارة استغناءً.

والحقيقة : لم يكن حميد ذلك الطفل المكتفي بذاته، المتعالي عن اللعب.. ,
لم يكن ينظر إلى أقرانه نظرة استصغار لأنه أسمى منهم، بل لأنه كان
يخاف.. , كان يخاف أن يطلب من والده لعبة فيسمع "لا"، كان يخاف
أن يواجه عجز والده، أن يرى في عينيه ذلك البريق المنكسر الذي يراه الآن
في عيني نفسه حين ينظر في المرآة.. , فاختار الصمت.. , اختار
التعالي.. , اختار أن يقفل باب الرغبة جملة وتفصيلاً، ظناً منه أن إنكار
الاحتياج هو القوة بعينها... .

وحين كبر اكتشف أن النفس لا تنسى.

إنها تدفن فقط.

وما يُدفن في الطفولة يعود يوماً بثياب أخرى.

قد يعود خوفًا.

أو بخلاً.

أو قسوةً.

أو شعورًا غامضًا بالنقص لا يعرف الإنسان مصدره.

وفجأة أدرك حميد حقيقةً أربكته:

لم يكن حسين هو الذي يطلب جهاز الألعاب.

كان الطفل المختبئ داخله هو من يطلبه.

ذلك الطفل الذي ظل نصف قرن جالسًا في زاوية الروح ينتظر أن يلتفت

إليه أحد.

نهض حميد من كرسيه.

نزل الدرج مسرعًا.

كانت زوجته ترتب أوراق الراتب التقاعدي .

مد يده وأخذ المبلغ.

نظرت إليه باستغراب.

- إلى أين؟

ابتسم للمرة الأولى منذ أيام.

- سأصطحب ولدي إلى السوق.

- ولدي حسوني؟

قال وهو يتجه نحو الباب:

- نعم...

حسين...

وطفلاً آخر تأخر كثيراً في الحصول على لعبته.

ثم نادى بصوت عالٍ:

- حسوني!.. تعال يا بطل... هيا بنا.

خرج الطفل راكضاً.

نعم ، خرج حسوبي مذهولاً، لم يصدق.. ، لكنه رأى في عيني أبيه شيئاً
مختلفاً، شيئاً يشبه الدموع التي لا تسيل. شيئاً يشبه الاعتراف.

في الطريق إلى المحل، كان حميد صامتاً، لكنه كان يتكلم لأول مرة مع ذلك
الطفل الصغير الساكن في أعماقه.. ، كان يقول له بصمت: "سامحي لأني
خفت وكبت الرغبات ودفنت الطلبات والاحتياجات .. ، سامحي لأني
ظننت أن القوة في ألا أحتاج.. ؛ سامحي لأني عشت عمري كله أحاول
ألا أكون... ابناً."

عندها شعر أن أحد الأفتال القديمة في روحه قد انفتح أخيراً.
وعندما عادا إلى البيت، والجهاز بين يدي حسين، لم يجلس حميد ليشاهد
ابنه يلعب فقط... ؛ بل جلس ليلعب معه.. ، أمسك بيده وحدة
التحكم، ومضت ساعات لم يشعر بها، حتى التفت إليه ابنه وقال بدهشة:
"بابا، أنت تلعب لأول مرة!"

عندها فقط، بكى حميد.

لم تكن دموعه على الجهاز، ولا على الطفولة الضائعة، بل على الحقيقة المرة: أنه قضى ستين عاماً ليصل إلى هذه اللحظة، ليعرف أن من يحرم نفسه من أن يكون طفلاً، لا يمكنه أن يكون رجلاً... ولا أباً... ولا إنساناً...!!

نام حسين تلك الليلة سعيداً بجهازه، لكنه نام وهو يشعر، لأول مرة، أن أباه قريب منه حقاً، ليس كأب فقط، بل كروح تلامس روحه، كإنسان تحرر أخيراً من سجنه.

أما حميد، فقد جلس في مكتبه بعد أن نام الجميع، وفتح دفتر مذكراته القديم، وكتب في صفحة جديدة:

"ليس أعظم سجون الإنسان ما يُبنى حوله، بل ما بينه داخل نفسه... ؛ والألعاب التي طلبتها اليوم لم تكن لحسين... ؛ بل لذاك الطفل الذي سكنني ستين عاماً دون أن ينطق.. ، اليوم فقط... تكلم."

ثم أغلق الدفتر، وأطفأ النور، وخلد إلى نوم عميق، عميق كأنه أول نومة
لطفل وُلد للتو.



في انتظار المحرقة السماوية (33)

رغم لفحات آب اللاهب، وانقطاع الكهرباء الذي حوّل المدينة إلى فرن
من الطين، كان كاظم عبوس الوجه، مقطب الجبين، يجر قدميه وكأنه يحمل
نعش الدنيا على كتفيه.. , كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن السماء ستمطر

نارًا وكبريتًا، وأن المحرقة السماوية قادمة لا محالة، ليظهر الله الأرض من الفساد... وكان ينتظرها بفارغ الصبر.

في ذلك المساء اللزج، وبينما كان كاظم يعدّ أيام "الفرج" على أصابعه، دوى انفجار هائل هز أركان المحلة .

لم تكن المحرقة السماوية، بل كانت سيارة مفخخة انفجرت في السوق الشعبي القريب.. , تطاير الزجاج، وعلت صرخات ممزوجة بدخان أسود.. ؛ هرع الناس كالسيل، منهم من يركض نحو النار للمساعدة، ومنهم من يهرب منها.

وقف كاظم على سطح بيته المتواضع، ينظر إلى أعمدة الدخان المتصاعدة، وقد علت وجهه ابتسامة غريبة.

ناداه جاره أبو سامر من السطح المجاور بصوت مرتجف:

__ كاظم، شفت المصيبة؟ انفجار بالسوق، الله يستر!

__ أعرف... بدأت العلامات.

_ أي علامات يا رجل؟ الناس تموت هناك!

_ هذه نذر المحرقة التي قلت لكم عنها... ستري، قريباً ستمطر السماء

ناراً... هذا مجرد بداية البروفة.

هز أبو سامر رأسه بأسى ونزل.

كان يعرف هوس كاظم بالروايات الغيبية والرؤى الطلاسمية .. , كان

كاظم يشعر بنشوة غريبة وهو يرى الفوضى، وكأنها دليل على صحة

نظريته...

ثم نزل إلى الشارع المزدحم. رأى الجرحى يُحملون على الأكتاف، والنساء

يولولن، والرجال يصرخون ويسبون "المحتل" و"الإرهاب والتكفيريين"

و"السياسيين الذين باعوا البلد"...

رأى البقال الذي يبكي دكانه المحترق، ورأى صاحب محل العصائر وهو

يوزع الماء على المنكوبين مجاناً، ورأى "إسماعيل" اللص المشهور وهو يسرق

عجلة إحدى السيارات المتضررة مستغلاً الفوضى.

تقدم كاظم من إسماعيل وهو يبتسم:

__ لا تتعب حالك، كل هذه الأشياء ستصبح رماذاً قريباً.

نظر إليه إسماعيل بذعر وهو يحاول فك العجلة:

__ كاظم، أنت أهبّل؟ أبعد وجهك النحس عني! الناس في مصيبة، لولا

أنني أعرفك وأقدّرك، لأوسعتك ضرباً؟!

__ مصيبة؟ بل هي بشارة! النار التي ستمطرها السماء أشد، ستأكل كل

شيء... حتى هذه العجلة المسروقة.

في هذه الأثناء، جاء سعدون، شقيق إسماعيل الذي كان يساعد في رفع

الأنقاض، ويده ملطختان بالدم... ؛ رأى أخاه والمسروقات بجانبه، فصاح

به:

__ يا كلب، يا ابن الكلب! الناس تموت وأنت تسرق؟ والله لأقطعن يدك

بنفسي!

__ اسكت أنت، هذه غنيمة معركة... وأخوك ما يخسر.. , لولا أنني
أحبك لكنت أدميت رأسك.

كادا أن يتشاجرا لولا أن سمعا صوت صراخ قادمًا من نهاية الزقاق.. ؛
كان "سيد جعفر"، وهو رجل متصوف معروف في المنطقة ، يضرب صدره
ويصرخ بصوت ملائكي وسط الجموع المذهولة:

__ ما هذا الذي حدث؟ أين أنتم يا أولياء الله الصالحين؟ هذا عقاب من
الله على ذنوبنا... قوموا للصلاة، استغفروا... استغفروا قبل فوات الأوان!
فقطعه شاب عصبي من بين الجموع:

__ سيد جعفر، بدل ما تصيح، تعال ساعدنا نرفع الركाम، هنالك ناس
محشورة تحت الأنقاض!

__ أنا أساعدهم بالدعاء... الدعاء سلاح المؤمن... ماذا تريدني أن أفعل،
أنا رجل عاجز... أليس لي رب يحميني ويحميهم؟

ضحك كاظم من بعيد وهو يسمع هذا الحوار.. , شعر بأن الجميع يمثلون أدوارهم في مسرحيته الخاصة.

ثم اقترب من سيارة محطة كان أصحابها قد قتلوا، وكانت رائحة الشواء تنبعث من داخلها.. علت وجهه ابتسامة المنتشي، والتفت إلى شاب مرعوب يقف بجانبه:

— أشم رائحة الشواء... الله!

نظر إليه الشاب باشمئزاز وقال: أنت مجنون.. , ثم هرب بعيداً.

في صباح اليوم التالي، انقطع ماء الحي بأكمله.. , تجمع الناس عند حنفية البئر في بيت الحاج محمد البهادلي الوحيدة التي ظلت تعمل، في صف طويل، يتقاتلون على قطرة ماء... وقف كاظم بعيداً، ينظر إليهم وهو يضحك.. ؛ سألته العجوز أم فاضل:

— كاظم، لماذا لا تأتي لتأخذ ماءً كبقية الناس؟

— لا أحتاج الماء يا حاجة .

__ ماذا؟ ستموت من العطش.

__ الماء لا يطفى نار الانتظار... هل سمعت بالحرقة السماوية؟

نظرت إليه العجوز بريية، ثم قالت لابنتها بصوت هامس: "المسكين، صار

عقله عقل المجانين .. , سنرسل له طبق رز."

عاد كاظم إلى سطحه.. , كان مقتنعًا بأن انقطاع الماء هو العلامة

الثانية...

جلس ينتظر المطر الناري بلهفة.. , نظر إلى السماء الصافية بغيومها

البيضاء المتقطعة، فوجدها لا تبشر بمطر، لا ماء ولا نار... ؛ شعر بالملل

يتسلل إلى نفسه...

ثم دخل إلى غرفته، رفع صوت جهاز التسجيل على أنشودة دينية حزينة

عن زوال الدنيا، ثم رفع سماعة جهاز الموبايل واتصل بصديقه الوحيد

"حميد"، الذي كان يعمل في معمل "الببسي" المحلي البسيط في الشارع

المقابل... ؛ ولديه عربة لبيع المشروبات الغازية يقف امامها بعد انتهاء

دوامه في المعمل...

— حميد، ألا ترى العلامات تتسارع؟

— أي علامات يا كاظم؟ انقطع عني ثلج "البيسي" والزبائن يضغطون

علي !

— اذا هذه ليست علامات اخر الزمان ، فأني علامة تنتظر...

توقف عن التفكير بالبيسي، فكر بالحرقة !؟

— كاظم، اسمع مني.. , اترك هذا الكلام الفارغ، وتعال إلى هنا.. ,

ستأتي دفعة جديدة من "الأفلام الأجنبية" إلى محل دانة، فيها فلم هندي

أكشن، يجنن... الممثل يطير في الهواء ويضرب عشرة بيديه وقدميه .

— أفلام؟ محرقة تأتي ونحن نتفرج على أفلام هندية؟! أنت لا تستحق

الخلاص...

__ طيب، أنا لا أستحقه.. , سلامتك.. , سأغلق الخط حتى لا تشحن
السماء نارًا في جوالي المسكين.

أغلق كاظم الخط بضيق.. , ازداد إحباطه.. , رأى من نافذته الغبار يملأ
الأفق، فظنها بداية لسحابة غريبة، لكنها كانت مجرد سيارة نقل كبيرة تمر
في الشارع التراي... ؛ ثم عاد إلى سريره، أطفأ الضوء، وغطى وجهه.. ,
كان الصمت يخيم، لا يقطعه سوى طنين مروحة غرفته وهي تتحرك وتدور
بصعوبة.

وفجأة، سمع صوتًا عاليًا، هسهسة قوية، ونورًا ساطعًا ملأ الغرفة.. , قفز
من سريره مفزوعًا وهو يصرخ: "جاءت! جاءت المحرقة!" ارتطمت قدمه
بالكرسي وسقط أرضًا، لكنه زحف مسرعًا نحو النافذة ليرى الحقيقة.

فتح النافذة على مصراعيها، فانفجر في وجهه رذاذ ماء بارد، ونظر إلى
الأعلى، فوجدها ليست سحابة نار، بل (صوندات) ماء بيد الصبيان وهم

يرشون الماء في الهواء كنوع من الفرح بمناسبة رجوع ماء الاسالة الى البيوت

بعد انقطاعه ...

وكان بعض الصبية يلعبون تحت رذاذها ويرقصون فرحًا...

انتفض كاظم غاضبًا.. , صرخ من النافذة بكل قوته: "هذا ليس مطرًا!

ماذا تفعلون؟ أين النار؟ أين الكبريت؟ هذه خيانة!"

نظر إليه الصبية وضحكوا...

قال أحدهم: "شوفوا كاظم يريد السماء تمطر نازًا وهو مبلى بالماء!"

عاد كاظم إلى سريره و أخذ يحدث نفسه: "لم تأت بعد... ربما الغد... ربما

بعد غد..."

ثم سمع صوت أمه من المطبخ تنادي: "كاظم، تعال , أسرع , شاهد

التلفزيون .. , مسلسلك التركي الذي تحبه بدأ... والله البنت بطلة

المسلسل صارت في مأزق كبير... ؛ تعال وانظر ماذا حدث لها!"

صمت كاظم قليلاً، نظر إلى سقف الغرفة المليء بالشقوق، ثم نهض واقفاً وهو يتلفع بمنشفته، وقال بصوت خفيض وهو يتجه نحو غرفة التلفزيون: "آتٍ... ولكن لا تظني أن هذا سيلهيني... المحرقة آتية..."

وجلس أمام الشاشة، ينتظر المحرقة السماوية تارة، ويراقب غراميات الأبطال الأتراك تارة أخرى... ؛ وفي لحظة الذروة من المسلسل، عندما أمسك البطل بيد حبيبته، انقطع التيار الكهربائي.. ؛ جلس كاظم في الظلام، وأحس بأن العلامة الثالثة قد حلت أخيراً... ؛ لم تكن ناراً ولا كبريتاً، بل ظلاماً دامساً، فشعر بسعادة غامرة... .

و هكذا تستمر الحكايات الشعبية والرؤى الغيبية في الاحياء المأزومة والمدن الخاوية ...



ظلّان على طريق الغبار (34)

في السنوات التي كانت فيها البلاد تتساقط من نفسها كما تتساقط طبقات
الطلاء عن جدارٍ مهمل، وصل سالم الموسوي إلى أطراف مدينةٍ تسمّى
الكروم... ؛ لم يكن يحمل معه سوى حقيبة قماشٍ مهترئة، ومفتاح بيتٍ لم
يعد له باب، وذاكرةٍ مثقلة بأسماءٍ مات أصحابها أو تفرّقوا في المنافي.

كان نازحًا من بلدة بعيدة اسمها السهل الأحمر، تلك البقعة التي ابتلعها
الحرب كما تبتلع الرمال آثار الأقدام... ؛ في ليلةٍ واحدة فقد أباه وأخاه
وبيته وأشجار الرمان التي كان يعتقد في طفولته أنها ستعيش إلى الأبد.

كان عمره يومها أربعين عامًا، لكنه بدا كمن تجاوز السبعين.. ، فالأعمار
لا تُقاس بالسنوات دائمًا؛ أحيانًا تقاس بعدد المرات التي ينهار فيها العالم
فوق رأس الإنسان.

استأجر غرفة صغيرة عند أطراف المدينة.. ، سقفها من التلك، وجدرانها
من الطين اليابس.. ، وحين كانت الرياح تعصف ليلاً، كان يسمع الجدار
يئنّ كأنه كائن حي يتألم.

كان يخرج كل صباح باحثًا عن عمل.. ، يعود كل مساء أكثر انحناءً.. ،
لم يكن الجوع هو ما يقتله، بل الشعور بأنه أصبح زائدًا عن حاجة العالم.
وكان يسأل نفسه كل ليلة:

"كيف يتحول الإنسان فجأة من ابن مكان إلى غريب عنه؟!"

من صاحب بيت إلى رقم في سجل النازحين؟!

من كائن له تاريخ إلى ظلٍ يمشي بين الظلال؟!"

في أحد أيام الشتاء، جلس سالم قرب سوقٍ شعبي يبيع فيه بعض الأدوات
الصدئة التي حملها من بلدته .

كان المطر ينزل خفيفًا.

وكان الناس يمرون من جانبه كما يمرون بجانب عمود كهرباء.

في تلك اللحظة ظهر رجل عجوز.

لم يكن مهيبًا ولا ثريًا ولا صاحب منصب.

كان يرتدي معطفًا قديمًا، ويحمل على ظهره كيسًا صغيرًا من الخبز.

اسمه يوسف الحلواني .

جلس إلى جوار سالم دون استئذان.

سكت طويلاً.

ثم قال:

"أراك تحمل تعباً أكبر من جسدك."

رفع سالم رأسه باستغراب.

قال:

"وهل صار التعب يُرى؟"

ابتسم العجوز.

وقال:

"كل شيء يُرى... إلا من اعتاد النظر بعينه فقط."

لم يكن يوسف رجل دين ولا سياسياً ولا زعيماً اجتماعياً.

كان عامل نظافة متقاعدًا.

أمضى حياته يكنس شوارع المدينة.

وكان الناس بالكاد يعرفون اسمه.

لكنه كان يعرف أسماء الأرمال والفقراء والمشردين والمرضى.

وكان يحفظ وجوههم كما يحفظ المؤمن صلاته.

تكررت اللقاءات.

شيئاً فشيئاً صار سالم ينتظر ظهور العجوز أكثر مما ينتظر رزقه.

كان يوسف يجيء حاملاً الخبز أو الشاي أو الصمت.

وأحياناً كان يأتي بلا شيء سوى حضوره.

وكم من مرة يكون الحضور أعظم من المساعدة.

في إحدى الليالي سأله سالم:

"لماذا تساعدني؟"

فأجابه يوسف:

"لأنني أعرف هذا الطريق."

قال سالم:

"أي طريق؟"

قال:

"طريق الانكسار."

ثم أضاف بعد صمت:

"الإنسان لا يحتاج دائماً إلى من ينقذه من الجوع.. , أحياناً يحتاج إلى من

ينقذه من فكرة أنه لم يعد يستحق الحياة."

هزّت العبارة شيئاً عميقاً في داخله.

لأول مرة منذ شهور طويلة شعر أن أحداً لا ينظر إليه باعتباره نازحاً أو

محتاجاً أو رقماً.

بل باعتباره إنساناً.

وكان ذلك كافيًا أحيانًا لإعادة بناء روح كاملة.

مرت الأشهر.

وأصبح يوسف أشبه بأبٍ متأخر جاء بعد خراب العمر.

لكن الزمن لا يمنح هداياه مجانًا.

ففي أحد الأيام اختفى العجوز.

لم يظهر في السوق.

ولا في الأزقة.

ولا عند المقاهي الشعبية.

بحث عنه سالم حتى وجدته في مستشفى حكومي بائس.

كان المرض قد استقر في جسده بصمتٍ كما تستقر الرطوبة في الجدران

القديمة.

جلس قرب سريره.

نظر يوسف إليه بعينين متعبتين.

وقال مبتسمًا:

"ها أنت هنا."

قال سالم:

"جئت أردّ بعض الدين."

ضحك العجوز.

وقال:

"أي دين؟"

قال:

"أنقذتني."

هزّ يوسف رأسه.

ثم همس:

"لا أحد ينقذ أحدًا يا ولدي."

صمت قليلاً.

وأكمل:

"نحن فقط نمسك أيدي بعضنا كي لا نسقط وحدنا."

خارج نافذة المستشفى كانت المدينة تمضي كعادتها.

الباعة يصرخون.

السيارات تعبر.

السياسيون يتحدثون عن الوطن.

والفقراء يبحثون عن رغيف جديد.

أما داخل الغرفة فكان رجلان يتأملان الحقيقة القديمة نفسها:

أن الإنسان ضعيف أكثر مما يعترف.

ووحده أكثر مما يبدو.

وأشد حاجة إلى الرحمة مما يتخيل.

في الليلة الأخيرة قال يوسف:

"أتدري أين يكمن الشر الأكبر؟"

قال سالم:

"في الحروب؟"

قال:

"لا."

"في الطغاة؟"

قال:

"لا."

"إذن أين؟"

أجاب العجوز بصوت خافت:

"في اللحظة التي يتوقف فيها البشر عن رؤية آلام بعضهم."

ثم أضاف:

"عندما يصبح الإنسان غير مرئي... يبدأ موته الحقيقي."

رحل يوسف بعد أيام.

ورحل بصمتٍ يشبه حياته كلها.

لم تُنشر صورته.

لم يُكتب عنه شيء.

لم يحضر مسؤول جنازته.

ولم يُطلق أحد عليه لقب بطل.

لكن سالم كان يعرف أنه خسر أعظم إنسان عرفه في حياته.

بعد سنوات.

صار سالم يدير مخبزًا صغيرًا عند مدخل المدينة.

وكان يعلق فوق بابه عبارة كتبها بخطٍ مرتجف:

"لا يُرفض جائع."

وكان يمنح الخبز مجاناً للنازحين والعابرين والمشردين.

وحين يسأله الناس عن السبب يبتسم فقط.

وفي كل مساء، عندما تغرق الشمس خلف البيوت المتعبة، كان يقف أمام

المخبز ويتأمل المارة.

كان يرى في وجوههم شيئاً من نفسه القديمة.

ويفهم أخيراً ما أراده يوسف أن يقوله.

فالعالم لا ينقسم إلى أقوياء وضعفاء.

ولا إلى منتصرين ومهزومين.

بل إلى نوعين من البشر:

أولئك الذين مرّوا بجانب الألم دون أن يروه.

وأولئك الذين قرروا أن يكونوا يدًا تمتد في العتمة.

وكان يوسف واحدًا من هؤلاء القلائل الذين لا يغيّرون العالم كله، لكنهم

يغيّرون عالم إنسانٍ واحد.

وأحيانًا...

يكون ذلك أعظم من تغيير العالم نفسه.



شهوة الجسد الاخيرة وقيامه الروح (35)

الفصل الأول: جَفَافُ الْيَنَائِيْعِ وَاشْتِعَالُ الْمَحْرَقَةِ

في قلب بغداد القديمة، حيث تتعانق رائحة التاريخ مع غبار الإهمال، كان قاسم يسكن جسده كما يسكن المرء بيتاً آيلاً للانحيار.. لم تكن شهوته مجرد رغبة عابرة، بل كانت ندبة وجودية، ثقباً أسود في روحه يبتلع كل شيء ولا يشبع أبداً... ؛ الجنس عنده لم يكن متعة، بل كان محاولة يائسة لملء فراغ لا يُملأ، كمن يحاول أن يروي عطشه بماء البحر.

كان قاسم يعيش طقوساً جسدية ذات شرٍ منقطع النظير؛ فالجنس في معبده الوجودي لم يكن ترفاً، بل كان كالماء والهواء، حاجةً بيولوجية يتناولها يومياً، بل وثلاث مراتٍ في بعض الأحيان... ؛ أكلت هذه الرغبة المستعرة ثروته الطائلة، فأنفقها بين أحضان نساءٍ لا حصر لهن، باحثاً عن ذاته الهاربة في تضاريس الأجساد.

أنفق ثروة طائلة في ملاحقة نساء كالنجوم المتساقطة، يلمعن في سماء غرف
الفنادق والشقق ثم يختفين دون أثر.. وأحواله المادية تنهار كبيت من ورق،
وشيبه يزداد كثافة، وضعف جسده يتضاعف مع كل يوم يمر، لكن شهوته
ظلت شامخة كصخرة في عاصفة، لا تلين ولا تنكسر.

كان قاسم يحمل في جوفه ناراً لا تطفأ.. شهوته كاللهب المشتعل على
قارورة الزيت، لا تعرف الكلال ولا تدرك حدود الجسد المتهالك.. كان
الجنس لديه كالهواء الذي لا يُستغنى عنه، كالخبز اليومي الذي لا ينقطع،
بل ربما أكثر إلحاحاً من نبض القلب نفسه..!

لكنّ الزمن، ذلك الغريم الأبدي، بدأ يمارس مكره؛ فساءت أحوال قاسم
المعيشية شيئاً فشيئاً، وتقدمت به السنون، وذبل كل غصنٍ في جسده إلا
تلك الشهوة المتقدمة، بقيت كالعنقاء ترفض الرماد.

في تلك الليلة، انتابه قلقٌ وجوديٍّ حاد، وانتصب جسده كالعادة معلناً
التمرد تحت ضغطٍ نفسي خائق... ؛ فلأول مرة في حياته، يمر عليه
شهران كاملاً دون لقاءٍ جسدي، حتى اضطر في عزلته إلى ممارسة العادة

السرية كصبيٍّ غريبٍ يستكشف عوالمه الأولى... ؛ ضاقت به الأرض بما

رحبت، ولم يعد يملأ عينه سوى رغبة اشباع شهوته ...

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كان يقلب أسماء هاتفه القديمة علّه يجد

مرساةً لجنونه وشبقه الجنسي ، وقع بصره على اسم صديق قديم يدعى أبو

فضة..

اتصل به بعد تردد طويل..

تبادلا الحديث عن الأيام التي انقضت، وعن الأصدقاء الذين رحلوا، وعن

المدن التي تغيرت حتى لم تعد تشبه نفسها..

* قاسم: أهلاً أبا فضة.. كيف حالك؟ أرجو أن تكون بخير.

* أبو فضة: أهلاً وسهلاً بك عزيزي قاسم.. الحمد لله والشكر له.. أنت

كيف حالك؟

* قاسم: الحمد لله على كل حال.

* أبو فضة: ألم تتحسن أوضاعك بعد؟ ما زلت تعاني مادياً؟

* قاسم: نعم يا صديقي.. في هذا الزمن، إذا افتقر الغني وسقط الرجل، فمن الصعب أن ينهض مجدداً.. يبدو أن الحياة لا تمنح الإنسان إلا فرصة واحدة.

* أبو فضة: صدقت، لكنك أسرفت كثيراً في معاقرة الخمر، و اللهو مع النساء، ولعب القمار، وهذه نتيجة طبيعية لما زرعت.. المهم هو سلامتك.
ثم قال أبو فضة فجأة:

"تعرف يا قاسم... الإنسان لا يكتشف حقيقة نفسه إلا عندما يخسر كل شيء."

ضحك قاسم بمرارة.

"إذن أنا أقرب الناس إلى الحقيقة."

* قاسم (بنبرة متوسلة): أبا فضة.. أنا ظمآن لجلسة حميمية.. ألا توجد

امراة؟

* أبو فضة: لا أخفيك أمراً عزيزي قاسم، لقد حذفت أرقام النساء جميعاً

منذ فترة، ولم أعد أعرف واحدة من بائعات الهوى.

* قاسم (باندهاش): عجيب! هل تبت إلى الله وأقلعت عن تذوق الخمر

ونكح النساء؟

* أبو فضة: لا.. لست تائباً بالمعنى التقليدي، لكنني استبدلت بالنساء

شباباً حسناً، فصرت لا أعاشر إلا شباباً وسيماً.

* قاسم: أمعقول ما تقول؟! أنت زير النساء العتيد، تصبح "قراماً"

(عاشقاً للغلمان)؟!

* أبو فضة: إنها ثقافة خفية تكتسح العالم الآن.. الجميع يتجه نحو سحر

الشباب، لقد بارت سوق النساء يا صديقي.

* قاسم: قل كلاماً غير هذا.. مجتمعنا المحافظ لا يتقبل هذا الأمر ويدينه

علناً!

* أبو فضة (مبتسماً بتهكم): أصلاً مجتمعتك غارق إلى أذنيه في بحور

المثلية الخفية واللواط، لكنه يرتدي قناع الفضيلة.

* قاسم: والحل يا أبا فضة؟ أنا في ذروة حاجتي الآن، ولم أعد أحتمل

الصبر!

* أبو فضة: لدي شاب جميل، عمره تسعة عشر عاماً، كأنه فلقة قمر..

جربه مرة واحدة، وأعدك أنك ستزهد في النساء بعدها.

* قاسم: ماذا تقول؟! ومن أين عرفته، وكيف وثقت به؟

* أبو فضة: هو من منطقة الغزالية، يتيم الأبوين، يعيش صراعاً دائماً مع

شقيقه وزوجة شقيقه... ؛ تعرفت إليه عبر منصة "فيسبوك"، ورافقتني في

الشاحنة إلى البصرة أكثر من مرة... ؛ وفي أحد الأيام، بعد أن سكرنا

حد الشمال، أقنعت، فاستجاب حمودي.. كنتُ الأول في حياته، حتى إن

دماً نرف منه لصعوبة الأمر في البداية... ؛ عشت معه خمس مرات خلال

ثلاثة أشهر... ؛ إنه أنقى من أي مومس عرفتها في حياتك.

تردد قاسم.. ليس خوفاً من الخطيئة، فالخطايا كلها تتساوى في قاموس روحه المثقوبة.. كان خوفه أعمق، خوفاً من أن يكتشف أن كل ما عرفه عن نفسه كان وهماً.

رغم الصدمة الثقافية والنفسية، قاد الاحتياج الوجودي والجسدي قاسماً للموافقة على مفضض... فالجوع والشره الجنسي كان أقوى من كل الفلسفات ؛ وتواعدا في شقة مستأجرة في منطقة "بغداد الجديدة" ..

الفصل الثاني: اللِّقَاءُ الْأَوَّلُ وَانْكِسَارُ الْأَقْنَعَةِ

وصل أبو فضة ومعه حمودي.. , كان الشاب يفيض أدباً وخجلاً، يتدثر بجمالٍ أخاذٍ أربك حسابات قاسم..

* قال قاسم في قرارة نفسه وهو يتأمله: "جريمة نكراء أن يُلَوِّثَ مثل هذا النقاء..."*

— هذا حمودي، قال أبو فضة.. ابن منطقتنا.

رفع الشاب رأسه مبتسماً.

— تشرفت بمعرفتك، عم قاسم.

لم يكن في الابتسامة ما يلفت النظر بقدر ما كان فيها من صدق.. شعر
قاسم بشيء يتحرك في داخله؛ ليس دهشة، بل ألفة غامضة، كأن هذا
الوجه مرّ به في حلم قديم.

تحركت في داخل قاسم مشاعر إنسانية غريبة تجاوزت الشهوة الحيوانية
المحضّة، فدعاها إلى تناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة كنوعٍ من التكريم
والتقدير لتلك الهشاشة التي رآها في الشاب الوسيم...

* حمودي: شكراً لك على هذا العشاء الفاخر..

* قاسم: أنت تستحق أكثر من هذا، اعذرني على أي تقصير.

تحدث حمودي قليلاً، لكنه كان يصغي باهتمام نادر. وحين ذكر قاسم
متاعبه المالية، قال الشاب ببساطة:

— الإنسان قد يخسر أشياء كثيرة، لكنه لا يخسر نفسه إلا إذا استسلم.

بقيت الجملة معلقة في قلب قاسم طوال الطريق إلى البيت.

كان أبو فضة يراقب التحول النفسي في عيني قاسم ويبتسم بصمت... ؛
وقبل أن يتوجهوا إلى الشقة، رنّ هاتف قاسم بشكل مفاجئ.. اتصال
طارئ من البيت: لقد احترقت لوحة مفاتيح الكهرباء الرئيسية (الميزانية)،
والمنزل في خطر ...

* أبو فضة: إلى أين يا قاسم؟

* قاسم: أنا أسف للغاية.. حدث أمر طارئ في المنزل ولا بد من عودتي
فوراً.

* حمودي (بلهفة ونقاء): هل تأمرني بشيء عمو؟ هل تود أن آتي معك
لأساعدك في إطفاء الحريق وإصلاح الأمر؟

* قاسم (وقد لمست الكلمات سويداء قلبه): شكراً لك حبيبي.. هذا من
لطفك ونبل ذوقك..

تبادلا أرقام الهواتف على عجل، وانصرف قاسم والشرار يتطاير من وجدانه
لا من أسلاك بيته..

الفصل الثالث: المعراجُ الجسديُّ والاشتباكُ الروحي

مضى يومان، وصورة حمودي لا تفارق مخيلة قاسم ليل نهار.. لقد سلبه
لَبَّه بطريقة لم تفعلها مئات النساء من قبل... ؛ شعر وكأنه يعرف هذا
الكائن منذ أزلٍ بعيد؛ كان انجذاباً يتجاوز الشبق الجسدي إلى تلاقح
الأرواح المعذبة..

اتصل به قاسم، وتبادلا عبارات الشوق والتحايا الحميمة..

* قاسم: حمودي، أنتظرُك غداً في شقة صديقي ببغداد الجديدة، في تمام
الثامنة مساءً.

* حمودي: تامر أمر حبيبي.. غالي والطلب رخيص.

هياً قاسم الغرفة كمن يستعد لطقس ديني؛ أعد طاولة الخمر، ورتب
الفاكهة، والخضار، والألبان، والبقوليات، وكل ما لذ وطاب من أنواع
"المزة".

عندما التقيا، تلاشت المسافات والتحفظات الاجتماعية... ؛ ثم سكرا معاً
حتى تداخلت الرؤى، ثم بدأت القبلات الدافئة تنسكب من الشفاه... ؛
مارسا الجنس لمدة ساعة كاملة، لكنها لم تكن ساعة ميكانيكية كأيام قاسم
الحوالي؛ بل كانت تجربة عاطفية وجودية عميقة... ؛ شعر قاسم بشعور
غريب لم يعهده طوال حياته، كأن هذا الشاب حورية من حوريات الجنة،
أو أحد الولدان المخلدين الذين وُعد بهم الإنسان في مطلقه...

غمره فيضٌ من الفرح، والسعادة، والانتشاء، واستعاد رجولته وحيويته
الضائعة، كأنه يغتسل من درن السنين ومخاوف العجز والشيخوخة.

بعد الانتهاء، أخرج قاسم مبلغاً مالياً:

* قاسم: حمودي، خذ هذا المبلغ.. خمسة وسبعون ألف دينار.

* حمودي (برفض خجول): لا.. شكراً لك، هذا كثير جداً.

* قاسم: بل هو قليل في حقك.. أنت تستحق ماء العين يا حمودي.

افترقا، وكان خيط خفي وعجيب قد شدّ قلوبهما إلى بعضهما البعض ... ؛
مضت الأيام وهما في تواصل يومي مستمر عبر الموبايل ومواقع التواصل،
يتبادلان الغزل العفيف والأحاديث الحميمة والرومانسية، في علاقة كسرت
النمطية السائدة وتجاوزت الفهم الاجتماعي الضيق...

في الأيام التالية، أخذ الشاب يحتل مساحة متزايدة من أفكاره.

كان يتصل به كل مساء.

يتحدثان عن الحياة.

عن الفقر.

عن الموت.

عن الأحلام التي ماتت قبل أن تولد.

عن العراق الذي يشبه أبنائه الأشجار المتعبة؛ تضربها الرياح من كل جهة،
لكنها تواصل الوقوف.

شيئًا فشيئًا، بدأ قاسم يشعر بأن ما يجذبه إلى حمودي ليس شيئًا مما ظنه سابقًا.

لقد كان يرى فيه شبابه الضائع.

ويرى فيه البراءة التي قتلها الزمن داخله.

ويرى فيه الإنسان الذي كان يمكن أن يكونه لو اختار طريقًا آخر.

وذات ليلة سأله حمودي:

*"هل تؤمن أن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد؟"

سكت قاسم طويلاً.

ثم قال:

*"لا أعرف... لكنني أؤمن أنه يستطيع أن يندم من جديد."

ضحك حمودي.

أما قاسم فلم يضحك.

لأنه كان جادًا تمامًا...

*وقال له حمودي ذات مرة:

— أخاف أن أصبح غير مرئي.. أن أمشي بين الناس فلا ينتبه أحد إلى

أنني أتعب..

*أجاب قاسم:

— كلنا نخاف ذلك.

ثم أضاف بعد صمت:

— ربما لهذا السبب نبحث عن بعضنا.

لأول مرة منذ سنوات، شعر قاسم أن أحدًا لا يطلب منه مألًا ولا

مصلحة، بل يطلب فقط أن يُسمع...

الفصل الرابع: الفَجِيعَةُ وَالرَّتْدَادُ الْوُجُودِي

لم يتصل قاسم بحمودي طوال عشرة أيام، بسبب انشغاله بالسفر إلى أربيل لإجراء بعض الفحوصات الطبية لشقيقته سهاد... ؛ وبعد عشرة أيام من الوجد، اتصل قاسم بحمودي، فجاءه الصوت الآلي البارد: "إن الهاتف المطلوب خارج نطاق التغطية".

اختفى حمودي فجأة... ؛ كسهاب لمع في ليلة مظلمة ثم انطفأ.. هاتفه مغلق.. حساباته مهجورة.. كأنه لم يكن إلا حلمًا في ليلة صيف حارة. اتصل بأبي فضة مستفسراً، لكن الأخير أنكر معرفة أي شيء عنه...

حاول قاسم البحث عنه في أزقة الغزالية وبغداد الجديدة بكل طريقة ممكنة، ولكن دون جدوى، فاستوطن القلق واليأس روحه.

مضت ثمانية أشهر مريّة... ؛ وفي ليلة مظلمة، بينما كان قاسم يقلب الصفحات في منصة "تيك توك" بشرود، استوقفه مقطع فيديو في صفحة باسم "قحطان"... ؛ كان المقطع يحمل صورة حمودي يحيطها السواد، وتحتها عبارات النعي والرحيل.

لم يصدق قاسم عينيه؛ شعر بصعقة زلزلت كيانه.. , راسل صاحب
الصفحة على الفور:

* قاسم: عزيزي.. هل تعرف هذا الولد حمودي؟

* قحطان: نعم، هو صديقي وابن منطقتي.. رحمه الله.

* قاسم (والرعب يملأ قلبه): وكيف مات؟!

* قحطان: كان يحتسي الخمر في الشارع العام ذات ليلة، فمرت دورية
للشرطة... ؛ حدث شجار بينهم لأنه رفض إعطاءهم مبلغاً من المال
(رشوة)... ؛ ثم اقتادوه إلى مركز الشرطة، وهناك زجوا به في السجن لمدة
سنة أشهر بتهمة شرب الخمر في الأماكن العامة والاعتداء على رجال
الشرطة، كما ادعوا كذباً وزوراً... ؛ و هناك، في العتمة والظلم وسوء
المعاملة ، ساءت صحته النفسية والجسدية بشكل مدمر... ؛ وعندما
أُطلق سراحه، خرج جثة هامدة تسكنها الأمراض والانكسار... ؛ ثم
مكث في المستشفى أسبوعين، وفور تشافيه الظاهري.. ذهب إلى "جسر

الأحرار"، ورمى بنفسه من فوق الجسر ليغرق في أعماق نهر دجلة..
ومات.

انفجر قاسم بكاءً مريراً، نحيبٍ خارج من أغوار الروح... ؛ شعر بكأن
قطعة من قلبه ونفسه قد انتزعت وقُذفت في قاع النهر مع حمودي... ؛ ثم
تراءت له صورة الشاب، ونقاء روحه، وبؤس المجتمع الذي يطحن الضعفاء
والمنبوذين، وعقم الوجود الذي يسلب الجمال ويبقي القبح.

ومع الفجر، جلس أمام نافذته يتأمل السماء الرمادية.
وفهم شيئاً لم يفهمه طوال عمره.

لقد كان يطارد اللذات ظناً منه أنها ستملأ الفراغ.

لكن الفراغ لا يملؤه شيء يأتي من الخارج.

لأن الجوع الحقيقي لم يكن جوع الجسد.

بل جوع الروح.

والروح لا تشبع بما يشبع الجسد.

ومنذ ذلك اليوم، تغيرت حياة قاسم.

لم يصبح قديسًا.

ولم يتحول إلى حكيم.

لكنه بدأ يتعلم كيف يعيش مع نفسه دون أن يهرب منها.

وأدرك أن بعض الأشخاص يدخلون حياتنا لفترة قصيرة جدًا، لكنهم

يتركون أثرًا أعمق من أثر عشرات السنين.

أما حمودي، فقد ظل حاضرًا في ذاكرته كمرآة رأى فيها للمرة الأولى وجهه

الحقيقي.

وكان ذلك الاكتشاف، رغم قسوته، أعظم هدية تلقاها في حياته كلها.

كانت فجيعة موت حمودي هي الهزة الوجودية الكبرى في حياة قاسم؛ إذ

أدرك أن تلك اللذة التي عاش عمره يركض خلفها لم تكن سوى قناع يخفي

وراءه وحشة الفناء... ؛ ومنذ تلك الليلة، ألقى قاسم بأسلحة شهوته،
وأقلع عن ممارسة الجنس بصورة مطلقة، وزهد في أجساد البشر، والتزم دور
العبادة والسينما والمسارح والحدائق العامة ، باحثاً في محراب الغيب والوجود
عن تطهيرٍ لروحه المكلومة، وعن وجه حمودي الذي غاب في ملكوتِ
آخر...



شهوة الجسد الاخيرة وقيامه الروح

مرايا القلق (36)

العقارب لا تدور، إنها تمتص الوقت وتتقيأه عرقاً لزجاً على جدران
الغرفة...

يتقلب على فراشه كما يتقلب السليم الذي لسعته أفعى في عتمة لا
ترى...

لا يعرف للنوم باباً، ولا لليقظة مخرجاً... ؛ يطفو على سطح نوم هزيل،
تتقاذفه الكوايس كما تتقاذف الأمواج خشبة مكسورة... ؛ وما إن
تغمض عيناه حتى يفزع، كأن الأرض أفلتت من تحته، أو كأن روحاً مجهولةً
تدفعه من شاهقٍ لا قرار له.

يستيقظ "تحسين" ليجد أن جسده قد تلاحم مع السرير بفعل الحرارة،
ليصبح قطعة أثاث آدمية مهملة... ؛ ينسلخ عن فراشه بصوت يشبه تمزق
الورق، ويقف على أرضية الإسمنت التي تغلي كسطح كوكب مهجور... ؛
الواقع خارج النافذة ليس مكاناً، بل هو "امتداد للعقوبة"؛ الشارع عبارة

عن صهرٍ جماعي للأرواح، والباص الذي يقله إلى دائرته البيروقراطية ليس
سوى تابوت معدني يسير بالعجلة الدائرية نحو اللاشيء.

يفتح عينيه على صباحٍ يكرهه، لا لأن الليل كان مخيفًا، بل لأن الواقع أكثر
افتراسًا من الأحلام... ينهض ببطء، كأن جبال الأرض قد شُدَّت إلى
كتفيه، وكأن الجاذبية اختارت جسده وحده لتُثبت قوانينها القاسية.

يغسل وجهه بماءٍ ساخن، ويشرب شايًا ساخنًا، ثم يخرج إلى شارعٍ ساخن،
منتظرًا حافلةً ساخنة، تحت شمسٍ لا تشرق، بل تُصدر حكمًا يوميًا
بالحرق... ؛ حتى الهواء فقد براءته، وأصبح شريكًا للنار.

يقفُ تحسِينٌ على رصيفِ الاحتراق ، ينتظرُ حافلةً لا تأتي أو تتعمَّد التأخيرَ
، كأنَّ الزمنَ توقَّفَ على حافةِ الهاويةِ ليلتقطَ أنفاسَه المسروقة... ؛ الوجوهُ
من حوله ترسمُ لوحةً كولاجيةً من الأكدارِ، كلُّ وجهٍ منها قناعٌ لبطلٍ مهزومٍ
في معركةِ الروتين.

يدخل دائرته الحكومية، لا موظفًا، بل كتلةً من العرق الفياض ... ؛
تنبعث منه رائحة النهار الطويل، حتى ليخيّل إليه أن مصانع العطور في
العالم قد أعلنت عجزها أمام صيفٍ واحد من صيف بلاده.

في الدائرة، يجلس خلف مكتبه المغطى بغبار المعاملات الميتة... ؛ المروحة
السقفية المعلقة فوقه لا تحرك الهواء، بل تدور كشفرة مقصلة بطيئة تأكل
عمره ثانية تلو ثانية... ؛ المراجعون ليسوا بشرًا، بل هم ظلال مشوهة
تبحث عن صكوك غفران لذنوب لم يقترفوها، والمدير القابع خلف زجاجة
المبرد العازل يبدو كإله وثني بارد لا يعنيه احتراق الرعية في الخارج... ؛
يعيش فصلًا آخر من فصول السنة، كأن الجغرافيا نفسها تنحني أمام
السلطة.

وما إن يستقر في مكانه حتى تبدأ جيوش القلق زحفها اليومي... ؛ يخشى
المواطن الغاضب الذي جاء يحمل غضبه قبل أوراقه، ويخشى المدير الذي
يرى القانون مزاجًا شخصيًا، ويخشى لجان النزاهة التي قد تبحث عن كبش
فداء أكثر مما تبحث عن الحقيقة... ؛ في تلك اللحظات، يشعر أن

العدالة ليست امرأةً معصوبة العينين، بل متاهةٌ عمياء يتعثر فيها الأبرياء
أولاً.

تمتلئ طاولته بالملفات حتى تبدو كأنها مقبرةٌ للأعمار المؤجلة... ؛ كل
ملفٍ يبتلع دقيقةً من حياته، وكل توقيعٍ ينتزع شيئاً من روحه... ؛ وحين
يرفع رأسه، لا يرى نهاية النفق، لأن النفق صار وطناً، والبيروقراطية صارت
قدرًا يتوارثه الناس كما يتوارثون أسماءهم.

يهرب إلى سيجارة... ثم إلى أخرى... ثم إلى الثالثة... ؛ تمتلئ (المنفضة)
بأعقابها، وتمتلئ الطاولة بأكواب الشاي الفارغة... ؛ كان يعرف أنه يعالج
النار بالدخان، لكنه لم يعد يبحث عن العلاج، بل عن هدنةٍ قصيرة مع
الأم.

وحين تنتهي الدوامات الصغيرة، تأتي الحافلة الحكومية لتحمل أجسادًا
أهكها الانتظار، ووجوهًا فقدت القدرة على الدهشة... ؛ الجميع
صامتون، كأنهم ناجون من حربٍ لا يذكرها أحد، لأنها تتكرر كل يوم.

يصل تحسين إلى بيته... ؛ ينظر إلى السقف... ، لا مروحة تدور، ولا كهرباء... ؛ يتسم ابتسامةً باهتة، ويتمتم: "حتى البيت أصبح دائرةً حكومية."

يدخل الحمام، ويفتح الصنبور... ؛ يهبط الماء ساخناً كأنه خرج من جوف الجحيم لتوّه... ؛ يلامس جسده، فلا يغسل تعبته، بل يزيده التصاقاً بجلده... ؛ عندها أدرك أن الأشياء فقدت وظائفها؛ فالماء لم يعد يطفئ، والظل لم يعد يستر، والبيت لم يعد يؤوي.

ينظر إلى زوجته التي تصلي على سجادة خشنة، فيرى في حركاتها رقصة سيزيفية أزلية... يهمس لها بصوت مخنوق برائحة التبغ والرماد: "يا امرأة، لمن ترفعين يديك؟ إن الجحيم ليس حفرة ننتظرها تحت الأرض... ؛ الجحيم هو هذه الغرفة اللزجة، الجحيم هو الآخرون، الجحيم هو بقاؤنا على قيد الوعي في وطن يذوب".

رفعت رأسها بهدوء، وقالت:

— بل أصلي كي لا يتحول هذا الجحيم إلى قلبي.

ساد الصمت.

كانت جملتها أقصر من أن تُناقش، وأعمق من أن تُفهم دفعةً واحدة.

بعد ساعاتٍ عادت كهرباء المولدة الأهلية... ؛ أسرع إلى تشغيل المروحة،

فإذا بها تنفث هواءً حارًا، كأنها تنقل أنفاس الصحراء إلى الغرفة... ؛ ثم

شغلّ المبرّدة، فتحوّل المكان إلى رطوبةٍ خانقة، تلتصق بالأجساد كما

تلتصق الهموم بالأرواح.

وأخيرًا، جاءت الكهرباء الوطنية، متأخرةً كعادتها، فأكل لقيماتٍ قليلة، لا

جوعًا ولا شهوةً، بل لأن الجسد ما زال يطالب بحقه في البقاء، رغم أن

الروح لم تعد تفاوض الحياة إلا على أقل الخسائر.

ثم جلس يقرأ كتابًا... ؛ كانت السيجارة بين أصابعه، وكوب الشاي إلى

جواره، والحرارة تواصل حصارها... , شعر أن الكتب لم تعد تمنحه أجوبة،

بل أسئلةً أكثر اتساعًا.

تساءل في سرّه:

"هل الإنسان يحمل قلقه لأنه حيّ؟ أم أنه حيّ فقط ليحمل هذا القلق؟"

ولم يجبه أحد.

حتى الليل...

كان متعبًا أكثر من أن يمنحه جوابًا.

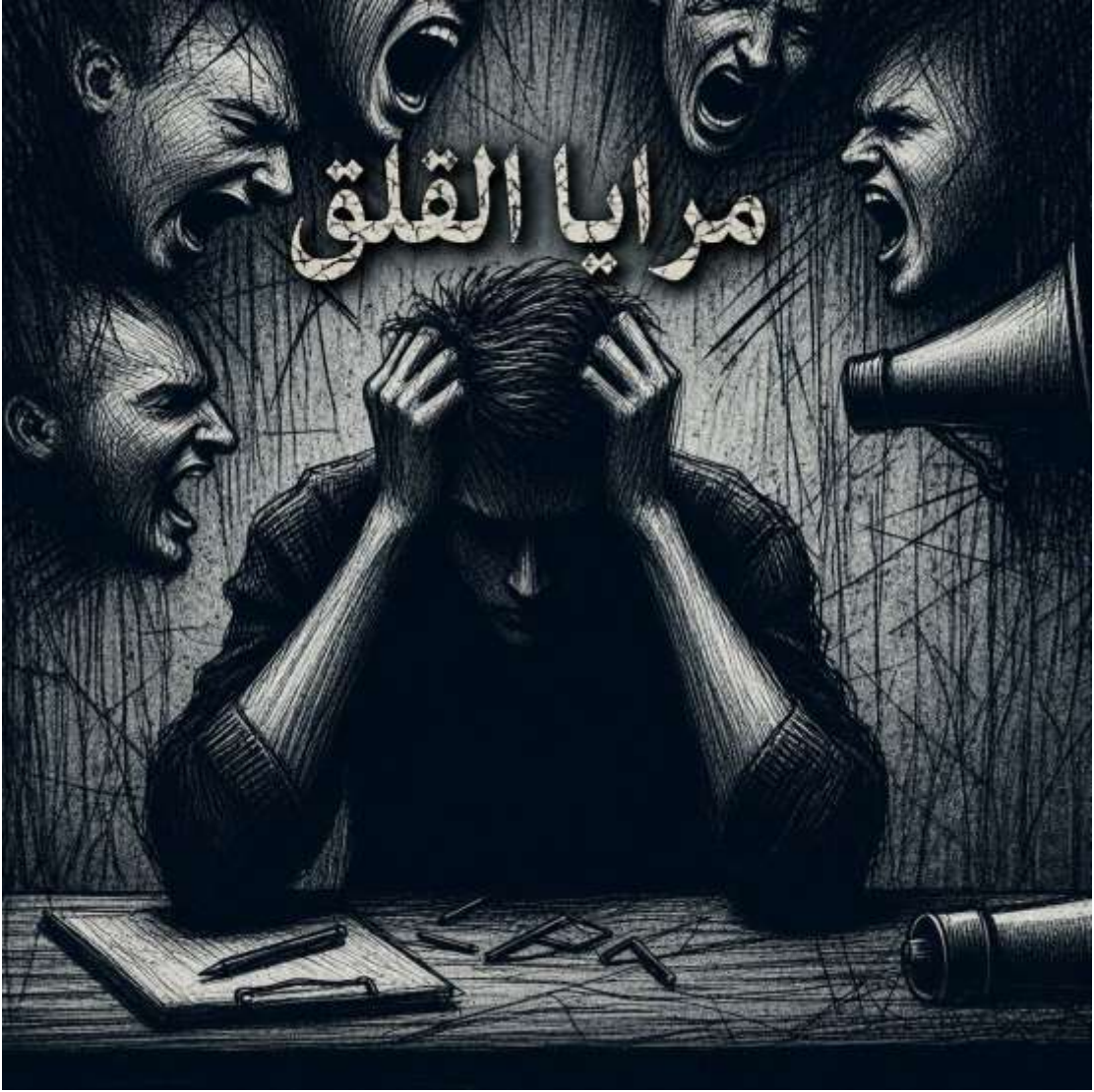
أسند رأسه إلى الوسادة، وسقط فوقها كما تسقط المدن بعد الحروب؛ لا

حبًا بالنوم، ولا حبًا بالحياة، بل لأن التعب وحده كان أقوى من مقاومته.

وفي مكانٍ ما، داخل أعماقه، كان قلقه مستيقظًا...

ينتظر صباحًا آخر، لبدأ حياته من جديد، بالطريقة نفسها، وكأن الزمن لا

يتحرك، بل يدور حول جرحٍ واحد لا يندمل.



أبناء المحسوبيات والذوات ... وأبناء الخنادق والجبهات (37)

الفصل الأول: وليمة الوداع

كان صيف عام 1987 ثقيلاً كأنه لا يريد أن ينتهي.. لم تكن الشمس وحدها تحرق بغداد، بل كانت الحرب أيضاً.. كانت المدينة تعيش ازدواجيةً غريبة؛ المقاهي مكتظة بالمصريين والسودانيين ، والأسواق تضج بالغرباء والاجانب ، والأطفال واليتامى يركضون في الأزقة، لكن خلف كل نافذة كانت أمٌ تخفي دمة، وأبٌ يحرق في باب الدار كأنه ينتظر خبراً يخشاه أكثر مما يرجوه.

كنتُ يومها في الثالثة والعشرين من عمري.

اسمي سالم الجبوري.

ولم يكن ينقصني من الدنيا سوى حياةٍ عادية، وظيفة متواضعة، وامرأة أحبها، وبيت صغير لا تدخله صفارات الإنذار.. لكن الوطن كان يكتب لنا سيرةً أخرى، سيرةً لا يسأل فيها أحدٌ عن رغبات الشباب، بل عن قدرتهم على حمل البندقية.

حين وصلت ورقة الالتحاق بالخدمة العسكرية، بقيت أحرق فيها طويلاً.

لم أبكِ.

ولم أغضب.

كل ما شعرت به أن اسمي لم يعد ملكي، وأن السنوات القادمة أصبحت ملكاً للحرب.

في تلك الليلة، دخلت أُمِّي الغرفة بهدوء.. وضعت كوب الشاي أمامي وجلست قبالي.

قالت وهي تتجنب النظر في عيني:

. متى ستذهب؟

أجبتها بصوت خافت:

. بعد ثلاثة أيام.

هزت رأسها، ثم قامت قبل أن تنطق بكلمة أخرى.

كنت أعرف أنها ذهبت لتبكي بعيداً عني.

في مساء اليوم التالي، جاءني صديقي قاسم الدليمي.

كان يحمل ابتسامةً واسعة، لكنها بدت لي مصطنعة.

قال:

- الليلة أنت ضيفي.

ابتسمت.

- وليمة وداع؟

رد بسرعة:

- بل وليمة نجاة... إن شاء الله.

لم أفهم قصده، لكنه رفض أن يشرح أكثر.

كان منزل قاسم في حي شعبي قديم.. وما إن دخلته حتى فوجئت بأن

المائدة كانت تضم رجالاً لا أعرف معظمهم.

كان بينهم رجل خمسيني عريض الكتفين، تتدلى سبحة من يده اليمنى،
ويدخن سيجارة تلو أخرى بصمت.

همس قاسم في أذني:

. هذا أبو ياسر الخزرجي... إذا قال لك: لا تقلق... فصدق.

جلست وأنا أشعر بأنني دخلت اجتماعاً أكثر منه مأدبة.

بدأ الحديث عن الحرب.

لم يتحدث أحد عن النصر.

ولا عن البطولة.

ولا عن الوطن.

كان الجميع يتحدث عن شيء واحد...

كيف ينجو الإنسان من الجبهة؟

قال رجل أصلع:

- ابن أخي نقلوه إلى وحدة تموين لأنه يعرف عميداً في الوزارة.

ورد آخر:

- وجارنا صار كاتباً في القيادة لأن خاله صديق لواء.

ضحك ثالث وقال:

- اليوم لا تسأل: ماذا تعرف؟ بل اسأل: من تعرف؟

ساد صمت قصير.

ثم نظر أبو ياسر إليّ.

- أنت سالم؟

- نعم.

- سمعت أنك شاب مهذب.

ابتسمت بخجل.

قال وهو ينفث دخان سيجارته:

- والمهذبون هم أول من تأكلهم الحروب.

لم أعرف ماذا أقول.

اقترب مني أكثر.

- هل عندك واسطة؟

هزرت رأسي بالنفي.

ابتسم بأسى.

- إذن أنت ذاهب إلى الخطوط الأمامية.

شعرت بأن الجملة سقطت فوق صدري كصخرة.

تدخل قاسم بسرعة:

- لهذا السبب جمعتكم الليلة.

أريد أن تساعدوا سالم.

أريده أن يعود إلينا حياً.

نظر الرجال إلى بعضهم.

قال أحدهم:

. رئيس أركان الجيش يستطيع أن ينقله إلى وحدة خلفية.

هز أبو ياسر رأسه ساخراً.

. أحياناً... هناك من هو أقوى من رئيس الأركان نفسه.

التفتُ إليه.

. كيف؟

قال بثقة:

. لأن السلطة ليست دائماً في المكاتب.

قلت متعجباً:

. ومن يكون؟

ابتسم، لكنه لم يجب مباشرة.

أشعل سيجارة جديدة، وراح يراقب الدخان وهو يصعد نحو السقف.

ثم قال بهدوء:

. ستعرف في الوقت المناسب.

بعد منتصف الليل، غادر الضيوف واحداً بعد آخر.

بقيت مع قاسم وحدنا في الحديقة.

قلت له:

. ماذا يقصد أبو ياسر؟

تنهد طويلاً.

. سالم... هل تعلم ما هو أسوأ من الحرب؟

. ما هو؟

. أن تكتشف أن حياة الإنسان قد تتوقف على هاتف، أو معرفة، أو باب

يفتحه شخص نافذ..

سكت قليلاً، ثم أردف:

. في هذا الزمن، لم يعد الجميع متساوين أمام الموت.

كان القمر يعلو فوق بغداد، لكنني شعرت للمرة الأولى أن الليل أشد ظلمة
من المعتاد.

عدت إلى البيت قبيل الفجر.

وضعت رأسي على الوسادة، لكن النوم هرب من عيني.

كنت أفكر في سؤال واحد فقط:

هل سأكون رقماً جديداً في قوائم القتلى... أم أن للقدر باباً آخر لم أره
بعد؟

ولم أكن أعلم أن تلك الوليمة، التي بدت في ظاهرها مجرد عشاء وداع،
ستكون بداية الرحلة التي ستغيّر حياتي كلها، وتكشف لي أن أخطر المعارك
لا تُخاض دائماً في الجبهة... بل قد تبدأ حول مائدة طعام، وبين همسات
رجال يبحثون عن نجاةٍ لا يملكها أحد.

الفصل الثاني: أبواب النفوذ

لم يكد الفجر يطلع حتى كان سالم الجبوري مستيقظاً.. لم ينم إلا دقائق متقطعة، وكانت كلما أغمض عينيه رأى نفسه يسير في صحراء لا نهاية لها، بينما أصوات المدافع تقترب منه أكثر فأكثر.

خرج إلى باحة المنزل، فوجد والده، الحاج عبد الكريم، يجلس على كرسي خشبي قديم يحتسي الشاي بصمت.

رفع الأب رأسه وقال:

. لم تنم؟

ابتسم سالم ابتسامة شاحبة.

. وهل ينام من يعرف أن مستقبله أصبح في يد الحرب؟

ظل الأب صامتاً لحظة، ثم قال بصوت خافت:

- يا بني... لقد عشتُ انقلابات وثورات، لكنني لم أرَ زمنًا صار فيه

الإنسان يبحث عن واسطة لينجو من الموت..

بعد الظهر، جاء قاسم الدليمي مسرعاً.

- هيا... أبو ياسر ينتظرنا.

استقلا سيارة أجرة عتيقة، وظل السائق يشكو من غلاء المعيشة وظروف

الحرب ، بينما كانت صور الرئيس صدام تملأ الجدران، وكأن المدينة تحاول

إقناع نفسها بأن كل شيء بخير.

توقفا أمام بيت واسع في أحد أحياء بغداد الهادئة.

استقبلهما أبو ياسر الخزرجي بوجهه الهادئ.

قال:

- اليوم ستعرفان إلى رجل لا يظهر اسمه في الصحف، لكنه يفتح أبواباً

كثيرة.

دخل رجل أنيق في الخمسين من عمره، عرّفه أبو ياسر قائلاً:

. هذا كامل السامرائي.

لم يكن ضابطاً، ولم يكن وزيراً، لكنه كان يعرف الجميع، أو هكذا بدا.

ابتسم كامل وقال لسالم:

. سمعت أنك شاب محترم.

أجاب سالم:

. أحاول أن أكون كذلك.

ضحك الرجل.

. لا... في هذا الزمن لا يكفي أن تكون محترماً، بل يجب أن تعرف كيف

تبقى حياً.

نظر سالم إليه طويلاً.

. وهل الحياة تُشترى؟

أجاب كامل وهو يشرب الشاي:

. أحياناً... تُشتري بمعرفة شخص واحد.

سادت لحظة صمت.

ثم قال كامل:

. هناك نوعان من الجنود.

الأول يذهب حيث تأمره الورقة.

والثاني تغَيّر ورقة واحدة مصيره كله.

سأل سالم:

. وما الفرق بينهما؟

أجاب الرجل:

. الفرق... اسم يعرفه ضابط، أو هاتف يرن في الوقت المناسب.

خفض سالم رأسه.

. وماذا عن الذين لا يملكون أحداً؟

تنهد كامل.

. أولئك هم الذين تمتلئ بهم المقابر وارض الحرام .

في طريق العودة، قال قاسم:

. هل غضبت من كلامه؟

قال سالم:

. لا...

ثم أكمل بعد صمت طويل:

. لكنني شعرت أن الوطن صار طبقتين.

طبقة تموت...

وطبقة تعرف كيف تؤجل الموت.

بعد يومين، دخل سالم بوابة المعسكر.

كان مئات الشبان يقفون في طابور طويل، يحمل كل واحد منهم حقيبة صغيرة ووجهاً أكبر من عمره.

تعرف هناك إلى حسين اللامي، شاب من العمارة، كان يحتفظ في جيبه بصورة طفله الصغيرة.

قال حسين وهو يناوله الصورة:

. هذه زهراء...

لم تكمل عامها الثاني.

أخاف أن تذهب إلى المدرسة يوماً ولا تجد أباه.

ابتلع سالم غصته.

ثم صافحه بقوة.

وفي آخر النهار، جلسا بجوار جندي أربعيني كثر الشارين يدعى جبار الساعدي.

كان جبار يراقب الجنود الجدد بعينين متعبتين.

قال ساخراً:

. أنتم ما زلتم تحسبون أن الخطر يبدأ عند الجبهة.

سأله سالم:

. وأين يبدأ إذن؟

أجاب وهو ينظر إلى مبنى القيادة:

. هناك...

حين يكتب أحدهم اسمك في قائمة، ويشطب اسم آخر لأن هاتفاً رن قبل

دقائق.

ساد الصمت.

ولم يعد أحد يجد ما يقوله.

كان كل واحد منهم يدرك أن الحرب ليست مجرد مواجهة مع عدو بعيد، بل مواجهة يومية مع الخوف، ومع نظامٍ قد يغيّر مصير الإنسان بقرار واحد.

وفي تلك الليلة، بينما كان سالم يتمدد على سريره الحديدي، سمع أحد الجنود يهمس:

. غداً ستُعلّق أول قائمة...

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد أحد ينتظر الصباح بشوق، بل بخوف.

الفصل الثالث: القائمة الأولى

لم يكن صباح المعسكر يشبه أي صباح عرفه سالم الجبوري من قبل.

قبل أن تشرق الشمس، دوى صوت الصفارة الحاد، فتدافع الجنود خارج

القاعات الإسمنتية كأنهم قطع أيقظه الرعب قبل أن يوقظه الواجب.

وقف الرقيب نعيم الكرخي في وسط الساحة، وصاح بصوت أجش:

. خمس دقائق... وأريد الجميع في الطابور.

كان الجنود يركضون وهم يرتدون أحذيتهم على عجل، بينما كانت الوجوه

شاحبة، وكأن أحداً أخبرهم سلفاً أن هذا اليوم لن يكون عادياً.

همس حسين اللامي وهو يقف بجانب سالم:

. اليوم ستُعلق القائمة.

لم يجبه سالم.

كان قلبه يخفق بعنف حتى حُيل إليه أن من يقف بجانبه يسمع دقاته.

بعد انتهاء التدريب الصباحي، بدأت الأعين تتجه نحو لوحة الإعلانات.

لم تكن اللوحة كبيرة، لكنها كانت تكفي لتغيير مصير عشرات الرجال.

خرج الملازم أول رائد التكريتي حاملاً ورقة مطوية.

توقف أمام اللوحة.

ثبتها بدبوسين.

ثم غادر دون أن ينطق بكلمة.

في لحظة واحدة اندفع الجنود نحوها.

أصوات متداخلة...

- اسمي موجود؟

- انظر هنا...

- لا... اقرأ مرة أخرى...

- الحمد لله...

- يا ساتر...

شق سالم طريقه بصعوبة.

وقعت عيناه على الأسماء.

الأول...

الثاني...

الثالث...

ثم...

حسين اللامي.

التفت سالم بسرعة.

كان حسين يقف خلفه.

نظر إليه بعينين مرتجفتين.

قال بصوت مبحوح:

. وجدته؟

لم يستطع سالم أن يكذب.

خفض رأسه.

فهم حسين كل شيء.

ابتسم ابتسامة صغيرة لا تشبه الابتسام.

ثم قال:

. كنت أعرف.

في تلك الليلة، لم يتناول حسين طعامه.

جلس وحده في زاوية القاعة ينظر إلى صورة طفله.

اقترب منه سالم.

. لا تفقد الأمل.

ابتسم حسين بحزن.

. أتدري ما يؤلني؟

. ماذا؟

. أن ابنتي لن تتذكر ملاحني إن مت.

ظل سالم صامتاً.

ثم أخرج حسين ورقة من جيبه.

- إذا لم أعد...

أوصل هذه الرسالة إلى زوجتي.

ارتجفت يد سالم.

- ستعود بنفسك.

هز حسين رأسه.

- في الحرب...

كل واحد يدعي أنه سيعود.

لكن القطار لا يرجع بكل ركابه.

في زاوية أخرى من القاعة، كان جبار الساعدي يشعل سيجارة.

قال وهو ينفث دخانها:

- لا تنظروا إلى القائمة فقط...

انظروا إلى الأسماء التي لم تُكتب.

سأله أحد الجنود:

. ماذا تقصد؟

قال:

. هناك من كان اسمه في أعلى الورقة...

ثم اختفى قبل تعليقها.

. لماذا؟

ضحك جبار ضحكة مرة.

. لأن هاتفاً رن.

ساد الصمت.

ثم أضاف:

. هنا لا ينجو دائماً الأشجع...

بل الأوفر حظاً، أو الأكثر معرفةً بالوجوه التي تفتح الأبواب.

بعد أيام، لاحظ سالم أمراً غريباً.

بعض الجنود، الذين كانوا يستعدون للذهاب إلى الجبهة، اختفوا فجأة من القوائم.

وحل محلهم آخرون.

كان الجميع يعرف أن شيئاً يحدث.

لكن أحداً لا يجرؤ على السؤال.

وفي إحدى الأمسيات، اقترب سالم من جبار.

. هل كل ما يقال عن الوساطات صحيح؟

نظر إليه جبار طويلاً.

ثم قال:

. يا سالم...

حين تطول الحروب، لا يتغير الناس فقط...

تتغير الأخلاق أيضاً.

يصبح الخوف تجارة.

وتصبح المعرفة عملة.

ويصبح الموت وظيفةً تبحث عن موظفين.

في تلك الليلة، لم ينم سالم.

كان يفكر في حسين.

وفي أمه.

وفي أبيه.

وفي بغداد.

وسأل نفسه سؤالاً ظل يطارده حتى الفجر:

هل الوطن هو الأرض التي نموت من أجلها... أم العدالة التي تجعل الموت

يتساوى بين الجميع؟

لم يجد جواباً.

وكانت صفارة الصباح قد بدأت تعلن يوماً جديداً، وقائمةً جديدة، وخوفاً
جديداً.

الفصل الرابع: الطريق إلى المجهول

مرّت الأيام في المعسكر بطيئةً وثقيلة، كأن الزمن نفسه كان يرتدي بدلة
عسكرية ويحمل بندقية.

كان سالم الجبوري قد اعتاد على أصوات الأوامر، وصراخ المدربين، ورائحة
الغبار التي تلتصق بالملابس والوجوه.. لكنه لم يعتد على شيء واحد...

ذلك الشعور الغامض بأن الإنسان قد يصبح رقماً في لحظة واحدة.

كان يرى الجنود في الصباح يضحكون ويتبادلون النكات، ثم في المساء
يجلسون صامتين، كل واحد منهم غارق في عالمه الخاص.

بعضهم يكتب رسالة إلى أمه.

بعضهم يحدق في صورة زوجته.

وبعضهم يخبئ خوفه خلف ضحكة عالية.

أما حسين اللامي، فكان أكثرهم صمتاً.

منذ صدور اسمه في القائمة، تغير شيء في داخله.

لم يعد يتحدث عن المستقبل.

لم يعد يقول: "حين أعود سأفعل..."

بل صار يقول:

"إذا عدت..."

وكان سالم يلاحظ الفرق بين الكلمتين.

فكلمة "حين" تحمل يقيناً.

أما كلمة "إذا" فتحمل خوفاً لا يريد الإنسان الاعتراف به.

في إحدى الليالي، جلس الثلاثة: سالم، حسين، وجبار الساعدي، خلف
المبنى القديم للسرية.

كانت السماء صافية، والنجوم كثيرة، لكن أحداً لم يكن قادراً على
الاستمتاع بجمالها.

قال حسين:

. هل فكرتما يوماً لماذا يكون الفقراء دائماً في الصف الأول؟

نظر إليه سالم.

. ماذا تقصد؟

ابتسم حسين بحزن.

. لا أقصد الفقر بالمال فقط... أقصد الذين لا يملكون أبواباً يطرقونها.

أطرق جبار رأسه.

وقال:

- يا أبنائي، الحرب تكشف كل شيء.

تكشف شجاعة الإنسان...

وتكشف ضعفه...

وتكشف أيضاً مقدار العدل في المجتمع.

سأل سالم:

- وهل وجدت العدل في الحروب التي عشتها؟

ضحك جبار ضحكة قصيرة.

- أنا وجدت شيئاً آخر.

- ماذا؟

- وجدت أن الرصاصة لا تسأل عن اسم عائلة من يحملها أو من تستقر

بجسده .

بعد أسبوع، صدر أمر التحرك.

لم يكن هناك وداع طويل.

فالحروب لا تمنح الناس الوقت الكافي للوداع.

اصطف الجنود في الساحة.

حملوا حقائبهم.

وتقدموا نحو الشاحنات والباصات العسكرية .

كانت الأمهات في البيوت تنتظر أبناء لا تعرف هل سيطرقون الأبواب مرة أخرى.

وكانت المدينة تواصل حياتها، كأنها لا تعلم أن مئات الشباب يغادرون الآن نحو مكان قد لا يعودون منه.

جلس سالم داخل الشاحنة إلى جانب حسين.

كان الطريق طويلاً.

والصمت أطول.

بعد ساعات، قال حسين:

. سالم...

. نعم؟

. إذا عدت إلى بغداد، اذهب إلى أمي.

. لا تقل هذا الكلام.

. دعني أكمل.

سكت قليلاً ثم قال:

. قل لها إنني لم أخف.

نظر إليه سالم.

. هل هذا صحيح؟

ابتسم حسين.

. لا.

ثم أضاف:

. كنت خائفاً جداً.

لكنني لم أرد أن يعرف أحد.

عندما وصلوا إلى المنطقة القريبة من الجبهة، تغير كل شيء.

لم تعد هناك أصوات المدينة.

ولا ضجيج الأسواق.

ولا رائحة البيوت.

كان هناك عالم آخر.

عالم من التراب والانتظار.

في تلك الليلة، جلس سالم داخل الخندق للمرة الأولى.

أمسك بندقيته.

نظر إليها طويلاً.

ثم قال لنفسه:

"كم من الأحلام حملت هذه الأيدي قبل أن تحمل السلاح؟"

تذكر أمه.

وتذكر قاسم.

وتذكر وليمة العشاء.

تذكر الرجل الذي قال إن النجاة تحتاج إلى أبواب.

وفهم الآن أن هناك أبواباً لا يستطيع الجميع الوصول إليها.

لكن أمام الموت...

تسقط كل الأبواب.

في الأيام الأولى، اكتشف سالم أن الجبهة ليست فقط أصوات القذائف.

الجبهة الحقيقية كانت داخل الإنسان.

هناك من يقاتل خوفه.

ومن يقاتل ذكرياته.

ومن يقاتل إحساسه بأنه تُرك وحيداً.

كان جبار يقول دائماً:

. أصعب معركة ليست أن تواجه العدو...

بل أن تمنع قلبك من الانكسار.

وفي إحدى الليالي، وصل خبر إلى الوحدة.

أحد الجنود الذين كانوا معهم اختفى اسمه من قائمة الجبهة قبل وصولهم

بأيام، لأنه نُقل إلى مكان آخر.

لم يتحدث أحد كثيراً.

لكن الجميع فهم الرسالة.

عاد جبار إلى إشعال سيجارته وقال:

. لا تحسدوا أحداً على نجاته.

فكل إنسان يحمل حربه الخاصة.

قد ينجو جسده...

لكن روحه قد تبقى في مكان آخر.

نظر سالم إلى السماء.

كان يبحث عن إجابة.

عن معنى.

عن سبب يجعل بعض الناس يذهبون إلى النار، بينما يقف آخرون بعيداً

عنها.

لكنه لم يجد إلا الصمت.

والصمت في الحرب...

كان أحياناً أعلى من صوت المدافع.

الفصل الخامس: رسائل لا تصل

كانت الجبهة تعلّم الرجال أشياء لا توجد في الكتب.

تعلمهم أن الصمت قد يكون أبلغ من الكلام، وأن الإنسان قد يحمل في

صدره عالماً كاملاً ولا يجد دقيقة واحدة ليحكي عنه.

كان سالم الجبوري قد أمضى أسابيع في المكان نفسه، لكنه شعر أن عمره

تغير سنوات..

لم يعد ذلك الشاب الذي خرج من بيت أبيه وهو يحمل خوفاً من المستقبل

فقط، بل صار يحمل وجوه الذين جلس معهم ذات ليلة، وأصوات الذين

غادروا ولم يعرف أحد مصيرهم.

أما حسين اللامي، فقد أصبح أكثر تعلقاً برسائله..

كل ليلة كان يخرج دفترًا صغيراً ويكتب..

سأله سالم ذات مرة:

. لمن تكتب؟

ابتسم حسين.

. لا بنتي زهراء.

. لكنها لا تستطيع القراءة الآن.

نظر حسين إلى الورقة طويلاً.

. أعرف... لكنني أريدها أن تعرف يوماً أن أباه كان يفكر بها.

سكت قليلاً ثم قال:

. الإنسان يا سالم لا يخاف الموت بقدر ما يخاف أن يحتفي وكأنه لم يكن.

كان جبار الساعدي مختلفاً عن الجميع.

لم يكن يكتب رسائل.

ولم يكن يتحدث عن العودة.

كان يجلس قرب الخندق، يراقب الرجال، وكأنه يحاول أن يحفظ وجوههم.

قال له سالم:

. لماذا تنظر إلينا هكذا؟

أجاب جبار:

. لأنني تعلمت أن الوجوه هي الأشياء الوحيدة التي تبقى بعد رحيل

أصحابها.

ثم أضاف:

. كل حرب تسرق من الإنسان شيئاً.

مرة تسرق عمره.

ومرة تسرق أصدقاءه.

ومرة تسرق ثقته بالعالم.

في إحدى الليالي الهادئة نسبياً، وصل بريد الوحدة.

كان الجنود ينتظرون الرسائل أكثر من انتظار الطعام.

فقد كانت الورقة القادمة من البيت أقوى من أي دواء.

أخذ سالم رسالته.

كانت من أمه.

فتحها بيدين مرتجفتين.

لم تكن طويلة.

كتبت له:

"يا ولدي سالم..."

نحن بخير.

لا تقلق علينا.

أبوك يسأل عنك كل يوم لكنه لا يظهر خوفه.

أما أنا فأدعو لك في كل صلاة.

عد إلينا كما ذهبت...

فالأم لا تريد من الدنيا إلا أبناءها."

قرأ سالم الرسالة مرات كثيرة.

ثم طواها ووضعها قرب قلبه.

لم يكن يعرف أن بعض الكلمات تصبح درعاً أقوى من الحديد.

في الجبهة، لم تكن هناك طبقة كما كانت في المدن.

كان الجميع يرتدي الزي نفسه.

وينام في الخندق نفسه.

ويواجه الخطر نفسه.

لكن خلف كل جندي كانت هناك قصة مختلفة.

كان هناك ابن التاجر.

وابن العامل.

وابن الفلاح.

وابن المدينة الكبيرة.

وابن القرية الصغيرة.

وكانت الحرب تضع الجميع أمام سؤال واحد:

كم يستطيع الإنسان أن يتحمل؟

ذات مساء، جلس سالم مع جبار.

قال:

. هل تعتقد أن هذه الحرب ستغير الناس؟

أجاب جبار:

. كل حرب تغير الناس.

لكن السؤال الحقيقي...

هل تغيرهم إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟

سكت قليلاً ثم تابع:

. هناك من يخرج من الحرب أكثر رحمة.

وهناك من يخرج منها وقد فقد آخر شيء جميل داخله.

. وما الذي يحدد ذلك؟

نظر جبار إلى النار الصغيرة أمامهما.

وقال:

. ما يحمله الإنسان في قلبه قبل أن يدخلها.

في تلك الأيام، بدأ سالم يلاحظ تغيراً في رفاقه.

بعضهم أصبح قاسياً.

بعضهم أصبح لا يتحدث إلا عن النجاة.

وبعضهم صار يضحك على كل شيء، حتى الأشياء التي كانت تبكيه

سابقاً.

قال حسين ذات ليلة:

. أخاف أن نعود من هنا ولا نعرف أنفسنا.

نظر إليه سالم.

. لماذا تقول ذلك؟

قال:

. لأن الحرب لا تنتهي عندما تغادر المكان...

أحياناً نأخذها معنا.

وفي صباح بارد، جاء الأمر بالتحرك إلى موقع أكثر خطورة.

نظر الجنود إلى بعضهم.

لم يتكلم أحد.

فقد أصبحوا يعرفون معنى الأوامر.

اقترب حسين من سالم.

أخرج صورة ابنته.

وقال:

. احتفظ بها قليلاً.

تعجب سالم.

. لماذا؟

ابتسم حسين.

. لا أعرف...

ربما فقط أريد أن تكون في مكان آمن.

أخذ سالم الصورة ووضعها في جيبه.

ولم يكن يعلم أن تلك الصورة الصغيرة ستصبح بعد أيام شاهداً على قصة

إنسانية لن ينساها أبداً.

في ذلك المساء، تحركت القافلة العسكرية نحو المجهول.

وكان كل جندي يحمل شيئاً لا يراه الآخرون:

رسالة لم تصل...

وحلماً مؤجلاً...

وخوفاً لا يريد الاعتراف به.

الفصل السادس: الذين عادوا والذين بقوا

لم يعد الزمن في الجبهة يُقاس بالأيام.

كان يُقاس بالأخبار.

خبرٌ يصل فيغيّر ملامح الرجال.

اسمٌ يُذكر فيصمت الجميع.

رسالةٌ تأتي فتُحيي قلباً.

وأخرى تتأخر فتزرع ألف احتمال.

كان سالم الجبوري يشعر أن الإنسان في الحرب يعيش بين لحظتين فقط:

لحظة ينتظر فيها شيئاً سيئاً...

ولحظة يحمد الله لأنه لم يحدث بعد.

في الموقع الجديد، لم يكن هناك متسع للكلام.

كانت الوجوه متعبة، والعيون تراقب الأفق باستمرار.

جلس سالم بجانب حسين اللامي في ساعة هدوء قصيرة.

قال حسين:

. هل تتذكر بغداد؟

ابتسم سالم.

. كأنها حلم بعيد.

قال حسين:

. أتذكر شارع الرشيد ، رائحة الخبز صباحاً، صوت الأطفال في الأزقة...

ثم سكت.

وأضاف:

. الإنسان لا يعرف قيمة الأشياء الصغيرة إلا عندما تصبح بعيدة.

أجابه سالم:

. ربما نحن لا نفتقد الأماكن فقط...

نحن نفتقد النسخة القديمة من أنفسنا.

نظر إليه حسين باستغراب.

. ماذا تقصد؟

قال سالم:

. قبل الحرب كنا نغضب من أشياء بسيطة، ونحلم بأشياء كثيرة.

أما الآن، فأكبر أحلامنا أن نفتتح باب البيت ونسمع صوت أهلنا.

كان جبار الساعدي يسمع الحديث بصمت.

ثم قال:

. تذكروا شيئاً يا أولاد.

الحرب لا تجعل الإنسان شجاعاً دائماً.

أحياناً تجعله فقط متعباً.

الشجاعة الحقيقية أن يبقى الإنسان إنساناً رغم كل ما يراه.

في إحدى الليالي، جاء خبر صادم إلى الوحدة.

أحد الجنود الذين كانوا معهم منذ البداية لم يعد.

لم يعرف أحد تفاصيل كثيرة.

فقط اسم.

وسرير فارغ.

وحقيبة بقيت في مكانها.

وقف سالم أمام السرير طويلاً.

لم يكن يعرف الرجل جيداً، لكنه شعر أن غياب شخص واحد يمكن أن

يجعل المكان كله أكثر برودة.

قال حسين:

. هل تعتقد أن الناس في المدن يعرفون ماذا يحدث هنا؟

أجاب سالم:

. ربما يسمعون الأخبار.

ضحك حسين بمرارة.

. الأخبار لا تعرف رائحة الخوف.

بعد أيام، جاء دور حسين.

صدر أمر بنقله إلى موقع متقدم.

لم يحاول الاعتراض.

ولم يطلب شيئاً.

كان قد تعب من الانتظار.

قبل أن يغادر، أعاد إلى سالم الصورة الصغيرة مرة أخرى .

قال سالم:

. احتفظ بها أنت.

هز حسين رأسه.

. لا...

أريدك أن تحتفظ بها.

إذا ذهبت إلى العمارة ، أعطها لزهراء.

وإذا نجوت ...

سأستعيدها منك.

ابتسم الاثنان.

لكن كلاً منهما كان يخفي في داخله خوفاً لا يريد قوله.

مرت أيام.

ثم أسابيع.

ولم يعد حسين.

لم يأتِ خبر واضح.

ولم يصل جواب.

كان ذلك أصعب من الخبر نفسه.

فالانتظار أحياناً أكثر قسوة من الحقيقة.

جلس سالم ذات ليلة وحده.

أخرج الصورة.

كانت طفلة صغيرة تبسم دون أن تعرف شيئاً عن عالم الكبار.

تأملها طويلاً.

وقال:

- يا حسين...

لقد بقي وجه ابنتك هنا.

لكن أين بقي وجهك؟

مع مرور الوقت، بدأ سالم يرى شيئاً عميقاً في رفاقه.

لم تكن الحرب تصنع الأبطال فقط.

كانت تصنع أيضاً الناجين.

والناجون يحملون أحياناً أثقالاً لا يراها أحد.

كان بعضهم يعود إلى البيت بجسده فقط.

أما روحه فتبقى عالقة في مكان ما بين الخندق والذكرى.

بعد أشهر، وصل أمر بعودة بعض الجنود إلى بغداد .

كان سالم بينهم.

لم يشعر بالفرح كما توقع.

ففي داخله سؤال واحد:

ماذا عن الذين لم يعودوا؟

ماذا عن حسين؟

ماذا عن أولئك الذين خرجوا معنا من بوابة المعسكر ولم يدخلوا معنا إلى

هذا الطريق؟

حين جلس في الشاحنة العسكرية عائداً، نظر إلى الطريق الطويل.

كان يعلم أنه سيعود إلى بغداد.

لكن شيئاً داخله لن يعود أبداً.

لأن الإنسان حين يرى الحرب عن قرب...

لا يعود كما كان.

الفصل السابع: المدينة التي تغيّرت

حين دخلت شاحنة الجنود أطراف بغداد، شعر سالم الجبوري بإحساس

غريب.

كان الطريق نفسه.

الأبنية نفسها.

الأسواق نفسها.

لكن شيئاً ما كان مختلفاً.

أدرك بعد لحظات أن التغيير لم يكن في المدينة...

بل فيه هو.

فالإنسان قد يعود إلى المكان نفسه، لكنه لا يعود الشخص نفسه.

كان يحمل حقيبتة الصغيرة، وبعض الأوراق، وصورة طفلة اسمها زهراء لم

تغادر جيبه منذ أشهر.

لكنه كان يحمل أيضاً وجوهاً كثيرة.

وجوه الذين جلسوا معه.

وجوه الذين ضحكوا معه.

وجوه الذين اختفوا من الطواير وبقيت أسماؤهم في الذاكرة.

عندما وصل إلى البيت، لم ينتظر أن يطرق الباب.

كان الباب قد فُتح قبل أن يمد يده.

كانت أمه واقفة.

لم تقل شيئاً.

فقط نظرت إليه طويلاً، ثم احتضنته.

في تلك اللحظة، شعر سالم أن كل أصوات الحرب التي سكنت رأسه طوال

الأشهر الماضية قد صمتت قليلاً.

دخل والده ببطء.

كان رجلاً قليل الكلام.

نظر إلى ابنه وقال:

. الحمد لله على السلامة.

كلمتان فقط.

لكن سالم عرف أن خلفهما خوف شهور طويلة.

في الأيام الأولى بعد عودته، حاول الجميع أن يعامله كأن شيئاً لم يحدث.

كانت أمه تطبخ له الأكلات التي يحبها.

وكان والده يسأله عن تفاصيل بسيطة.

لكن سالم كان يشعر أن هناك مسافة بينه وبين الحياة القديمة.

كان يجلس في المقهى نفسه الذي كان يجلس فيه قبل الحرب.

يرى الوجوه نفسها.

يسمع الأحاديث نفسها.

لكن داخله كان في مكان آخر.

بعد أسبوع، ذهب لزيارة صديقه قاسم الدليمي.

فتح قاسم الباب، وما إن رآه حتى عانقه طويلاً.

قال:

. ظننت أنك لن تعود.

ابتسم سالم.

. وأنا أيضاً.

جلسا في الغرفة القديمة.

الغرفة التي بدأت فيها حكاية الولىمة.

نظر قاسم إليه وقال:

. هل تغيرت؟

فكر سالم قليلاً.

. نعم.

. كيف؟

أجاب:

. قبل أن أذهب كنت أخاف من الموت.

أما الآن فأخاف من أن ينسى الناس الذين ماتوا.

سأل قاسم:

. هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

ابتسم سالم.

. ماذا كنت أبحث عنه؟

. النجاة.

نظر سالم إلى الأرض.

. اكتشفت أن النجاة ليست دائماً أن تبقى حياً.

سكت قليلاً.

ثم قال:

. أحياناً النجاة أن لا تفقد نفسك.

بعد أيام، قرر سالم أن يبحث عن عائلة حسين.

لم ينسَ الوعد.

ذهب إلى بيت متواضع في أحد أحياء مدينة العمارة القديمة.

فتحت له امرأة شابة.

كان التعب واضحاً في وجهها.

عرفته فوراً...

. أنت صديق حسين؟

أوماً برأسه.

لم تسأله عن التفاصيل.

فبعض الأسئلة تكون مؤلمة أكثر من الإجابات.

أخرج الصورة.

حين رأتها، ارتجفت يداها.

قالت:

. كان يقول دائماً إن ابنته ستكون طيبة.

نظر سالم إلى الصورة.

ثم قال:

. كان يحبها كثيراً.

سألته:

. هل كان خائفاً؟

صمت سالم.

ثم أجاب:

. نعم.

بكت بحرقة و حزن.

خرج سالم من البيت وهو يحمل شعوراً ثقيلاً.

في الطريق، رأى شباباً صغاراً يمشون في الشوارع.

يضحكون.

يحملون.

يتحدثون عن المستقبل.

توقف لحظة.

فكر:

كم من هؤلاء سيعيشون حياة طبيعية؟

وكم منهم ستغير الحرب طريقهم؟

في المساء، جلس سالم مع والده.

قال الأب:

. هل ستعود إلى الجيش؟

نظر سالم إلى السماء.

. لا أعرف.

ثم أضاف:

. لكنني أعرف شيئاً واحداً.

. ماذا؟

. أن الحرب لا تنتهي عندما يعود الجندي إلى بيته.

ابتسم الأب بحزن.

. بل تبدأ حرب أخرى.

نظر سالم إليه.

. أي حرب؟

قال الأب:

. حرب الذكريات.

في تلك الليلة، فتح سالم دفترًا جديدًا.

لم يكتب عن المعارك.

ولا عن الأسلحة.

ولا عن الأوامر.

كتب عن الناس.

عن حسين.

عن جبار.

عن أولئك الذين كانوا يبحثون عن يوم إضافي من الحياة.

كتب لأن بعض القصص إذا لم تُكتب...

تموت مرتين.

مرة حين يرحل أصحابها...

ومرة حين ينساهم العالم.

الفصل الثامن: الذين حملوا الحرب معهم

مرت السنوات بطيئة، لكن بعض الأيام بقيت واقفة في مكانها..

كان سالم الجبوري يظن أن العودة إلى بغداد تعني انتهاء الحرب، وأن الإنسان عندما يخلع الزي العسكري يستطيع أن يخلع معه الخوف والذكريات.

لكنه اكتشف أن بعض المعارك لا تحتاج إلى ساحة قتال.

تسكن في النفس.

وتختبئ في الروح .

وتظهر فجأة عندما يسمع الإنسان صوتاً يشبه صوتاً قديماً.

كان يلتقي أحياناً ببعض رفاقه القدامى .

كل واحد منهم عاد بطريقة مختلفة.

أحدهم عاد كثير الكلام.

والآخر أصبح قليل الكلام.

وثالث صار يهرب من الحديث عن الماضي كأنه يهرب من رصاصة.

أما جبار الساعدي، فقد وجدته سالم بعد سنوات في مقهى شعبي صغير.

كان كما هو تقريباً.

نفس النظرة العميقة.

نفس السخرية الهادئة.

لكن شيئاً ما انكسر داخله.

جلس سالم إلى جانبه.

قال جبار:

- ظننت أنك نسيت الطريق إلى هنا.

ابتسم سالم:

- بعض الطرق لا تُنسى.

نظر جبار إلى الشارع.

وقال:

. هل تعرف ما أغرب شيء في الحرب؟

. ما هو؟

. أن الإنسان يشفق أحياناً إلى أيام كان يتمنى انتهاءها.

استغرب سالم.

فأكمل جبار:

. لأننا في تلك الأيام، رغم الخوف، كنا نعيش مع أناس يعرفون ألماً.

أما بعد العودة...

فالجميع يريد منك أن تنسى.

سأله سالم:

. هل نسيت أنت؟

ضحك جبار.

. النسيان نعمة لا يحصل عليها الجميع.

ثم أضاف:

. هناك أشياء لا تُنسى لأنها كانت مؤلمة فقط...

بل لأنها كانت حقيقية.

تحدثا طويلاً عن رفاقهما.

عن الذين رحلوا.

عن الذين عادوا.

عن الذين تغيروا.

قال سالم:

. أحياناً أشعر أن الحرب قسمت الناس إلى قسمين.

. من ماتوا...

. ومن عاشوا.

هز جبار رأسه.

. لا .

ثم نظر إليه .

. قسمت الناس إلى من فقدوا شيئاً، ومن لم يعرفوا بعد ما الذي فقدوه .

في تلك الفترة، بدأ سالم يكتب أكثر .

لم يكن يريد أن يكون مؤرخاً للحرب .

ولا قاضياً على أحد .

كان يريد فقط أن يحفظ أصوات الذين لم يعد لهم صوت .

كتب عن أم تنتظر .

وعن جندي يخفي خوفه .

وعن شاب كان يريد أن يصبح معلماً، فإذا به يحمل بندقية .

كتب عن الفقراء الذين لم يملكوا سوى أعمارهم ليقدموها .

وكتب عن مجتمع أنهكته سنوات الخوف، حتى صار الإنسان يبحث عن
أي نافذة صغيرة للنجاة.

ذات يوم، التقى قاسم الدليمي.

كان قاسم ما زال يتذكر تلك الوليمة الأولى.

قال:

. هل تذكر الليلة التي جمعنا فيها الرجال؟

ابتسم سالم.

. كيف أنساها؟

قال قاسم:

. وقتها كنت أظن أنني أستطيع أن أحملك.

أجابه سالم:

. وأنت فعلت ما استطعت.

لكن قاسم هز رأسه.

. لا... .

لقد تعلمت شيئاً.

. ماذا؟

. أن الإنسان مهما حاول، لا يستطيع أن ينقذ الجميع من زمن كامل.

في الليل، عاد سالم إلى دفتزه.

كتب:

"الحرب لا تجعل الناس أشراراً دائماً، لكنها تكشف ما كان مخفياً في

داخلهم.

تكشف الخوف.

تكشف الأنانية.

وتكشف أيضاً أناساً يحملون قلوباً أكبر من قدرتهم على الاحتمال."

ثم توقف.

نظر إلى صورة زهراء القديمة التي احتفظ بها طوال تلك السنوات.

لم يكن يعرف أين أصبحت.

لكنه كان يعرف أن خلف تلك الصورة قصة إنسان.

وقصة وطن كامل عاش سنوات طويلة يبحث عن طريق للخروج من الألم.

وفي صباح اليوم التالي، تلقى خبراً قديماً متأخراً.

لقد عُرف مصير حسين.

جلس سالم طويلاً دون كلام.

لم يبك.

ربما لأن بعض الأحزان تكون أكبر من الدموع.

أغلق الدفتر.

وقال:

. أخيراً عرفت أين أنت يا صديقي .

ثم فتح النافذة .

كان الصباح يدخل بهدوء .

وكأن العالم، رغم كل شيء، يحاول أن يبدأ من جديد .

الفصل التاسع: دفتر الناجين

لم يكن سالم الجبوري يعرف متى تحولت الذكريات إلى مسؤولية .

في البداية كان يكتب لكي يخفف عن نفسه ثقل الماضي، ثم اكتشف بعد

سنوات أن ما يحمله في صدره ليس حكايته وحده .

كانت حكاية جيل كامل .

جيل خرج من بيوت صغيرة يحمل أحلاماً كبيرة، ثم وجد نفسه في وسط

زمنٍ أكبر من قدرته على الفهم .

فتح سالم دفتره القديم .

ذلك الدفتر الذي بدأه في الليلة الأولى بعد عودته.

كان مليئاً بأسماء.

ليس أسماء المشاهير.

ولا أسماء القادة.

بل أسماء الرجال العاديين.

أولئك الذين لا تذكرهم الكتب عادة.

كتب:

"كان حسين يريد أن يرى ابنته تكبر.

كان جبار يريد أن يفهم لماذا تكرر الحروب أخطاءها.

وكان هناك آخرون كثيرون يريدون فقط أن يعودوا إلى بيوتهم."

في أحد الأيام، ذهب سالم إلى بيت جبار.

كان الرجل قد تقدم به العمر، لكن صوته بقي يحمل تلك النبذة الساخرة
نفسها.

قال جبار:

. هل ما زلت تكتب؟

أجابه سالم:

. نعم.

. ولماذا؟

نظر سالم إليه.

. لأنني أخاف أن تضيع أصوات الذين لم يستطيعوا الكلام.

ابتسم جبار.

. إذن أنت لا تكتب عن الحرب.

. عن ماذا؟

. عن الإنسان الذي حاول أن يبقى إنساناً داخل الحرب.

جلسا طويلاً.

تحدثا عن الماضي، لكنهما لم يتحدثا عن القذائف.

تحدثا عن التفاصيل الصغيرة.

عن كوب الشاي في الصباح.

عن نكتة قالها جندي قبل الرحيل.

عن رسالة احتفظ بها صاحبها حتى آخر لحظة.

قال جبار:

. الناس يظنون أن التاريخ تصنعه الأحداث الكبيرة فقط.

لكنني أعتقد أن التاريخ الحقيقي يسكن في الأشياء الصغيرة.

في دمعة أم.

في انتظار زوجة.

في صورة طفل داخل جيب جندي.

بعد أيام، عاد سالم إلى المكان الذي بدأ منه كل شيء.

بيت قاسم.

المكان الذي أقيمت فيه وليمة العشاء قبل سنوات.

جلسا في الحديقة نفسها.

لكن الأشجار كبرت.

والوجوه تغيرت.

قال قاسم:

- غريب كيف يمر الزمن.

أجاب سالم:

- الزمن لا يمر وحده.

- ماذا تقصد؟

. يأخذ معه أشخاصاً، ويترك لنا ذكرياتهم.

تحدثا عن الشباب الذين كانوا يبحثون عن النجاة.

عن أولئك الذين كانوا يحاولون تغيير مصيرهم بوساطة أو معرفة أو طلب صغير.

لم يكن سالم يريد إصدار الأحكام على أحد.

فقد رأى خلال السنوات أن الخوف يمكن أن يدفع الإنسان إلى طرق لم يكن يتوقعها.

لكنه كان يؤمن أيضاً أن المجتمعات التي تفقد العدالة تجعل أبنائها يبحثون عن النجاة الفردية.

قال لقاسم:

. أكبر خسارة للحرب ليست عدد الذين رحلوا فقط.

. فما هي؟

. أن الناس يفقدون ثقتهم بأن الفرص متساوية.

في تلك الليلة، عاد سالم إلى بيته.

جلس أمام مكتبه.

وكتب الصفحة الأخيرة في دفتره:

"لم تكن قصتنا قصة جنود فقط.

كانت قصة أمهات انتظرن.

وقصة آباء أخفوا خوفهم.

وقصة شباب وجدوا أنفسهم في زمن لم يختاروه.

كانت قصة وطنٍ حاول أبناؤه أن يعيشوا رغم كل شيء."

ثم أغلق الدفتر.

لكنه لم يغلق الذاكرة.

بعد سنوات، صار سالم يرى شباباً جددًا يمشون في الشوارع.

كان يراقب ضحكاتهم وأحلامهم.

وكان يتمنى لهم حياة لا يعرفون فيها معنى الانتظار الطويل.

لا يعرفون معنى أن يكون الإنسان بعيداً عن أهله ولا يملك سوى رسالة.

ولا معنى أن يصبح البقاء حلمًا.

كان يعرف أن الأجيال الجديدة لا تحتاج فقط إلى أن تسمع عن الحروب.

بل تحتاج إلى أن تفهم كيف تمنع تكرار أسبابها.

لأن الإنسان الذي لا يتعلم من آلامه...

قد يرثها مرة أخرى.

الفصل العاشر: ما تبقى من الحرب

لم تكن نهاية الحرب لحظة واحدة.

لم يكن هناك يوم استيقظ فيه الناس ليجدوا أن كل شيء انتهى.

الحروب الحقيقية لا تنتهي بهذه البساطة.

قد تصمت المدافع...

لكن أصواتها تبقى في الذاكرة.

قد يعود الجنود إلى بيوتهم...

لكن بعضهم يبقى واقفاً هناك، في مكان بعيد، بين خندق قديم ورفاق
رحلوا.

كان سالم الجبوري يعرف ذلك أكثر من غيره.

فمنذ سنوات طويلة وهو يحمل في داخله مدينة كاملة من الوجوه.

وجه حسين اللامي وهو يبتسم رغم خوفه.

وجه جبار الساعدي وهو يحاول أن يحمي الآخرين بكلمة حكيمة.

وجه أمه وهي تنتظر عند الباب.

ووجه أبيه وهو يخفي دموعه خلف الصمت.

في أحد الصباحات، فتح سالم دفتره للمرة الأخيرة.

لم يكن يريد أن يكتب عن الحرب فقط.

كان يريد أن يكتب عن الدرس الذي تركته.

كتب:

"الحرب لا تكشف قوة السلاح فقط...

بل تكشف قوة المجتمع وضعفه.

تكشف من يقف مع الناس، ومن يبحث عن نجاته وحده.

تكشف قيمة العدالة، لأن الإنسان حين يشعر أن الجميع يقفون أمام

المصير نفسه، يتحمل الألم أكثر.

أما حين يشعر أن بعض الأرواح أثمن من أرواح أخرى، فإن الجرح يصبح

أعمق من الحرب نفسها."

ذهب سالم إلى مقبرة الشهداء في النجف الاشرف .

لم يكن يبحث عن قبر محدد.

كان يبحث عن معنى.

وقف بين الأسماء.

أسماء كثيرة.

بعضها يعرف أصحابها.

وبعضها لم يعرف أحد قصتها.

لكنه كان يؤمن أن خلف كل اسم حياة كاملة.

شاب كان له حلم.

وأم كانت تنتظره.

وبيت كان يفتح بابه له كل مساء.

تذكر حسين.

وتذكر وعده.

أن يحفظ صورة ابنته.

أخرج الصورة القديمة من محفظته.

كانت قد بهتت ألوانها مع الزمن.

لكنه ظل يرى فيها ذلك الوجه الصغير المبتسم.

قال في نفسه:

"ربما لم نستطع أن ننقذ كل الذين أحببناهم..."

لكننا نستطيع أن نحفظ قصصهم."

بعد سنوات، سأل أحد الشباب سالم:

. عمي سالم، لماذا تكتب كثيراً عن ذلك الزمن؟

ابتسم وقال:

. لأن الذين عاشوا تلك الأيام يعرفون أن الذاكرة ليست رفاية.

هي أمانة.

. أمانة لمن؟

نظر إليه طويلاً.

. لمن لم يعودوا.

كان سالم يعرف أن الناس يختلفون في تفسير التاريخ.

كل إنسان يرى الأحداث من زاويته.

لكن هناك حقيقة لا تختلف عليها القلوب:

أن الإنسان البسيط هو دائماً من يدفع الثمن الأكبر حين تتحول الأوطان

إلى ساحات صراع.

الجندي الذي يحمل بندقيته.

الأم التي تحمل خوفها.

الطفل الذي ينتظر أباه.

والشاب الذي يؤجل أحلامه.

كل هؤلاء كانوا وجهاً واحداً لقصة طويلة.

في آخر صفحة من دفتره كتب سالم:

"لم أكتب لأدين زمناً مضى.

ولم أكتب لأحاكم أشخاصاً.

كتبت لأن الإنسان ينسى بسهولة.

والنسيان أحياناً يجعل الألم يعود في صورة جديدة.

كتبت لأقول إن قيمة الوطن ليست في عدد الحروب التي يخوضها...

بل في عدد الأرواح التي يستطيع أن يحميها.

وإن أعظم انتصار ليس أن يعود الجندي حياً من المعركة فقط...

بل أن يعود الإنسان من داخله."

أغلق سالم الدفتر.

ووضعه في مكان آمن.

ثم خرج إلى الشارع.

كانت بغداد تمضي في حياتها.

أصوات الأطفال.

حركة الأسواق.

ضجيج السيارات.

كل شيء يبدو عادياً.

لكنه كان يعرف أن تحت هذا الهدوء طبقات من القصص التي لم تُروَ بعد.

رفع رأسه إلى السماء.

وقال بصوت خافت:

. رحم الله من رحلوا...

وحفظ الله من بقوا.

ثم واصل طريقه.

فقد أدرك أخيراً أن بعض الناس لا يعودون من الحروب ليحكوا عن

الموت...

بل ليشهدوا للحياة.



**أبناء المحسوبيات والذوات... وأبناء
الخنادق والجبهات**

البيت الذي ضاق بثلاثة قلوب (38)

الفصل الاول : شجرة النارج

لم تكن بغداد القديمة مدينةً تُعرف بشوارعها، بل بذاكرتها.. كانت الأزقة في الفضل والكفاح وباب الشيخ تحتفظ بأسرار أهلها أكثر مما تحتفظ بأسمائهم، وكأن الجدران العتيقة كانت تملك آذاناً تسمع، وقلوباً لا تنسى.. البيوت المتلاصقة لم تكن تتجاور بالحجارة فقط، بل بالأفراح التي تتسرب من شبابيكها، وبالأحزان التي تعبر من سطح إلى آخر دون أن تستأذن أحداً.. هناك، لم يكن الخبر يمشي بين الناس؛ كان يتسلل إليهم كما تتسلل رائحة الخبز الساخن عند الفجر، فيعرف الجميع ما حدث قبل أن يكتمل حدوثه.

في أحد تلك الأزقة ورثت بيتاً عن أبي بعد زواجي من سهاد.

كان البيت بغدادياً عتيقاً، تحيط غرفه بحوش واسع تتوسطه شجرة نارج هرمة، تداخلت جذورها في الأرض كما تتداخل الذكريات في القلب..

كلما هبت الريح تناثرت أوراقها فوق البلاط القديم، فأشعر أنها لا تسقط،
بل تكتب رسائل لا يعرف قراءتها إلا الذين عاشوا طويلاً.

كانت سهاد تحب تلك الشجرة أكثر مما تحب الزهور.. تقول إنها تشبه
الأمهات؛ تعطي ظلها للجميع ولا تسأل أحداً عمّا سيمنحه لها الزمن.

كنت أراقبها وهي تسقيها كل صباح، فأشعر أن البيت لا يعيش بالماء، بل
بوجودها.

لم تكن سهاد امرأة كثيرة الكلام. كانت تؤمن أن الحب الحقيقي لا يحتاج
إلى ضجيج، وأن الكلمة التي تُقال في وقتها خير من ألف اعتذار يأتي
متأخراً.. كنت إذا عدت من عملي متعباً وجدتها قد أعدت الشاي،
وجلست قربي دون أن تسألني شيئاً.. كانت تعرف أن بعض الرجال لا
يريدون جواباً، بل يريدون من يصغي إلى صمتهم.

ولهذا أحببتها.

لا لأنها كانت الأجل، بل لأنها كانت المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني
لست مضطراً إلى التظاهر بالقوة.

بعد عامين من زواجنا حملت بطفلنا الأول.

ومنذ ذلك اليوم تغير البيت.

لم تتغير جدرانه، ولا أبوابه، ولا شجرة النارج، لكن الضوء صار أكثر دفئاً،
حتى الأصوات القديمة التي كانت تصدرها الأبواب الخشبية كلما فُتحت أو
أُغلقت بدت كأنها موسيقى مألوفة لا ضجيحاً مزعجاً.

غير أن الحمل لم يكن سهلاً.

بدأ الإرهاق يسرق شيئاً فشيئاً من وجهه سهاد.. كانت تبتسم، لكن
ابتسامتها أصبحت قصيرة، وكأنها تخشى أن تتعب حتى من الفرح.

وفي مساء قائظ من أمسيات تموز، جلست بقربي تحت شجرة النارج
وقالت بصوت خافت:

. أمي تقترح أن تأتي ابنة خالتي سهى لتبقى معنا حتى أضع الطفل...
ستكون عوناً لي.

نظرت إليها مبتسماً.

. وهل يحتاج بيتنا إلى إذن ليستقبل أحداً من أهلك؟

ابتسمت لأول مرة منذ أيام، فشعرت أنني ربحت العالم كله بتلك الابتسامة.
وصلت سهى بعد يومين.

كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، وقد أنهت دراستها الجامعية قبل
أشهر قليلة.. لم يكن جمالها من النوع الذي يلفت الأنظار بسرعة، بل من
ذلك النوع الذي يزداد وضوحاً كلما طال التأمل.. كانت ملامحها هادئة،
وعيناها واسعتين، لكنهما تحملان حزناً لا ينسجم مع عمرها.

في الليلة الأولى، جلسنا جميعاً في الحوش.

كانت الكهرباء قد انقطعت، فأزنا فانوساً صغيراً، وانعكس ضوءه على
أوراق النارج.

قالت سهى وهي تنظر إلى السماء:

. غريب... كل النجوم تبدو قريبة حين تنقطع الكهرباء.

ابتسمت سهاد.

. ربما لأن ضوء الناس يخفت، فيظهر ضوء السماء.

أما أنا فقلت:

. أو لأن الظلام يجعل الإنسان يرى ما كان يغفله في الضوء.

صمتنا جميعًا.

ولم أكن أعلم أن تلك الجملة سترافقني طويلاً.

مرت الايام هادئة ...

كنت أخرج صباحًا إلى عملي، وأعود عصرًا.

كانت سهاد تستريح أغلب الوقت، بينما تتولى سهى شؤون البيت.

كانت تضحك مع سهاد كثيرًا، وتروي لها حكايات الجامعة، ثم تلتزم الصمت كلما دخلت أنا الغرفة.

في البداية ظننتها خجولة.

لكن شيئًا آخر كان يتشكل بصمت.

في إحدى الأمسيات عدت مبكرًا.

وجدتها في الحوش تجمع أزهار النارج المساقطة.

رفعت رأسها وقالت:

. أتعرف لماذا أحب هذه الشجرة؟

قلت:

. لأن رائحتها جميلة؟

هزت رأسها.

. لأنها تمنح الزهر، ثم تتركه يسقط دون أن تحاول الاحتفاظ به... وحدها

الأشجار تعرف أن بعض الأشياء لا تُملك.

توقفت لحظة.

ثم أضافت بصوت خافت:

. أما البشر... فيتعبون لأنهم يريدون الاحتفاظ بكل شيء.

لم أعرف لماذا شعرت أن حديثها لم يكن عن الأشجار.

فاكتفيت بالصمت.

كان الصمت أحياناً أكثر أماناً من الكلمات.

في تلك الليلة لم أستطع النوم.

كنت أنظر إلى وجه سهاد وهي نائمة.

كانت تضع يدها فوق بطنها، كأنها تحرس طفلنا حتى في أحلامها.

تساءلت في داخلي:

لماذا يخاف الإنسان من الأشياء قبل أن تقع؟

ولماذا تتحول البراءة أحياناً إلى مصدر قلق؟

لم أكن أشعر نحو سهى إلا بالاحترام والشفقة.

لكنني كنت أخشى سوء الفهم.

فالقلوب لا تخطئ دائماً لأنها تريد الخطأ.

بل لأنها تتأخر في فهم نفسها.

الفصل الثاني

البيت الذي يتسع للناس... ويضيق بالمشاعر

كانت الأيام تمر بطيئة، كأن الزمن في البيوت البغدادية القديمة لا يُقاس

بالساعات، بل بصوت بائع الخضار الذي يعبر الزقاق صباحاً، وبرائحة

الخبز الخارج من التنور، وبالأذان الذي يتردد بين المآذن القديمة فيتداخل مع

هديل الحمام فوق السطوح.

صار وجود سهى جزءًا من تفاصيل البيت.. كانت تستيقظ قبل الجميع،
تكنس الحوش، وتسقي شجرة النارج، ثم تضع إبريق الشاي على الموقد
قبل أن توقظ سهاد لتناول دوائها.

كنت أراقبها من بعيد، فأرى في حركتها نظامًا يشبه محاولة الهروب من
نفسها.. لم تكن تتحرك بعفوية فتاة في الرابعة والعشرين، بل بوقار امرأة
أنهكتها سنوات لم تعشها.

وفي إحدى الأمسيات، كنت أصلح بابًا خشبيًا تقادمت مفاصله، بينما
كانت سهاد تغفو في غرفتها.

خرجت سهى تحمل فنجانين من الشاي.

ناولتني أحدهما وجلست على الدرجة الحجرية المقابلة.

ساد بيننا صمت طويل.

ثم قالت دون أن تنظر إليّ:

. هل تصدق أن الإنسان قد يعيش عمرًا كاملاً وهو يبحث عن بيت... لا

عن مدينة؟

ابتسمت.

. أليس البيت جزءًا من المدينة؟

هزت رأسها.

. لا... المدينة جدران وشوارع... أما البيت فهو الشعور الذي يجعلك لا

تخاف من العودة آخر النهار.

تأملت كلماتها طويلاً.

ثم سألتها:

. وهل لم تجدي هذا البيت بعد؟

أطرقت برأسها.

. وجدته مرة... لكنه لم يكن لي.

شعرت أن سؤالاً آخر كان يقف على طرف لساني، لكنني ابتلعتة.

هناك أسئلة، إذا خرجت من أفواهنا، غيّرت حياةً كاملة.

بعد أيام، خرجت مع سهاد إلى الطبيب.

كانت تسير ببطء، تمسك بذراعي خشية أن تتعثر.

وفي طريق العودة، اشترت ثوباً صغيراً لطفلنا.

ظلت تنظر إليه طوال الطريق.

ثم قالت وهي تبتسم:

. أتمنى أن يشبهك.

ضحكت.

. ولماذا لا يشبهك أنت؟

قالت وهي تربت على بطنها المنتفخ:

- لأنك تعرف كيف تمنح الناس الطمأنينة... وأنا أريد لطفلي أن يكون

ملاذًا لمن يحب، لا عبئًا عليهم.

كانت كلماتها بسيطة، لكنها أصابتني بشيء يشبه الوخز.

تذكرت سهى.

وتذكرت حديثها عن البيت الذي لم تجده.

أدركت أن الإنسان قد يمنح الطمأنينة دون أن يقصد، وأن بعض القلوب

الجائعة تفسر الأمان حبًا، بينما لا يكون في الأمر سوى إنسانية صادقة.

ومن هنا تبدأ المأساة.

في تلك الليلة انقطعت الكهرباء.

جلسنا في الحوش تحت ضوء الفانوس.

كانت سهاد تنسج آخر قطعة من ملابس الطفل، بينما أخذت سهى تقرأ

ديوانًا قديمًا وجدته في مكتبة أبي.

قالت فجأة:

. لماذا يكتب الشعراء عن الحب وكأنه دائماً ينتهي بالفراق؟

قلت:

. لأن القصص السعيدة يعيشها الناس... أما الحزينة فيكتبونها.

ابتسمت ابتسامة شاحبة.

. إذن نحن لا نكتب إلا ما نفقده.

لم أجب.

كانت سهاد تنظر إلينا بهدوء.

لم أشعر في نظرتها غيرة، بل شيئاً أقرب إلى التأمل.

وكأنها كانت ترى ما لم أره أنا.

بعد منتصف الليل استيقظت لأشرب الماء.

مررت بالحوش.

وجدت سهى جالسة وحدها تحت شجرة النارج.

كانت تحديق في السماء.

ترددت قبل أن أتكلم.

لكنها سبقني.

. أحياناً أشعر أن الإنسان يولد متأخراً.

قلت:

. ماذا تقصدين؟

قالت:

. أقصد أنه قد يقابل الشخص المناسب... بعد أن يصبح الوصول إليه

مستحيلاً.

كان الليل ساكناً.

حتى أوراق النارج توقفت عن الحركة.

قلت بهدوء:

. ليست كل الأشياء التي نجبها خلقت لنملكها.

رفعت رأسها.

كانت عيناها تلمعان بالدموع.

. أعرف...

ثم أردفت بصوت متهدج:

. لكن القلب لا يتعلم بسرعة العقل.

اقتربت منها خطوتين فقط.

ليس لأواسيها...

بل لأحافظ على المسافة التي يجب أن تبقى بينها.

قلت:

. هناك مشاعر لا تكون شريفة لأنها تحققت... بل لأنها بقيت صامتة.

أطرقت طويلاً.

ثم مسحت دموعها بطرف ثوبها.

. ساعمني... لم أكن أريد أن أثقل عليك بشيء.

. أنت لم تفعلي شيئاً يستحق الاعتذار.

. بل فعلت...

سكنت لحظة.

. بدأت أرى فيك الرجل الذي كنت أتمنى أن ألتقيه قبل سنوات... لا

الرجل الذي يجب أن أنساه اليوم.

لم أشعر بالخوف.

شعرت بالحزن.

لأنني أدركت أن بعض الناس لا يتركبون خطاياهم بدافع السوء، وإنما

بدافع الوحدة.

عدت إلى غرفتي.

وجدت سهاد مستيقظة.

كانت تنظر إليّ بعينين هادئتين.

سألتني:

. فراس .. كانت سهى في الحوش؟

تفاجأت.

. نعم...

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم قالت:

. كنت أعلم أنها لا تنام الليالي الأخيرة.

جلست إلى جانبها.

أمسكت يدها.

ولأول مرة منذ زواجنا شعرت أن الصدق، مهما كان موجعًا، أرحم من الصمت.

قلت بصوت خافت:

. غداً... سأحدثك عن كل شيء.

أغمضت عينيها.

وقالت بثقة لم تهتز:

. وأنا سأسمعك... لأن الثقة لا تُختبر عندما يكون كل شيء بخير، بل عندما يبدأ الخوف بالدخول إلى البيت.

في تلك اللحظة، أدركت أن البيوت لا تنهار حين يدخل إليها شخص ثالث...

بل حين يخرج منها الحوار.

الفصل الثالث : النهاية

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن.

كان الليل يهبط يهبط على باب الشيخ، والريح تحرك أغصان النارج حتى بدا ظلها على الجدار كأنه يدان تبحثان عن شيء ضاع منذ زمن.. أدركت أن الإنسان لا يخشى الحقيقة لأنها موجهة، بل لأنه يعرف أنها ستغير صورته في عيون من يحب، حتى وإن خرج منها بريئاً.

مع أول ضوء للفجر، كانت سهاد قد استيقظت.

أعدت الشاي كعادتها، رغم أن التعب كان واضحاً على وجهها.. جلست أمامي في الحوش، وبيننا الطاولة الخشبية التي صنعها أبي بيديه قبل ثلاثين عاماً.

قالت بهدوء:

. قلت إن عندك كلاماً.

تنفست طويلاً.

ثم رويت لها كل شيء.

لم أخفِ نظرةً، ولم أخفِ جملةً، ولم أحاول أن أجعل نفسي بطلاً ينتصر
على الإغراء، ولا ضحيةً لظروف لم يصنعها... ؛ قلت لها إنني رأيت حزن
سهى قبل أن أرى إعجابها، وإنني خفت عليها كما خفت عليك، وإن
خوفي الأكبر كان أن يتحول صمتي إلى كذب.

ظلت تستمع دون أن تقاطعني.

كانت عيناها معلقتين بأوراق النارج المتساقطة، كأنها تبحث فيها عن
جواب لا تملكه الكلمات.

وحين انتهيت، قالت:

. هل تعرف لماذا صدقتك قبل أن تتكلم؟

نظرت إليها مستغرباً.

ابتسمت ابتسامة هادئة.

. لأن الرجل الذي يقرر أن يخبر زوجته بالحقيقة، وهو قادر على إخفائها،

لا يكون قد جاء ليطلب البراءة... بل جاء ليحمي البيت.

ثم سكنت قليلاً.

وأضافت:

. لكن سهى تحتاج إلى من يحمي قلبها أيضاً.

في المساء طلبت من سهى أن تجلس معنا.

دخلت وهي تشعر أن شيئاً ما قد انكشف.

جلست مترددة، وأخذت تعبت بطرف ثوبها .

قالت سهاد بصوت لم يكن فيه غضب، بل حزن يشبه حزن الأم على

ابنتها:

. يا سهى... هل تعلمين ما أصعب أنواع الفقد؟

هزت رأسها بالنفي.

. أن يفقد الإنسان نفسه، وهو يظن أنه يبحث عن الحب.

بدأت دموع سهى تتجمع في عينيها.

لكن سهاد واصلت حديثها:

. أنا لا ألوئك لأن القلب لا يستأذن صاحبه قبل أن يميل، لكن الإنسان

يُحاسب على الخطوة التي تأتي بعد الميل.

أجهشت سهى بالبكاء.

وقالت وهي تغالب شهقاتها:

. والله ما أردت أن أخونك.

مدت سهاد يدها نحوها.

. أعرف.

. كنت... كنت أبحث عن رجل يشبهه، لا عنه هو.

ثم التفتت نحوي.

. أول مرة رأيته وانت تحمل أكياس الدواء لسهاد ، وتجلس قربها ساعات
دون أن تتذمر، تذكرت خطيبي.

ساد الصمت.

ثم تابعت:

. كان اسمه عمر.

رفعنا رؤوسنا إليها.

. قُتل قبل زفافنا بأسبوعين... ومنذ ذلك اليوم، كلما رأيت رجلاً طيباً،

ظننت أن الله يعيد لي شيئاً مما أخذ مني.

كان البكاء يقطع كلماتها.

. لم أحب فراس لأنه فراس... أحبت الأمان الذي شعرت به في حضوره..

كنت أريد أن أصدق أن الرجال الذين يشبهونه ما زالوا موجودين.

شعرت أن شيئًا انكسر في داخلي.

لم يكن ما سمعته اعتراف امرأة عاشقة، بل اعتراف روح أرهقها اليتيم

العاطفي.

اقتربت سهاد منها.

وضمتها إلى صدرها.

وقالت:

. لا تسمح لي للحزن أن يقنعك بأنك لا تستحقين حبًا يخلصك وحدك.

غادرت سهى البيت بعد ثلاثة أيام.

حين خرجت، وقفت عند باب الدار .

التفتت نحونا.

ابتسمت ابتسامة امتزج فيها الامتنان بالأسى.

ثم قالت:

. سأدعو لطفلكما كل ليلة... وأدعو لنفسي أن أتعلم الفرق بين الحاجة إلى

الأمان، والحاجة إلى شخص بعينه.

ورحلت.

كانت تمشي ببطء.

وكلما ابتعدت، شعرت أن الزقاق صار أطول مما كان.

بعد شهر، وضعت سهاد مولودًا ذكرًا.

حين حملته بين ذراعي، شعرت أن الحياة تمنح الإنسان فرصة جديدة كلما

ظن أنها انتهت.

قالت سهاد وهي تنظر إلى الطفل:

. ماذا سنسميه؟

قلت:

. أريده أن يحمل اسمًا يعني السلام.

ابتسمت.

. إذن... سلام .

وافقت.

لأنني كنت أريد أن يكبر بعيدًا عن الحروب التي تمزق القلوب قبل أن تمزق

المدن.

ثم مرت السنوات.

كبر سلام .

وماتت شجرة النارج.

قال البستاني إنها شاخت، وإن جذورها لم تعد قادرة على حملها.

لكنني كنت أعرف أنها لم تمت من العمر.

ماتت لأنها حملت فوق أغصانها من الأسرار أكثر مما تحمل الأشجار.

زرعت مكانها شجرة صغيرة.

وحين سألتني ابني يومًا:

. لماذا قطعت الشجرة القديمة يا أبي؟

قلت له:

. لأن لكل شجرة عمرًا.

لكنه سألتني مرة أخرى:

. وهل تموت الأشجار مثل الناس؟

ابتسمت.

ونظرت إلى المكان الذي كانت تقف فيه.

ثم قلت:

. لا يا بني...

الأشجار تموت واقفة.

أما البشر...

فقد يموتون وهم ما زالوا يمشون بين الناس.

كلما مررت اليوم بأزقة باب الشيخ، أدرك أن البيوت القديمة لم تكن عظيمة لأنها بنيت بالحجر والجص، بل لأنها كانت تقوم على كلمة واحدة إذا ضاعت، ضاع كل شيء بعدها.

الثقة.

لقد تعلمت متأخرًا أن الحب ليس دائمًا أن تقترب ممن تحب، بل قد يكون أن تبعد عنه حفاظًا على إنسان آخر يحبك، وأن الوفاء لا يعني غياب الرغبات، بل القدرة على تهذيبها حتى لا تتحول إلى أنقاض يسكنها الندم. ولم يكن في تلك الحكاية خائن ولا قديس.

كان هناك ثلاثة بشر، لكل واحد منهم جرحه الخاص.

امرأة خافت أن تخسر بيتها.

وامرأة أرهقها الحرمان حتى أخطأت الطريق إلى قلبها.

ورجل اكتشف أن أصعب المعارك ليست تلك التي يخوضها الإنسان مع

الآخرين، بل تلك التي يخوضها بصمت مع نفسه.

ومنذ ذلك اليوم، كلما أُغلقت أبواب البيوت البغدادية مع المغيب، تذكرت

أن الجدران لا تحمي المنازل، والأقفال لا تحرس العائلات، وأن أوسع

البيوت قد يضيق بثلاثة قلوب إذا غاب الصدق، كما يمكن لأصغر البيوت

أن يتسع للعالم كله إذا سكنته الرحمة والثقة.



البيت الذي ضاق بثلاثة قلوب

تراتيل الطين والحزير (39)

في تلك السنوات العجاف من ثمانينيات القرن الماضي، كان العراق أشبه

بمطحنة كبرى تلتهم أجساد الشباب بلا هوادة... كانت بغداد ترتدي ثوباً

رمادياً قسرياً؛ طواير الأمهات المتشحات بالسواد أمام أبواب دوائر

التجنيد، وباصات مصلحة نقل الركاب الحمراء التي تحولت إلى ناقلات بشرية تقذف بأصحاب الخاكي والتبغ الرخيص إلى جحيم الجبهات الأمامية.

كان عادل شاباً من أبناء الأغلبية العراقية الكادحة، يحمل في عينيه طيبة الجنوب وعنفوان الفرات وفي قلبه انكسار جيل بأكمله... , جيشٌ يُساق إليه الشباب عنوة وسخرة وجبراً، ليخوضوا حروباً بالنيابة عن الآخرين، معارك خاسرة يُراد منها حماية عروش وهمية وشعارات قومية مستوردة لا تطعم جائعاً ولا ترد غائباً.. في ذلك المناخ الطائفي والطبقي المقيت، كان ابن الجنوب والفرات الأوسط هو الوقود الدائم لآلة الحرب، بينما ينعم أبناء الحظوة والفئة الهجينة والاقلية بالوظائف المربحة خلف المكاتب المكيفة.

هدية الخلاص الوهمي

في صيف عام 1985، لم يكن صوت الهاتف في بيوت العراقيين يحمل أخباراً كثيرة، لكنه كان يحمل دائماً احتمالاً واحداً: خبراً قد يقلب حياة عائلة كاملة.

حين وصل الأمر إلى عادل:

"الالتحاق الفوري إلى الوحدة... والتحرك إلى القاطع الأمامي."

شعر للحظة أن الورقة التي بين يديه أثقل من بندقية.

لم يكن يخاف الموت وحده، فقد رأى الموت قريبًا منذ سنوات الحرب الأولى، لكنه كان يخاف ذلك النوع من الموت الذي لا يعرف صاحبه لماذا اختير له، ولا لماذا ذهب هو إلى المكان الذي يحاول الآخرون الهروب منه.

كان يعرف أن الجبهة الأمامية ليست مجرد موقع عسكري، بل مساحة تفصل بين الإنسان واسمه؛ هناك يصبح الجندي رقمًا في قائمة، وصورة معلقة على جدار، وخبرًا قصيرًا في نهاية نشرة الأخبار.

في تلك الليلة ذهب إلى صديقه القديم أبو سيف.

كان أبو سيف يعرف عادل منذ الطفولة، يعرف ضحكته قبل الحرب، ويعرف وجهه بعد أن أخذت الحرب منه الكثير.

جلسا في دكان صغير قرب الزقاق، والليل يهبط ببطء.

قال عادل وهو ينظر إلى الأرض:

. انتهى الأمر يا أبو سيف... غداً أذهب.

أشعل أبو سيف سيجارته وبقي صامتاً للحظات.

ثم قال:

. لا يوجد شيء اسمه انتهى الأمر ما دام هناك رجال يعرفون رجالاً.

رفع عادل رأسه.

. ماذا تقصد؟

ابتسم أبو سيف ابتسامة حزينة.

. أقصد أن هذه الحرب لم تكن تدار بالبنادق فقط... أحياناً كانت تُدار

بالأسماء.

في اليوم التالي طلب أبو سيف من عادل أن يرافقه إلى بيت رجل يُدعى

أبو المجد.

كان أبو المجد من أولئك الرجال الذين لا تحمل مناصبهم الرسمية شيئاً واضحاً، لكن الجميع يعرف أن هاتفه يصل إلى أماكن لا تصل إليها هواتف الآخرين.

قبل أن يذهب، أوقف أبو سيف سيارة أجرة، وكان يحمل صندوقاً مغلقاً بعناية.

نظر إليه عادل باستغراب.

. ما هذا؟

تردد أبو سيف قليلاً.

. هدية.

قطب عادل حاجبيه.

. هدية لمن؟

نظر أبو سيف من النافذة وقال:

. أحيانًا يا عادل، في زمن الخوف، تصبح الهدية لغة لا يفهمها إلا أصحاب القرار.

شعر عادل بضيق في صدره.

لم يكن مرتاحًا للفكرة، لكنه كان يرى أمامه شبح الجبهة.

كان الإنسان عندما يقترب الموت منه لا يعود يفكر بالأخلاق كما يفكر بها وهو آمن.

دخلوا بيت أبي المجد.

كان البيت واسعًا، تفوح منه رائحة القهوة الفاخرة والعطور الماركة العالمية .. جلس أبو المجد في صدر المجلس، رجل في أواخر الخمسينيات، له نظرات هادئة لكنها تحمل ثقة شخص اعتاد أن تُفتح له الأبواب.

وضع أبو سيف الصندوق جانبًا.

قال:

. أبو المجد... هذا شيء بسيط لا يوازي مقامك، لكننا نعرف أنك صاحب نخوة.

نظر أبو المجد إلى الصندوق، ثم إلى عادل.

فهم المعنى دون أن يسأل.

قال:

. يبدو أن وراء هذه الزيارة أمرًا أكبر من المجاملة.

تدخل أبو سيف بسرعة:

. أخونا عادل صدر له أمر بالذهاب إلى الجبهة الأمامية.. أنت تعرف ماذا

يعني ذلك هذه الأيام. نريد تدبر أمره، نقله إلى مكان آخر، أي شيء

يبعده عن الخط الأول.

نظر أبو المجد إلى عادل طويلاً.

. وأنت؟ ماذا تريد؟

ابتلع عادل خوفه وقال:

. أريد فقط أن أعود إلى بيتي حيًا.. لا أطلب رتبة، ولا منصبًا، ولا امتيازًا..
أريد مكانًا أؤدي فيه خدمتي دون أن أرمى إلى الموت لأن اسمي لم يجد من
يحميه.

ساد صمت ثقيل.

أخذ أبو المجد نفسًا عميقًا.

. يا عادل... أنت ما زلت تفكر أن الأمور تسير فقط بالأوامر والتعليمات.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

. الحرب علمتنا أن هناك أوامر مكتوبة على الورق، وأوامر أخرى تُكتب

خلف الأبواب المغلقة.

قال عادل:

. لكن الجيش له نظام.

ضحك أبو المجد بهدوء.

. نعم، له نظام... لكن البشر هم الذين يحركون النظام.

ثم أشار إلى الصندوق.

. هذه الهدية ليست المشكلة... المشكلة أن آلاف الشباب مثلك يبحثون

عن باب صغير يخرجون منه، بينما تبقى أبواب الجبهة مفتوحة لمن لا يملك

مفتاحًا.

خفض عادل رأسه.

كانت الجملة تؤلمه أكثر مما تطمئنه.

لأنه أدرك أن مشكلته لم تكن في الحرب فقط، بل في الطريقة التي جعلت

النجاة امتيازًا يحتاج إلى واسطة ومحسوبيات .

بعد لحظات قال أبو المجد:

. هناك شخص يمكن أن يساعد.

رفع أبو سيف عينيه بسرعة.

. من؟

قال أبو المجد:

. ليس بالضرورة صاحب رتبة أعلى... أحياناً تكون القوة في المكان الذي لا تتوقعه.

سأل عادل:

. هل تقصد مسؤولاً عسكرياً؟

ابتسم أبو المجد.

- أقصد شخصاً يستطيع أن يجعل ورقة واحدة تغير طريق جندي كامل.

سكت قليلاً ثم قال:

. في هذا الزمن يا عادل، لم تكن الرتب وحدها تصنع النفوذ... أحياناً كان القرب من أصحاب القرار أقوى من النجوم التي على الكتف.

في هذا الزمن، يوجد من هو أقوى من المدافع والامر العسكرية .. إنها

(زوجة رئيس الأركان)!

نظر عادل إلى الصندوق الموضوع على الطاولة.

لأول مرة شعر أن الهدية لم تكن خلاصًا، بل شهادة على زمن أصبح فيه

الإنسان يحتاج إلى التوسل كي يحصل على حقه في الحياة.

خرج من بيت أبي المجد وهو لا يعرف هل اقترب من النجاة أم اقترب من

شيء أكثر قسوة.

كان يحمل أملاً صغيراً...

لكن في داخله كان يعرف أن الأمل الذي يُشتري بالخوف لا يكون

خلاصًا كاملاً.

لقد كان مجرد خلاص وهمي مؤجل.

صالونات زيونة: الحرب في غرف الحرير

انتهى اللقاء ... لكن الدرب الذي فُتح أمام عادل كان أشد خطورة من
حقول الألغام... ؛ اذ تحولت البوصلة من خنادق شرق البصرة المحترقة إلى
بيوت حي "زيونة" الراقي؛ حيث الفيلات الفخمة والحدايق الغناء التي
تفوح منها رائحة الياسمين، وحيث يعيش قادة الحروب وعائلاتهم في معزل
تام عن بؤس المعسكرات وظروف الحياة القاسية .

دخل عادل ذلك العالم المخملي بوساطة أبو المجد... ؛ التقى بـ "السيدة"،
زوجة المسؤول العسكري الكبير.. كانت امرأة في أربعينياتها، يكسوها
الترف، وتعيش عزلة عاطفية خلف جدران قصرها، بينما زوجها غارق في
خرائط الموت العبتية.

تحول الجندي العراقي، الهارب من الموت، إلى لعبة في يد هذا المجتمع
المخملي... ؛ بدأت العلاقة بطلب المساعدة والشفاعة، وتطورت إلى
لقاءات غرامية عاصفة خلف الستائر الحربية لبيوت زينة...

كان عادل يشعر بازدواجية قاتلة وسقوط نفسي مريع: في النهار، يُذل في
المعسكرات والوحدات والمقرات العسكرية لكونه من "الأغلبية" التي لا سند

لها، وفي الليل، يصبح الملاذ العاطفي لزوجـة الرجل الذي يرسل الآلاف من
أقرانه إلى الموت بجرّة قلم.

كانت تراه يرتجف، فتقول له وهي تداعب خصلات شعره المتعب:

* زوجة المسؤول: "لا تخف يا عادل.. ورقة إلحاقك بحامية بغداد أصبحت

على مكثي.. لن تذهب إلى الفاو، ولن ترى شرق البصرة."

* عادل (ودموع القهر تكاد تطفر من عينيه): "سيدتي.. أنقذت

جسدي، لكن ماذا عن روعي؟ أصدقائي يموتون هناك في الطين، وأنا

هنا..."

سريالية المأساة العراقية

عاش عادل تلك الحقبة ممزقاً بين غريزة البقاء التي دفعته لركوب هذا المركب

الوعر، وبين كرامته الإنسانية التي داسها الواقع الطائفي والعسكري المرير...

؛ كان يرى بأم عينيه كيف تُدار الدولة والحروب؛ ليس بالخطط العسكرية،

بل بالمحسوبيات، والواسطات، ونزوات القصور والبيوت الفاخرة .

بقي عادل حياً بجسده، لكنه مات نفسياً.. لقد أدرك أن الحرب لم تكن
دفاعاً عن وطن، بل كانت مسرحية دموية يدفع ثمنها البسطاء من دماء
قلوبهم واحيانا من ماء اصلاهم ، بينما تُكتب فصولها وتُعدّل مصائر
رجالاتها في صالونات الحرير والنعيم.

ولم يرغب عادل يوماً في إكمال بقية الأحداث؛ لأن بقيتها مغموسة
بالخزي، والوجع، ومرارة الحقيقة التي تُعري مجتمعاً كاملاً كان يصفق للموت
ويهرب منه في آن واحد.



تراتيل الطين والحرب

نُثار الرصيف (40)

لم يكن الحصار الاقتصادي في تسعينيات القرن الماضي مجرد أزمة في الغذاء والدواء، بل كان امتحاناً قاسياً لكرامة الإنسان العراقي. كانت الرواتب

تتبخّر قبل أن تصل إلى الجيوب، وأصبحت الشهادات الجامعية عاجزة عن شراء كيس رز أو علبة حليب للأطفال. وفي تلك السنوات، لم يكن الفقر يختار ضحاياه؛ فقد طرق أبواب الجميع، حتى أولئك الذين كانت الجامعات تفتح لهم أبوابها احتراماً لعلمهم.

في صباح شتوي بارد، كنت أعبّر شارع الرشيد متجهاً إلى الجامعة. كان الرصيف مزدحماً ببسطات صغيرة تباع كل شيء؛ كتباً مستعملة، أقلاماً، علب كبريت، وسجائر مفردة. توقفت فجأة، فقد استوقفني وجه أعرفه جيداً.

كان يجلس على صندوق خشبي صغير، وأمامه قطعة قماش باهتة رُتبت عليها علب السجائر المحلية والمستوردة الرديئة. رفع رأسه ببطء، فالتقت عينانا.

لم أصدق.

إنه الدكتور **عبد الجبار**.

أستاذ الفلسفة الذي كان قبل سنوات يقف على منصة المحاضرات في كلية الآداب، يشرح لنا أفلاطون وأرسطو وديكارت وكانط، ويحدثنا عن الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية. الرجل الذي كان يدخل القاعة بهدوئه المعتاد، فتعمها هيبة العلم، لا هيبة المنصب.

أما اليوم، فقد كان يبيع السجائر المفردة على الرصيف.

اقتربت منه متردداً.

قلت بصوت خافت:

"دكتور... حضرتك؟"

ابتسم ابتسامة متعبة، وقال وكأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ زمن:

"أهلاً ولدي... تفضل."

لم أجد ما أقوله.

كان معطفي القديم أفخم من بدلته التي بهت لونها من كثرة الاستعمال،
وكانت يدها، اللتان اعتادت الإمسك بالكتب، ترتجفان وهما تعدان ثمن علبة
سجائر لا يتجاوز بضعة دنانير.

قلت وأنا أكاد أختنق:

"دكتور... ماذا تفعل هنا؟"

ابتسم مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت ابتسامة رجل هزمته الحياة، لا
رجل هزمته المعرفة.

قال بهدوء:

"أبيع السجائر."

سكت قليلاً، ثم أضاف:

"راتب الأستاذ الجامعي لم يعد يكفي أسبوعاً واحداً. وعندي أربعة أطفال
لا يفهمون معنى الحصار، ولا يستطيعون أن يأكلوا النظريات الفلسفية."

ساد الصمت بيننا.

كنت أشعر أن كل المحاضرات التي حضرناها عنده أصبحت أصغر من هذه اللحظة.

بعد دقائق جمعت شجاعتي وقلت:

"دكتور... معظم أساتذة الجامعة سافروا. لماذا لم تغادر أنت أيضاً؟"

نظر إلى آخر الشارع، كأنه يرى العراق كله واقفاً هناك.

ثم قال بصوت خافت:

"وَمَنْ يَرِيّ أَوْلَادِي إِنْ تَرَكْتَهُمْ؟"

سكت لحظة.

"وهل أترك أمي العجوز وحدها؟"

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

"ثم إلى أين أذهب؟"

أجاب نفسه قبل أن أجيب.

"قد أعيش خارج العراق... لكنني لن أعيش بعيداً عنه."

أطرق برأسه قليلاً، ثم قال:

"يا بني... الوطن ليس فندقاً نغادره عندما تسوء الخدمة."

كانت كلماته أثقل من المدينة كلها.

قلت:

"ولكنك تستحق حياة أفضل."

ابتسم وقال:

"ربما... لكن العراق أيضاً يستحق أبناء لا يتركونه في الشدائد."

مرت سنوات طويلة.

انتهى الحصار، وسقط النظام البعثي ، ودخل العراق مرحلة جديدة بعد
عام 2003.

تبدلت الحكومات، وتغيرت الشعارات، وامتألت الشاشات بالسياسيين،
وارتفعت أرقام الموازنات إلى مستويات لم يكن العراقيون يحلمون بها، لكنني
كنت كلما رأيت أستاذاً جامعياً يقف في طابور المعاملات، أو باحثاً
يهاجر بحثاً عن مختبر يحترم علمه، أو طبيباً يبيع سيارته ليؤمن مستقبل
أطفاله، أتذكر الدكتور عبد الجبار.

كان الفرق الوحيد أن الرصيف تغير.

أما المأساة، فما زالت هي نفسها.

لقد انتهى الحصار الاقتصادي، لكن حصار العقول لم ينته.

في التسعينيات كان الأستاذ يبيع السجائر ليطعم أبناءه.

أما اليوم، فكثير من أصحاب الكفاءة يبيعون سنوات عمرهم في المطارات،
ويغادرون لأن أوطاناً أخرى عرفت قيمة ما تجاهله وطنهم.

في إحدى المناسبات العلمية، بعد أكثر من عشرين عاماً، سألت عنه أحد زملائه.

قال وهو يبتسم بأسى:

"توفي الدكتور قبل سنوات."

ثم أضاف:

"تدري ما الذي كان يؤلمه أكثر من الفقر يا ياسر؟"

قلت:

"ما هو؟"

قال:

"كان يقول دائماً: كنت أتخيل أن طلابي سيدكرونني بسبب كتي... لا

بسبب بسطة السجائر."

خرجت من القاعة وأنا أشعر أن العراق لم يخسر أستاذاً جامعياً واحداً.

لقد خسر جيلاً كاملاً من العلماء الذين اضطروا إلى مقايضة أقلامهم

بأرصفة المدن، وكرامتهم بلقمة العيش.

وعندها أدركت أن الدول لا تُقاس بعدد جامعاتها، ولا بعدد شهاداتها

العليا، بل بالطريقة التي تعامل بها معلمها وباحثها وأستاذها الجامعي.

فحين يُجبر الأستاذ على أن يبيع السجائر على الرصيف ليعيش، لا يكون

الفقر قد أسقط رجلاً واحداً فقط، بل يكون قد أسقط هيبة العلم نفسها.



نثار الرصيف

موعِدُ الأسبوع (41)

منذ أن أُحيل إلى التقاعد، اكتشف عبد الرزاق أن الإنسان قد يموت مرتين؛ مرة حين يتوقف قلبه، ومرة حين يتوقف الآخرون عن مناداته باسمه.

خمسة وثلاثون عاماً قضاها في إحدى دوائر الدولة. لم يكن مديراً عاماً، ولا وزيراً، ولا صاحب نفوذ، لكنه كان يدخل الدائرة كل صباح فيسمع عشرات الأصوات.

"صباح الخير أستاذ عبد الرزاق."

"أستاذ... لو سمحت."

"أستاذ، نحتاج توقيعك."

كان يظن أن كل تلك الأصوات تعرفه.

لكن بعد قرار التقاعد، اكتشف أنها كانت تعرف كرسيه فقط.

في الأسبوع الأول، بقي يستيقظ عند السادسة صباحاً. يرتدي ملابسه

الرسمية، يخلق ذقنه بعناية، ثم يتذكر فجأة أنه لم يعد موظفاً.

فيخلع ربطة العنق.

ويجلس.

ظل الهاتف صامتاً.

في اليوم الثاني اتصل بزميله القديم.

قال له الرجل بسرعة:

. والله مشتاقين... سامحني، عندي اجتماع، أحجي وياك بعدين.

ولم يتصل بعد ذلك أبداً.

بعد شهر، صار عبد الرزاق يعرف صوت عقارب الساعة أكثر مما يعرف

أصوات البشر.

كانت زوجته منشغلة بأعمال البيت.

ابنه يعمل حتى المساء.

ابنته تزوجت منذ سنوات.

أما هو، فقد أصبح قطعة أثاث إضافية في المنزل.

يجلس في الغرفة نفسها.

النافذة نفسها.

الجدران الأربعة نفسها.

حتى الضوء الذي يدخل عصراً بدا كأنه يدخل من باب الشفقة.

قال في نفسه ذات يوم:

"الغرفة ليست صغيرة... أنا الذي كبرت داخلها."

وفي أحد الأيام، خرج بلا هدف.

كان يريد فقط أن يمشي حتى يتعب.

قادته قدماه إلى مقهى شعبي قديم في الكرادة.

جلس في زاوية بعيدة.

طلب استكان شاي.

ثم بدأ يراقب الناس.

هناك تعرّف على ثلاثة رجال، دون أن يسأل أحدهم الآخر عن لقبه أو
عشيرته أو مذهبه.

كأن المقهى يمنح الداخلين إليه هوية جديدة: رجال هاربون من الوقت.
الأول كان متقاعدًا مثله.

اسمه سلمان.

ضابط سابق في الجيش.

كلما ضحك وضع يده على صدره، وكأنه يخفي وساماً لم يعد يراه أحد.

الثاني، كاسب.

يدفع عربته في سوق جميلة.

اسمه كريم.

كان يقول دائماً:

"أنا أشتغل من الفجر إلى الليل... ومع هذا لا أعرف أين يذهب رزقي."

أما الثالث، فكان موظفاً ما يزال في الخدمة.

اسمه حيدر.

كان أصغرهم سناً.

لكنه أكثرهم تعباً.

كل يوم يشكو من المدير.

ومن المعاملات.

ومن الكهرباء.

ومن زحام بغداد.

ومن راتب ينتهي قبل منتصف الشهر.

ومن مستقبل لا يجرؤ على التفكير فيه.

وهكذا، دون اتفاق، أصبح لكل واحد منهم موعد ثابت.

كل يوم خميس.

في الرابعة عصراً.

المقهى نفسه.

الطاولة نفسها.

واستكانات الشاي نفسها.

لم يكونوا يتحدثون عن السياسة كثيراً.

كانوا يتحدثون عن الحياة.

عن الأبناء الذين كبروا بسرعة.

عن الأسعار التي لا تكبر وحدها، بل تلتهم أعمار الناس.

عن بغداد التي أصبحت تحتاج إلى ساعتين لتقطع شارعاً واحداً.

عن المستشفيات.

عن الدواء.

عن الضجيج.

وعن الوحدة.

قال سلمان ذات مرة وهو ينظر إلى الشارع:

"تعرفون..."

الوحدة ليست أن تعيش وحدك...

الوحدة أن يصبح وجودك وعدمك متساويين عند الآخرين."

ساد الصمت.

قال كريم وهو يشعل سيجارة:

"أنا عندي أولاد وأحفاد..."

لكن والله مرات أحچي حتى أسمع صوتي."

ضحكوا جميعاً.

كانت ضحكة قصيرة.

تشبه اعترافاً جماعياً بالهزيمة.

أما عبد الرزاق، فلم يكن يتكلم كثيراً.

كان يصغي أكثر مما يتكلم.

ربما لأنه اكتشف أن الإنسان حين يتقدم في العمر، لا يحتاج إلى من

ينصحه، بل إلى من يسمعه.

في أحد اللقاءات قال لهم:

"أعرفون ما أكثر شيء يؤلني بعد التقاعد؟"

قالوا:

"شنو؟"

قال:

"لم يعد أحد يقول لي: أستاذ."

ثم ابتسم.

وأضاف:

"الاسم أيضاً يتقاعد."

مرت الشهور.

صار الخميس عيدهم الصغير.

حتى إن النادل صار يجهز الشاي قبل وصولهم.

وكان إذا تأخر أحدهم دقائق، سأل عنه.

لأول مرة منذ سنوات، شعر عبد الرزاق أنه لم يعد وحيداً.

كان يظن أنه وجد أصدقاء.

وفي مساء خميس ممطر...

جاء سلمان.

ثم كريم.

ثم حيدر.

لكن الكرسي الرابع بقي فارغاً.

قال سلمان:

"يمكن الزحام."

قال كريم:

"أؤكد بالمستشفى يسوي فحوصات."

قال حيدر وهو يخرج هاتفه:

"اتصل بيه."

رن الهاتف.

مرة.

مرتين.

ثلاثاً.

ثم انقطع.

قالوا:

"يمكن البطارية."

انتظروا ساعة كاملة.

شربوا الشاي.

برد الشاي.

ثم انصرفوا.

وفي الخميس التالي...

عادوا.

والكرسي الرابع ما زال فارغاً.

اتصلوا مرة أخرى.

لكن الهاتف هذه المرة كان مغلقاً.

قال كريم:

"وين بيته؟"

نظر الثلاثة إلى بعضهم.

لم يعرف أحد.

قال سلمان:

"بالكرادة لو بالعامرية؟"

قال حيدر:

"يمكن الدورة."

هز كريم رأسه.

"والله ما أدري."

تبادلوا النظرات.

أربع سنوات من اللقاءات.

مئات أكواب الشاي.

آلاف الكلمات.

لكن أحداً منهم لم يكن يعرف عنوان بيت الآخر.

ولا حتى اسم شارع.

بعد أسبوعين، عرفوا بالصدفة.

قال لهم النادل وهو يمسح الطاولة:

"الله يرحمه."

سألوه معاً:

"منو؟"

قال:

"أبو علي..."

اللي يقعد بكم.

سمعت أمس واحد من جماعته يَكول توفى قبل أسبوعين.

جلطة."

ساد صمت طويل.

نظروا إلى الكرسي الفارغ.

كان كما هو.

لم يتغير شيء.

إلا صاحبه.

خرجوا من المقهى دون أن يتفقوا على موعد جديد.

وفي الطريق، أدرك سلمان حقيقة كانت أقسى من الموت نفسه.

لسنوات، كانوا يظنون أنهم أصدقاء.

لكنهم لم يكونوا يعرفون سوى أسماء بعضهم الأولى، وأوقات حضورهم،

ونوع الشاي الذي يشربونه.

أما بيوتهم...

وأحزانهم...

وأعياد ميلادهم...

وأمرضهم...

فظلت مجهولة.

هكذا هي كثير من علاقات العمل، والجيش، والمقاهي، والشوارع.

نلتقي لنهزم الوقت...

لا لنهزم وحدتنا.

وحين يرحل أحدنا، لا يبقى منه إلا كرسي فارغ، واستكان شاي بارد،
وهاتف صامت لا يجيب.

ربما لهذا السبب لا يخيف الإنسان الموت بقدر ما يخيفه أن يختفي، ثم
يكشف أن العالم احتاج إلى أسبوعين فقط ليلاحظ غيابه.



موعد الأسبوع

خريف الدّم (42)

لم تكن بغداد في ذلك الصباح تختلف كثيراً عن وجه رجلٍ تجاوز الخمسين؛
مدينة متعبة، تتنفس بصعوبة، وتخفي تحت ضجيجها الطويل حزناً لا يراه
أحد.

كان سالم يسير بمحاذاة نهر دجلة متجهاً إلى دائرة البريد في شارع الرشيد..
لم يكن لديه عملٌ حقيقي، لكنه تعود، منذ تقاعده قبل عامين، أن يحتلق
أسباباً للخروج من البيت.. أدرك متأخراً أن الإنسان لا يخشى الشيخوخة
بقدر ما يخشى الفراغ.

توقف عند واجهة مكتبة قديمة، تأمل الكتب المصفوفة خلف الزجاج، ثم
ابتسم بمرارة.

"أصبحت الكتب أرخص من البشر."

لم يكن يقصد أسعارها فحسب.

بل قيمتها.

واصل سيره حتى وصل إلى مقهى الشابندر.

جلس في الزاوية التي تطل على شارع المتنبي، وطلب استكان شاي ثقيل.

كان يحب مراقبة الناس.

وجوه تأتي وأخرى ترحل.

موظفون.

باعة كتب.

طلاب جامعات.

شعراء متقاعدون.

وسياسيون يتحدثون عن الوطن وكأنهم لم يشاركوا في تعبته.

كان يؤمن أن المقاهي تشبه محطات القطارات.

كل إنسان فيها ينتظر شيئاً لن يصل.

قبل سنة ونصف فقط، كان يجلس في المكان نفسه، حين دخل فاضل.

صديق عمره.

رفيق المدرسة المتوسطة.

الرجل الذي حضر زفافه، وحمل نعش أبيه، وتقاسم معه سنوات الحصار،

وأيام الخوف، وحكايات بغداد التي لم تعد تشبه نفسها.

جلس فاضل يومها بصمت.

لم يطلب الشاي.

ولم يشعل سيجارته المعتادة.

ظل ينظر إلى الطاولة كأن الكلمات عالقة في فمه .

قال سالم ضاحكاً:

. خير إن شاء الله... شكلك تريد تتزوج مرة ثانية.

ابتسم فاضل ابتسامة باهتة.

ثم قال بصوت لم يعرفه فيه من قبل:

. سالم...

أريد منك خدمة.

رفع سالم رأسه.

. أمر... قل ماذا تريد ؟

ظل فاضل صامتاً.

وكان الصمت أطول من السؤال.

ثم قال:

. محتاج ألفين وسبعمئة دولار...

أسبوع واحد فقط.

هناك شخص مدين لي، وسيعيدها خلال أيام.

وأول ما أستلمها...

أجيبها إليك.

لم يسأله سالم لماذا.

ولم يطلب ورقة رسمية تؤكد دينه .

ولا شاهداً.

ولا حتى موعداً مكتوباً.

الصدقة، في نظره، كانت أقدم وأهم من الأوراق الرسمية.

عاد إلى بيته.

فتح الخزانة الحديدية.

وأخرج رزمة الدولارات التي ادخرها سنوات طويلة.

كانت حصيلة عمل إضافي، وحرمان، وأحلام مؤجلة.

كان ينوي أن يجري بها عملية جراحية لزوجته.

لكنه قال لنفسه:

"الصديق أولى."

وفي صباح اليوم التالي، وضع الرزمة في يد فاضل.

صافحه.

وقال مبتسماً:

. لا تستعجل.

ردها عندما تستطيع.

كان يظن أنه يمنح المال.

لكنه، دون أن يدري، كان يمنحه شيئاً أكبر.

كان يمنحه ثقته.

انقضى الأسبوع.

ثم أسبوع آخر.

ثم شهر.

اتصل سالم.

رد فاضل بسرعة.

- ساحني... تأخر الشخص اللي عليه الفلوس.

أسبوعين فقط.

وأرتاح أنا وأنت.

قال سالم:

- لا بأس.

أغلق الهاتف.

ولم يشعر بأي ضيق.

فالإنسان، كما كان يعتقد، قد يتعثر، لكنه لا ينسى وعده.

لكن الأسابيع تحولت إلى أشهر.

والأشهر إلى سنة.

والسنة إلى سنة ونصف.

وفي كل اتصال، كانت الكلمات تتبدل...

أما المعنى، فكان واحداً.

"الأسبوع الجاي."

"بداية الشهر."

"أول ما أستلم."

"أول ما أبيع السيارة."

"دعواتك."

حتى أصبح سالم يحفظ الأعداد كما يحفظ الناس أسماء أبنائهم.

شيئاً فشيئاً...

لم يعد ينتظر المال.

صار ينتظر شيئاً آخر.

كان ينتظر أن يعود فاضل كما كان.

لكن الرجل الذي يعرفه منذ أربعين عاماً، بدأ يختفي تدريجياً.

كل وعد جديد، كان يمحو جزءاً من صورته القديمة.

حتى لم يبق منها شيء.

وفي إحدى الليالي، جلس سالم أمام المرأة.

وسأل نفسه:

"هل أنا الذي تغيرت..."

أم الناس؟"

لم يجبه أحد.

لكن المرأة كانت تعرف.

لقد صار يشك في كل من يطلب المساعدة.

صار يقرأ الخديعة في الوجوه.

ويبحث عن المصلحة خلف كل ابتسامة.

وأدرك، للمرة الأولى، أن بعض الناس لا يسرقون المال.

بل يسرقون قدرة الآخرين على الثقة.

وهذه سرقة لا تعاقب عليها القوانين.

لكنها تدمر مجتمعات كاملة.

...

في مساء شتائي ثقيل، كانت بغداد تغسل أرصفتها بمطر خفيف يشبه
الدموع المؤجلة.

وصل سالم إلى مقهى الشابندر قبل الموعد بنصف ساعة.. لم يكن
مستعجلاً، لكنه اعتاد في الأشهر الأخيرة أن يصل مبكراً.. كان يريد أن
يرى فاضل وهو يدخل، وأن يقرأ وجهه قبل أن يبدأ بالكلام.. كان يؤمن
أن الوجوه تفضح أصحابها قبل الألسنة.

جلس في الزاوية المعتادة.

أشعل سيجارة.

ثم أطفأها بعد نفسين فقط.

طلب استكان شاي.

ثم تركه يبرد.

كانت عيناه معلقتين بباب المقهى.

دخل فاضل.

كان يمشي مطمئناً، يحيي هذا، ويصافح ذاك، ويتسّم للنادل، وكأن العالم

لا يدين له بشيء، أو كأنه لا يدين لأحد بشيء.

اقترب.

ابتسم.

صافح سالم بحرارة.

وقال:

- والله اشتقنا لك.

ابتسم سالم ابتسامة باهتة.

وسأله بهدوء:

- اشتقت إليّ... أم اشتقت إلى أن أؤجل الحديث مرة أخرى؟

ساد صمت قصير.

أشار فاضل للنادل.

- جيب استكانين.

قال سالم:

- لا... دع الشاي قليلاً.

أريد أن نتحدث.

نظر فاضل إلى الشارع.

كان يعرف أن ساعة الحساب وصلت.

قال وهو يعبث بمسبحته:

. أعرف...

تقصد الفلوس.

قال سالم:

. لا...

لو كانت القضية قضية فلوس، لانتهد منذ زمن.

أنا أتحدث عن شيء آخر.

رفع فاضل رأسه باستغراب.

قال سالم بصوت منخفض:

. هل تعلم ماذا فعلت بي؟

ابتسم فاضل ابتسامة مرتبكة.

. أخي... قلت لك الظروف...

قاطعہ سالم:

. لا تکررها.

لقد حفظت الظروف عن ظهر قلب.

مرةً كانت سيارتك.

ومرةً بيتك.

ومرةً ابنك.

ومرةً شريكك.

ومرةً البنك.

ومرةً الحوالة.

ومرةً الدولار.

حتى صرت أستطيع أن أكمل عذرك قبل أن تقوله.

ساد الصمت.

ثم قال سالم:

- هل تعلم ما الذي تغير؟

أنا.

أنا الذي تغير.

أصبحت أخاف من كل إنسان يقول لي: "أريد أن أتحدث معك خمس دقائق."

أصبحت أظن أن كل محتاج يريد أن يخدعني.

كل فقير أشك فيه.

كل صديق أخاف منه.

كل هاتف يرن يجعلني أتوقع طلباً جديداً.

أنت لم تستدن ألفين وسبعمئة دولار فقط...

لقد استدنت سلامي الداخلي.

وأضعته.

ظل فاضل صامتاً.

كان ينظر إلى فنجان الشاي.

كأن السكر المذاب في قعره صار أكثر أهمية من الكلمات.

ثم قال بصوت خافت:

. والله... ما كنت أقصد.

ابتسم سالم.

كانت ابتسامة رجل تعب من سماع الجملة نفسها.

. وهل يسرق الناس دائماً بقصد؟

أحياناً لا يسرق الإنسان المال...

بل يسرق عمر غيره دون أن يشعر.

بعد دقائق من الصمت، قال فاضل:

. والله أرجعها.

حتى لو بعت بيتي.

رفع سالم يده.

. لا... لا تعديني.

لقد تعبت من الوعود.

هل تعلم؟

قبل سنة ونصف كنت إذا طرق بابي فقير، أفتح له الباب قبل أن يسأل.

اليوم...

أنتظر حتى ينصرف.

أنا لم أخسر مالاً.

أنا خسرت نفسي.

كانت أصوات لاعبي الدومينو ترتفع في آخر المقهى.

أحدهم صرخ:

"دبل!"

فضحك الجميع.

أما على الطاولة الصغيرة قرب النافذة، فقد كان الصمت أثقل من بغداد

كلها.

قال سالم بعد لحظة طويلة:

. أتذكر يوم حملنا نعش أبي؟

هز فاضل رأسه.

. نعم.

قال سالم:

. يومها قلت في نفسي:

هذا الرجل لو احتاج دمي لأعطيته إياه.

واليوم...

أصبحت أتمنى لو أنك كنت غريباً.

لأن الغريب حين يخدعني، أخسر مالا.

أما حين يخدعني صديق أربعين سنة...

فإني أخسر تاريخاً كاملاً.

في تلك اللحظة شعر فاضل أن الكلمات التي كان يؤجلها منذ سنة

ونصف لم تعد تنفع.

حتى لو أخرج المال الآن...

فإن شيئاً لن يعود.

هناك أشياء لا تصلحها النقود.

فالزجاج إذا انكسر يمكن تبديله.

أما الثقة...

فهي تشبه العمر.

إذا مضى...

لا يعود.

نهض سالم.

أخرج ثمن الشاي.

ووضعه فوق الطاولة.

نظر إلى فاضل للمرة الأخيرة.

وقال:

. لا أريد أن أسامحك...

ولا أريد أن أكرهك.

أريد فقط أن أنسى أنني كنت أعدك أعز أصدقائي.

ثم استدار ببطء.

خرج من المقهى.

كان المطر قد توقف.

لكن بغداد بدت أكثر برودة من قبل.

وفي الطريق، مرّ به رجل مسن يبيع المحارم الورقية.

قال له:

. أستاذ... ساعدني الله.

توقف سالم.

مدّ يده إلى جيبه.

ثم سحبها.

اعتذر للرجل ومضى.

بعد خطوات، التفت إلى الخلف.

كان الشيخ ما يزال واقفاً ينادي المارة.

همس سالم لنفسه:

"سامحي يا عم...

كان في داخلي رجل يحب مساعدة الناس...

لكن أحدهم استدانه مني...

ولم يعده حتى اليوم."

ومضى.

كانت تلك أول مرة يشعر فيها أن الدين الحقيقي لم يكن ألفين وسبعمئة دولار.

بل إنساناً كاملاً... ضاع بين وعدٍ كاذب، وأسبوعٍ لم ينتهِ أبداً.

..

لم يعد سالم يتصل كثيراً.

كان يعرف مسبقاً كيف سيبدأ الحوار، وكيف سينتهي.

يرن الهاتف.

يرد فاضل بلهجة ودودة كأن شيئاً لم يحدث.

. هلا بالغالي...

أبو علي... وينك محتفي؟

ثم يسأل عن الصحة، والأولاد، وضغط الدم، وازدحام بغداد، وانقطاع الكهرباء، وارتفاع الدولار، قبل أن يصل الحديث إلى النقطة التي يعرفها الاثنان.

وحين يذكر سالم المال، يسود صمت قصير، يعقبه العذر الجديد. حتى حُيِّل لسالم أن الأعذار في العراق لا تنتهي، لأنها تُصنع أسرع من الحقائق.

مرت سنة ونصف.

ولم يعد الرقم (2700) يعني مبلغاً من المال.

صار تاريخاً.

صار جرحاً.

صار موعداً مؤجلاً يعيش معه كل صباح.

كان يدخل إلى تطبيق الهاتف، فيقرأ اسم فاضل بين الأسماء.

يتردد كثيراً قبل أن يضغط زر الاتصال.

ثم يغلق الهاتف.

ويقول لنفسه:

"ما الفائدة؟"

ليس لأنه يئس من استرداد المال.

بل لأنه تعب من سماع الكذب بصيغ مختلفة.

في إحدى الأمسيات، دعت زوجته إلى العشاء.

قالت وهي تراقب شروده:

- منذ أشهر وأنت لست أنت.

رفع رأسه ببطء.

. ماذا تقصدين؟

قالت:

. أصبحت عصبياً.

تشكو من الناس.

لا تثق بأحد.

كلما طرق الباب أحد، تنزعج.

حتى أولادك صاروا يخافون من عصبيتك.

ظل صامتاً.

ثم قال:

. تعرفين ما المشكلة؟

قالت:

. ما هي؟

قال وهو يحدق في الفراغ:

. كنت أظن أن الإنسان يُولد طيباً، وأن التجارب تترك عليه بعض
الخدوش.

لكنني اكتشفت أن بعض التجارب لا تترك خدوشاً...
بل تغَيّر وجه الإنسان كله.

وفي تلك الليلة، لم يستطع النوم.

فتح درج مكتبه.

أخرج دفترًا قديماً كان يدون فيه خواطره.

وقلب صفحاته.

وجد عبارة كتبها قبل سنوات:

"أجمل ما في الإنسان أنه يثق."

ابتسم بمرارة.

ثم شطبها بقلمه.

وكتب تحتها:

"وأقصى ما في الإنسان أنه يتعلم كيف لا يثق."

ظل ينظر إلى الجملة طويلاً.

شعر لأول مرة أنه لم يعد يعرف الكاتب الذي كتب العبارة الأولى.

بعد أيام، جاءه ابن أخيه.

شاب في بداية الثلاثينيات.

جلس مرتبكاً.

ثم قال:

. عمي...

أحتاج مبلغاً بسيطاً.

أعيده لك آخر الشهر.

نظر سالم إلى وجهه.

كان الشاب صادقاً.

وكان صوته يرتجف.

لكن صورة أخرى ظهرت أمام عينيه.

وجه فاضل.

الوعد الأول.

الأسبوع الأول.

والسنة والنصف.

أغلق سالم محفظته بهدوء.

وقال:

. والله يا ولدي... ظروفى لا تسمح.

خرج الشاب منكسر الخاطر.

وظل سالم واقفاً عند الباب.

كان يشعر أن شيئاً انكسر داخله.

ليس ابن أخيه...

بل هو.

همس بصوت بالكاد يسمعه:

"لقد نجح فاضل..."

حوّلني إلى شخص لا أعرفه."

في اليوم التالي، كان يتمشى في شارع المتنبي.

رأى طفلاً يبيع قناني الماء.

لم يكن يتجاوز العاشرة.

قال الطفل:

. عمو... اشترِ واحدة.

توقف سالم.

فتح محفظته.

ثم أغلقها.

ومضى.

بعد خطوات قليلة شعر بوخزة في صدره.

استدار بسرعة.

عاد إلى الطفل.

لكنه لم يجده.

ابتلعته الجموع.

وقف وسط الزحام كمن أضاع شيئاً لا يمكن تعويضه.

لم يكن يبحث عن الطفل.

كان يبحث عن الرجل الذي كانه قبل سنة ونصف.

الرجل الذي كان يثق بالبشر.

ويصدق القسم.

ويظن أن الكلمة دين.

وفي مساء الجمعة، اتصل به فاضل بنفسه.

لأول مرة منذ أشهر.

قال بصوت مفعم بالحماس:

- بشرى...

قريباً جداً أنهى كل شيء.

ضحك سالم.

ضحكة هادئة.

لكنها كانت تشبه بكاءً مؤجلاً.

قال:

. لا تقل لي "قريباً".

هذه الكلمة أصبحت أكبر كذبة في حياتي.

ساد صمت طويل.

ثم قال سالم:

. هل تعلم ما الذي يؤلمني؟

ليس أن عندك ديناً.

كل الناس قد تستدين.

لكن المؤلم...

أنك تركتني طوال سنة ونصف أعيش مع سؤال واحد:

هل كنت مخطئاً حين وثقت بك؟

ولو أجبتني عنه...

فلن أحتاج إلى المال.

أغلق الهاتف.

وأدرك أن بعض الأسئلة لا يجيب عنها المديون.

بل يجيب عنها الزمن.

ومنذ تلك الليلة، صار سالم يوقن أن الديون نوعان:

دينٌ يُكتب في دفاتر الحساب.

ودينٌ يُكتب في الذاكرة.

الأول قد يُسدّد يوماً.

أما الثاني...

فنادرًا ما يُمحي.

وكان فاضل، دون أن يدري، قد ترك في ذاكرة صديقه ديناً لن يستطيع

سداده مهما أعاد من المال، لأن ما ضاع لم يكن ألفين وسبعمئة دولار...

بل أربعين عاماً من الثقة، اختُزلت في وعد واحد لم يف به.

..

لم يعد سالم يسأل عن المال.

كان هذا أكثر ما أربك فاضل.

اعتاد طوال سنة ونصف أن يسمع السؤال نفسه، وأن يجهز الجواب

نفسه.. أما الآن، فقد صار سالم يتحدث معه في كل شيء إلا الدين.

يسأله عن صحته.

عن أولاده.

عن ضغط الدم.

عن الحر.

عن ازدحام بغداد.

ثم ينهي المكالمة بهدوء.

من دون أن يذكر الرقم الذي كان يطاردهما معاً: (2700).

في البداية، شعر فاضل بالارتياح.

ثم بدأ الارتياح يتحول إلى قلق.

قال لزوجته ذات مساء:

- سالم تغيّر.

قالت:

- يمكن اقتنع أنك ما راح ترجعها.

هز رأسه.

- لا...-

لو كان يريد المال فقط، لظل يطالبني.

أنا أخاف من صمته أكثر من كلامه.

وفي مساء أحد الأيام، التقى الصديقان مصادفة في شارع المتنبي.

كان الزحام شديداً.

والباعة يملؤون الأرصفة.

والكتب القديمة تمتد كأنها ذاكرة العراق المفروشة على الأرض.

اقترب فاضل.

ابتسم.

مد يده.

صافحه سالم بحرارة لم يتوقعها.

قال فاضل:

. تعال نشرب استكان شاي.

أجاب سالم:

. بكل سرور.

جلسا في المقهى نفسه.

المقاعد نفسها.

النادل نفسه.

حتى المروحة القديمة كانت تدور بالكسل نفسه.

لكن الرجلين لم يعودا الرجلين نفسيهما.

بعد دقائق من الصمت، قال فاضل:

. سالم...

أنت زعلان؟

نظر إليه سالم طويلاً.

ثم ابتسم.

ابتسامة هادئة، لكنها كانت أشبه بتنهيذة طويلة.

. لا.

. إذن لماذا أشعر أن بيننا جداراً؟

قال سالم:

. لأن الجدار موجود.

لم يفهم فاضل.

قال:

. أي جدار؟

أخذ سالم استكان الشاي بين يديه.

راح يتأمل البخار المتصاعد.

ثم قال بهدوء:

. أتدري ما الفرق بين الزجاج والثقة؟

الزجاج إذا انكسر، تستطيع أن تبدله.

أما الثقة...

فلا يوجد محل يبيعها.

ولا ورشة تصلحها.

ظل فاضل ساكتاً.

وأكمل سالم:

. أنت تظن أن المشكلة ألفان وسبعمئة دولار.

وأنا أيضاً كنت أظن ذلك.

لكنني اكتشفت أن المبلغ كان صغيراً جداً...

أما الخسارة...

فكانت أكبر من أن تُحسب بالأرقام.

أطرق فاضل رأسه.

قال بصوت خافت:

. والله ما كنت أقصد أجرحك.

ابتسم سالم.

. أنا أصدقك.

هناك أشياء لا يفعلها الناس بقصد.

لكن نتائجها تبقى.

هل تعلم ماذا فعلت بي؟

لقد جعلتني أشك في كل إنسان.

حين يطرق أحد بابي...

أفكر أنه جاء ليستدين.

حين يتصل بي قريب...

أتوقع أنه سيطلب مالاً.

حين يقول لي أحدهم:

"أريد خمس دقائق من وقتك..."

أشعر أن جيبي هو المقصود، لا أنا.

ساد الصمت.

كان صوت فناجين الشاي في المقهى أعلى من حديثهما.

قال سالم بعد لحظة:

. قبل أشهر جاءني طالب جامعي.

احتاج إلى مبلغ بسيط ليسدد رسومه.

كنت قادراً على مساعدته.

لكنني رفضت.

ليس لأنني بخيل.

بل لأنني كنت أراك واقفاً خلفه.

وجاءتني امرأة تطلب ثمن دواء.

وأغلقت الباب.

ليس لأنها كاذبة...

بل لأنني كنت أسمع صوتك.

هل تعرف ماذا يعني هذا؟

أنت لم تأخذ مالي.

أنت أخذت الرجل الذي كنت أكونه.

بدأت عينا فاضل تمتلئان بالدموع.

قال:

- سامحي.

أجاب سالم بهدوء:

- ليست المسألة مسألة مسامحة.

هناك أشياء لا يعالجها الاعتذار.

لو كسرت ساعتى...

واشتريت لى مثلها...

سأنساها.

ولو خدشت سيارتى...

وأصلحتها...

سينتهي الأمر.

أما الإنسان...

فليس قطعة غيار.

ثم سكت قليلاً.

وأضاف:

. أكثر ما يؤلمني ليس أنك أخلفت وعدك.

بل أنني، كلما تذكرت السنوات الأربعين التي عرفتكَ فيها، لم أعد أعرف

أيها كان الحقيقي.

هل الرجل الذي حمل نعش أبي معي؟

أم الرجل الذي جعلني ألاحقه سنة ونصف من أجل كلمة أعطاهها بلسانه؟

أيهما أنت؟

صمت فاضل.

ولم يجد جواباً.

لأن بعض الأسئلة لا يجيب عنها الكلام.

بل العمر كله.

نهض سالم.

أخرج ثمن الشاي.

ووضعه على الطاولة.

وقبل أن يغادر، التفت إلى فاضل وقال:

. سأقول لك شيئاً واحداً.

إذا أعدت لي المال غداً...

فسأشكرك.

أما إذا سألتني:

هل ستعود كما كنت؟

فالجواب...

لا.

لأن الإنسان حين يتعلم الخوف من أقرب الناس إليه...

يقضي بقية عمره يحرس قلبه أكثر مما يعيش به.

خرج سالم من المقهى.

وكانت بغداد تغرق في غروب نحاسي.

أما فاضل، فبقي جالساً وحده.

أمامه استكان شاي بارد.

وفي داخله شعور ثقيل لم يعرف اسمه من قبل.

لأول مرة أدرك أن بعض الديون لا تثقل جيب الإنسان...

بل تثقل روحه.

وأن المال يمكن تعويضه مهما كثر...

أما الثقة، فإذا ماتت، فإنها لا تُدفن مع أصحابها، بل تبقى شبحاً يسكن

ذاكرة من حُذِل بها، ويطارده كلما همّ أن يثق بإنسان جديد.

..

مرّت أسابيع أخرى.

لم يتصل أحدهما بالآخر.

لم تكن بينهما خصومة معلنة، ولا قطيعة رسمية.

كان كل شيء يبدو طبيعياً من الخارج.

لكن الحقيقة أن الصداقة كانت قد دخلت مرحلة الاحتضار الهادئ؛ ذلك

النوع من الموت الذي لا يلاحظه أحد، لأنه يحدث بلا صراخ.

في مساء أحد الأيام، جلس فاضل وحده في شرفة بيته.

كانت زوجته ترتب أواني المطبخ، بينما كان هو يقلب بين أصابعه مسبحة
قديمة ورثها عن أبيه.

لم يكن يفكر في المال.

كان يفكر في سالم.

قالت له زوجته وهي تراقب شروده:

. إلى متى ستبقى تؤجل هذا الموضوع؟

أجاب بصوت خافت:

. أي موضوع؟

قالت:

. تعرف أي موضوع أقصد.

دين سالم.

تنهد طويلاً.

ثم قال:

. لو كانت المشكلة بالمال، حلّلت منذ زمن.

قالت باستغراب:

. إذن ما المشكلة؟

أطرق برأسه.

وأجاب:

. أخجل.

أخجل أن أفق أمامه.

كل يوم أوّجل فيه السداد، أشعر أن المسافة بيننا تكبر.

حتى أصبحت لا أعرف من أين أبدأ الاعتذار.

في تلك الليلة لم ينم.

فتح خزانته الحديدية.

بدأ يجمع ما يملكه.

مدخرات قديمة.

مبلغ احتفظ به لزواج ابنته.

سلفة كان قد أخذها من أخيه.

باع ساعة ثمينة كان قد اشتراها يوم ترقيته.

وفي اليوم التالي، باع قطعة ذهب صغيرة ورثها عن أمه، بأقل من قيمتها،

فقط لينتهي هذا الكابوس.

ظل يعد الدولارات مرات عديدة.

ألفان وسبعمئة دولار.

كانت الرزمة أمامه.

لكنه لم يشعر بالراحة.

قال في نفسه:

"غريب..."

حين استلفتها، كانت تبدو خفيفة.

واليوم أشعر أنها أثقل من جبل.

في صباح الجمعة، اتجه إلى بيت سالم.

كان يعرف العنوان عن ظهر قلب.

كم مرة جاء إليه في الأعياد؟

كم مرة ضحكا في هذا البيت؟

كم مرة جلسا حتى منتصف الليل يتحدثان عن بغداد، وعن الطفولة، وعن

الأحلام؟

وقف أمام الباب.

رفع يده ليطرق.

ثم تراجع.

أعادها مرة ثانية.

ثم تراجع مرة أخرى.

قال لنفسه: "هل يكفي أن أعيد المال؟"

أجاب صوت داخله: "لا."

ظل واقفاً دقائق طويلة.

حتى خرج جار سالم مصادفة.

ابتسم له وقال:

- تفضل... سالم موجود.

دخل بخطوات ثقيلة.

فتح سالم الباب.

نظر إليه بهدوء.

لم تظهر على وجهه الدهشة.

كأنه كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي يوماً.

قال فاضل بصوت مكسور:

. أريد أن أتحدث معك.

ابتسم سالم ابتسامة صغيرة.

. تفضل.

جلسا في غرفة الضيوف.

الغرفة نفسها التي جلسا فيها قبل سنة ونصف.

لكن كل شيء بدا مختلفاً.

حتى صمت الجدران.

أخرج فاضل الرزمة من حقييته.

ووضعها فوق الطاولة.

وقال:

. هذه فلوسك.

ألفان وسبعمئة دولار.

كاملة.

لم يمد سالم يده.

ظل ينظر إلى الرزمة بصمت.

قال فاضل:

. عدّها.

هنز سالم رأسه.

. لا حاجة.

قال فاضل:

. لماذا؟

أجاب سالم:

. لأنني كنت أثق بك عندما أعطيتك المال.

واليوم لا أريد أن أتعلم كيف أعدّه وأنا أسترده.

ساد الصمت.

كان صمتاً أثقل من كل الكلمات التي تأخرت سنة ونصف.

قال فاضل وهو يكاد يبكي:

. سامحني.

رفع سالم نظره إليه.

وفي عينيه شيء يشبه التعب أكثر من الغضب.

قال:

. أتدري...

طوال هذه المدة كنت أظن أنني أنتظر هذه اللحظة.

لكنني اكتشفت الآن أنني لا أشعر بأي فرح.

لا انتصار.

ولا راحة.

ولا حتى رغبة في عدّ المال.

ثم أشار إلى الرزمة.

وأضاف:

. هذه لم تعد ألفين وسبعمئة دولار.

هذه سنة ونصف من الانتظار.

مئات المكالمات.

وعشرات الأعذار.

وليلٍ طويلةٍ كنت أستيظ فيها وأنا أفكر: كيف يمكن للإنسان أحبته

أربعين سنة أن يجعلني أطارده من أجل حقي؟

لو جئت بها بعد أسبوع كما وعدت...

لكانت مالا.

أما الآن...

فقد أصبحت ذاكرة.

والذاكرة لا تُصرف في الأسواق.

ولا تُودع في المصارف.

ولا تعود كما كانت.

ظل فاضل مطأطئ الرأس.

وقال بصوت خافت:

. هل انتهى كل شيء بيننا؟

ابتسم سالم ابتسامة حزينة.

وقال:

. لا ...

الذي انتهى ليس بيننا.

الذي انتهى ... داخلي.

كنت أؤمن أن الصداقة تستطيع أن تنتصر على المال.

أما اليوم...

فقد اكتشفت أن المال لا يهزم الصداقة وحدها.

بل يكشف مقدار ما كانت الصداقة تحتمله من صدق.

حمل سالم الرزمة بهدوء.

فتح درج المكتب.

ووضعها داخله.

ثم أغلق الدرج.

دون أن يعد ورقة واحدة.

نظر إليه فاضل مستغرباً.

قال سالم:

. تعرف لماذا لم أعدها؟

لأنني لم أكن أبحث عن المال.

كنت أبحث عن الرجل الذي جاءني قبل سنة ونصف وقال:

"أسبوع واحد."

وكنت أتمنى أن يعود هو...

قبل أن تعود هذه الأوراق.

لكن يبدو أن بعض الناس يرجعون المال...

بعد أن يكونوا قد خسروا أنفسهم.

..

لم يخرج فاضل من بيت سالم مسرعاً.

خرج ببطء، كمن يحمل على كتفيه أربعين عاماً من الذكريات.

كان الشارع هادئاً.

الأطفال يلعبون كرة القدم في الزقاق الضيق، وبائع الشاي يدفع عربته مردداً

بصوته الرتيب: "جاي حار مهيل ... جاي حار مهيل ..."

كل شيء كان كما هو.

إلا هو.

وللمرة الأولى أدرك أن الإنسان قد يربح المال ويخسر نفسه، وقد يسدد ديناً

ويبقى مديناً إلى آخر عمره.

أما سالم، فقد بقي جالساً وحده.

نظر إلى الدرج الذي وضع فيه رزمة الدولارات.

لم يفتحه.

ولم يعدها.

ولم يشعر بحاجة إلى ذلك.

نفض ببطء.

توجه إلى النافذة.

نظر إلى دجلة البعيد الذي كان ينساب بصمت، كأنه لا يكثر لحكايات

البشر.

تمتم:

"غريب أمر هذا النهر..."

كل يوم يحمل ماءً جديداً...

أما نحن، فنحمل الأحزان نفسها."

جلس إلى مكتبه.

فتح دفترًا قديمًا كان قد دوّن فيه خواطره منذ شبابه.

قلب صفحاته حتى وجد عبارة كتبها قبل عشرين عاماً:

***"الصديق هو الإنسان الذي تستطيع أن تضع مالك عنده كما تضع

قلبك."***

ظل يحدق فيها طويلاً.

ثم تناول قلمه.

ولم يشطبها.

بل أضاف تحتها:

"لكن بعض القلوب لا تضيع حين تُسرق... بل حين تُختبر."

أغلق الدفتر.

وأغمض عينيه.

مرّت أشهر.

لم يعد فاضل إلى المقهى.

ولم يذهب سالم أيضاً.

كأن المكان فقد معناه بعد أن انكسرت الحكاية التي جمعتهم.

وذات صباح، بينما كان سالم يتجول في شارع المتنبي، رأى شاباً في أواخر

العشرينيات يقف مرتبكاً أمام مكتبة قديمة.

اقترب منه.

قال الشاب بخجل:

- عمي... أعتذر عن الإزعاج.

أنا طالب ماجستير.

ضاع مني حاسوب العمل، وأحتاج مبلغاً بسيطاً حتى أشتري حاسوباً
مستعملاً.

أعيده لك أول ما تصلني المنحة.

نظر سالم إلى عينيه.

كانت العينان صادقتين.

أو هكذا بدا له.

شعر أن قلبه انقبض.

عاد إليه ذلك الصوت القديم:

"أسبوع واحد فقط..."

أغلق محفظته.

ثم أعاد فتحها.

ظل واقفاً دقيقة كاملة.

كانت أطول دقيقة في حياته.

وأخيراً، أخرج ورقة نقدية ووضعها في يد الشاب.

لكنها لم تكن قرصاً.

قال له بابتسامة هادئة:

. هذه ليست ديناً.

ولا أريدها أن تعود.

إذا استطعت يوماً أن تساعد إنساناً محتاجاً مثلك...

فساعده.

واعتبر أنني استرددت مالي.

نظر الشاب إليه بدهشة.

ثم قبّل يده ومضى.

بقي سالم واقفاً يراقبه حتى اختفى بين زحام الكتب.

ابتسم لأول مرة منذ زمن.

وأدرك أن فاضلاً لم ينجح في سرقة كل شيء.

لقد سرق ثقته بالناس...

لكن ليس إلى الأبد.

وفي مساء اليوم نفسه، عاد إلى بيته.

فتح الدرج.

أخرج رزمة الدولارات.

نظر إليها طويلاً.

ثم أغلقها من جديد.

قال لنفسه:

"كم هو غريب... طوال سنة ونصف كنت أظن أن هذه الأوراق هي التي
ستعيد لي راحتي.

لكنها بقيت أوراقاً... أما الذي كنت أبحث عنه... فلم يكن بينها."

ثم حمل الرزمة.

ووضعها في خزانة قديمة إلى جانب ألبوم صور أبيض وأسود.

صور المدرسة.

وصور الجيش.

وصور زفافه.

وصورة تجمعهم بفاضل وهما شابان يضحكان على ضفة دجلة.

نظر إلى الصورة طويلاً.

ولم يشعر بالغضب.

ولا بالكراهية.

بل بشيء يشبه الحنين إلى رجل لم يعد موجوداً.

بعد سنوات، سأله حفيده الصغير وهو يعث بألبوم الصور:

- جدي...

من هذا الرجل الذي يقف بجانبك؟

تأمل سالم الصورة.

ابتسم ابتسامة شاحبة.

وقال:

- كان صديقي.

سكت قليلاً.

ثم صحح عبارته بصوت خافت:

.. لا...

كان زمناً من حياتي.

أغلق الألبوم برفق.

وأعادَه إلى مكانه.

وفي تلك اللحظة أدرك أن بعض البشر لا يخرجون من حياتنا لأنهم غادروها، بل لأنهم غيّروا المعنى الذي كنا نعطيه لكلمات مثل: الصداقة، والثقة، والوفاء.

وفي آخر صفحة من دفتر خواطره، كتب سالم قبل أن يطفئ مصباح غرفته:

***"تعلمت متأخراً أن المال لا يختبر جيوب الناس، بل ضمائرهم... وأن الديون ليست كلها مالية؛ فهناك من يقترض مبلغاً صغيراً، لكنه يعيده بعد سنوات، وهناك من يقترض ثقة إنسان، ثم يعجز عن ردها ما بقي من عمره... فالمال يمكن أن يعود، أما الأيام التي قضيتها تنتظر، والقلق الذي

سكن قلبك، والإنسان الذي فقد براءته وهو يتعلم الشك... فهذه ديون

لا يعرف المحاسبون كيف يقيدونها، ولا تستطيع المصارف أن تسددها.***

وأطفأ المصباح...وبقيت بغداد، في الخارج، تمضي كعادتها؛ مدينةً مليئةً

بالناس، وفقيرةً بالثقة.

مرَّ شريطُ الذكريات أمام عينيه في لمح البصر، كأنه ومضة خاطفة مزّقت

سكون اللحظة. ضاق ذرعًا بالمقهى، وبالوجوه الجالسة فيه، وبالضجيج

الذي صار يثقل روحه... نهض مسرعًا، وغادر المكان متجهًا إلى صومعته؛

إلى ذلك الركن الوحيد الذي ما زال يتيح له أن يختلي بنفسه وبأوجاعه.



خريف الذمم

رجالٌ عبروا الأرض الحرام مرتين (43)

الفصل الأول

المدينة التي كانت تحفظ أسماء أبنائها

لم تكن **طوزخورماتو** مدينةً كبيرة، لكنها كانت تتسع لقلوب أهلها جميعاً... كانت تمتد على سفوح الأرض مثل سجادة نسجتها قرونٌ من التعايش، تظللها مآذن الجوامع، وتجاورها حسينياتٌ تحفظ أسماء الشهداء كما تحفظ الأمهات أسماء أبنائهن... هناك، كان التركمان الشيعة يعيشون بين بساتين الرمان والعنب وحقول الحنطة، يعرف بعضهم بعضاً بالاسم، حتى إن الغريب إذا دخل المدينة شعر أن الناس جميعاً أقرباء، وإن اختلفت البيوت والأنساب.

في الأزقة العريضة، كانت رائحة خبز التنور تختلط بدخان مواقد الحطب، بينما كانت النساء يرششن الماء أمام الأبواب مع أول النهار، وكأنهن يطفئن غبار الزمن قبل أن يشتد القيظ... وكان الرجال يجلسون في المقاهي الصغيرة يحتسون الشاي الثقيل، يتبادلون أخبار الزراعة والأسواق، ثم لا يلبث الحديث أن ينتهي عند الحرب، لأن العراق في تلك السنوات لم يكن يعرف حديثاً أطول منها.

كانت الحرب قد تسللت إلى المدينة قبل أن يصلها صوت المدافع.. دخلت مع رسائل الاستدعاء العسكرية، ومع صور الجنود المعلقة في الدوائر الرسمية، ومع السيارات العسكرية التي كانت تقف بين الحين والآخر أمام أحد البيوت، فيصمت الحي كله قبل أن ينزل منها ضابط يحمل ظرفاً أصفر، أو جندياً يقود شاباً في إجازة قصيرة، أو نعشاً يلفه العلم.

أصبحت الأمهات يميزن بين أصوات السيارات كما يميزن بين أصوات أبنائهن.. فهناك سيارة تحمل الحياة، وأخرى تحمل الموت، وثالثة تترك الناس معلقين بين الرجاء والخوف.

في أحد أحياء المدينة القديمة، كانت تقف دار آل **البياتلي**، بيتاً واسعاً مبنياً من الطابوق الجمهوري، تتوسطه شجرة توت هرمت مع أصحابها... كانت تلك الشجرة شاهدة على ولادة الأبناء، وعلى أفراحهم، وعلى كل دمعة ذرفت منها أمهم وهي تودع واحداً منهم إلى الخدمة العسكرية.

كان الأب، **الحاج حسن البياتلي**، فلاحاً يعرف الأرض كما يعرف خطوط كفيه... لم يكن كثير الكلام، لكنه كان يؤمن أن الإنسان إذا خان

أرضه فلن يجد أرضاً تستره يوماً... أما زوجته **الحاجة زهراء**، فقد كانت ترى أبناءها الخمسة امتداداً لقلبها، وكانت كلما خرج أحدهم من الباب، تبقى واقفة حتى يختفي عن ناظرها، ثم تتمتم بالدعاء وكأن الدعاء حبلٌ تمسك به أبناءها من بعيد.

كان أكبر الأبناء **شافي**، ضابطاً في الجيش، ورث عن أبيه الصلابة، وعن أمه رقة القلب التي كان يخفيها خلف ملامحه الجادة... ؛ أما أخوه **لافي**، فكان أصغر منه بقليل، جندياً لم يتجاوز الخامسة والعشرين، يضحك كثيراً، ويؤمن أن الإنسان يستطيع أن ينتصر على الخوف إذا ابتسم في وجهه.

وكانت أمه تقول دائماً وهي تنظر إليهما: "الله خلقكم توأمين بالروح، حتى لو اختلفت أعماركم."

وكان الجميع يبتسم، لأنهم كانوا يعرفون أن أحدهما لا يستطيع أن ينام إذا كان الآخر بعيداً عنه.

في ليالي الشتاء، كان البيت يمتلئ بالأقارب... يجلس الرجال في الديوان،
بينما تتعالى أصوات النساء من الداخل، ويجري الأطفال بين الغرف غير
مدركين أن الحرب تقف خارج الباب تنتظر أن يكبروا.

كان **لافي** يحب أن يجلس قرب جده، يستمع إلى حكايات كربلاء،
وإلى قصص الرجال الذين ماتوا وهم يدافعون عن معتقدتهم وأرضهم. وكان
الشيخ العجوز يقول له دائماً: "يا ولدي... البطولة مو أن تقتل أكثر...
البطولة أن تبقى إنساناً وأنت تحمل السلاح."

كانت تلك الكلمات تستقر في قلبه أكثر من أي درس عسكري.
لم يكن يعلم أن الأيام ستضعه أمام امتحان لا يقاس بالشجاعة وحدها،
بل بقدرته على الاحتفاظ بإنسانيته وسط جحيم صُنع ليُجرد الإنسان من
كل شيء.

ومع بداية عام 1987، كانت الأخبار القادمة من الجنوب تزداد سواداً...

معارك ضارية تدور شرق البصرة، وخسائر كبيرة، وأسماء وحدات عسكرية

تُحى من الخرائط قبل أن تعود إلى ثكناتها.

في إحدى الليالي، جلس شافي يقرأ أمر انتقال وحدته، ثم طوى الورقة

بصمت.

نظر إليه لافي مبتسماً وقال:

- يبدو أننا سنتسابق مرة أخرى إلى الجنوب.

ابتسم شافي ابتسامة قصيرة، ثم أجابه:

- لا أتمنى أن نسبق أحداً... أتمنى فقط أن نعود معاً.

ساد الصمت.

كانا يدركان أن الحرب لا تعطي أحداً وعداً بالعودة.

وفي الخارج، كانت الريح تعصف بأغصان شجرة التوت القديمة، فتتناثر أوراقها فوق فناء الدار، كأنها تكتب منذ تلك الليلة أسماء الرجال الذين ستحتفظ بهم الأرض، وأسماء الذين ستعيدهم إليها شهداء بعد سنوات طويلة.

الفصل الثاني

****أبناء الطين الواحد****

حين اندلعت الحرب، لم تفرّق بين قرية ومدينة، ولا بين عربي وتركمني وكرد... كانت تنظر إلى الجميع بالعين نفسها؛ عين لا ترى إلا شاباً يصلح أن يحمل بندقية، أو أما تصلح لأن تقف سنوات على باب بيتها تنتظر خيراً.

في ربيع عام 1987، كان معسكر التدريب في أطراف العمارة يشبه مدينة صغيرة من الخيام والأسلاك الشائكة... آلاف الجنود تذوب أسماؤهم داخل الأرقام العسكرية، لكنهم كانوا، كلما أرخى الليل ستاره، يعودون إلى

هوياتهم الأولى؛ ابن الناصرية، وابن العمارة، وابن الكوت، وابن بغداد، وابن
البصرة، وابن طوزخورماتو.

هناك، لم يعد أحد يسأل الآخر عن قوميته بقدر ما يسأله عن أمه.

- منين إنت؟

- من طوزخورماتو.

- تركماني؟

- نعم... تركماني شيعي.

- أهلاً بيك... إحنا كلنا أولاد هالوطن.

كان هذا الحوار يتكرر كل يوم حتى أصبح مألوفاً، وكأن الحرب، على

قسوتها، كانت أحياناً تهدم الحواجز التي بناها الناس في أوقات السلم.

في السرية التي خدم فيها **لافي البياتلي**، اجتمع رجال من مدن شتى،

لكنهم كانوا يشبهون أبناء بيت واحد.

كان **كاظم شكر أوغلو** من أحياء طوزخورماتو القديمة، طويل القامة، عريض الكتفين، لا تفارق الابتسامة وجهه، حتى في أصعب اللحظات. وكان يقول دائماً:

. إذا ضحكنا بوجه الموت ... ينجل منا.

أما **حيدر قاسم بيatalي**، فكان أكثرهم هدوءاً... يحب الكتب، ويحمل في حقيبته ديوان المتنبي ونهج البلاغة معاً.. كان يقرأ في أوقات الاستراحة بينما الآخرون يلعبون الدومينو.

وكان بينهم أيضاً **عباس الموسوي** من العمارة، و**جبار الساعدي** من الكوت، و**أبو علي الشمري** من الديوانية، و**سلمان الفيلي** القادم من خانقين.

كانوا مختلفين في اللهجات والملامح، لكنهم إذا اصطفوا في صلاة المغرب، بدوا كأئهم أبناء قرية واحدة.

وفي ليالي الخندق، كانت الأحاديث تبدأ دائماً بالسؤال نفسه:

- إذا خلصت الحرب... شنو أول شي راح تسويه؟

فيجيب عباس:

- أريد أبني بيت لأمي.

ويقول جبار:

- أتزوج... تعبت من الانتظار.

ويضحك كاظم:

- أول يوم أظل نائم للظهر... بلا صافرة إنذار... بلا ضابط يصيح.

ثم يلتفتون إلى لافي.

- وإنت؟

كان يبتسم وهو يحدق في السماء.

- أرجع لطوز... أجلس يم التنور... وأكل خبز حار من إيد أمي.

فيضحكون جميعاً.

لكن أحداً منهم لم يكن يضحك طويلاً.

فما إن تنتهي الضحكات حتى تعود المدافع لتذكرهم بأن الأمنيات في زمن

الحرب قد تتحول إلى أمنية واحدة فقط...

أن يبقى الإنسان حياً حتى صباح اليوم التالي.

كان شافي يخدم في لواء آخر قريب من وحدتهم، لذلك كان يزور أخاه

كلما سنحت الفرصة.

كان الجنود يعرفون العلاقة بينهما، فيفسحون له الطريق كلما جاء.

وفي إحدى الأمسيات، جلس الشقيقان فوق ساتر ترابي يراقبان الشمس

وهي تغرق في الأهوار.

قال شافي:

- تدري يا لافي... أخاف مو من الموت.

استغرب لافي.

. شتخاف إذن؟

ظل ينظر إلى الأفق طويلاً، ثم قال:

. أخاف أمي تسمع خبرنا من غيرنا.

ساد الصمت.

ثم أضاف بصوت خافت:

. الأم العراقية ما تموت مرة وحدة... تموت كل يوم يرجع بيه ولدها متأخر.

خفض لافي رأسه.

كان يعرف أن أخاه لا يبالغ.

ففي طوزخورماتو وحدها، لم تعد هناك امرأة لا تحفظ أسماء المستشفيات

العسكرية، ولا مراكز البريد، ولا أرقام الوحدات القتالية.

كانت الأمهات يتعلمن الجغرافيا من الخرائط العسكرية، لا من كتب

المدارس.

ومع مرور الأيام، بدأت الجبهة تزداد اشتعالاً.

أصبحت سيارات الإسعاف تعود أكثر مما تغادر.

وأصبحت المروحيات تهبط وهي تحمل أجساداً أكثر مما تحمل أحياء.

في كل مساء، كان الجنود يخرجون لحمل النعوش الملفوفة بالعلم.

كان المشهد يتكرر حتى فقد عنصر المفاجأة.

لكن الألم...

لم يفقد حدته يوماً.

كان لا في يقف في طابور التشيع، وينظر إلى وجوه رفاقه.

بالأمس كانوا يضحكون.

واليوم أصبحوا أسماءً في بيان عسكري.

همس كاظم ذات ليلة:

. تعرف شنو أكثر شي يوجع؟

قال لاني:

. شنو؟

. إن العسكري يموت... وبعد أسبوع يجي غيره بنفس الفراش... ونفس

الخوذة... وكأن الإنسان صار قطعة غيار.

لم يجد أحد جواباً.

حتى الريح التي كانت تعبر الخنادق بدت كأنها تحمل أنين آلاف الذين لم

يعودوا.

في الأسبوع الأخير من شباط، دخل آمر الفوج إلى المقر، وكانت ملامحه

أكثر صرامة من المعتاد.

وقف الجنود جميعاً.

فتح الخريطة فوق الطاولة، ثم مرر إصبعه على بقعة صغيرة شرق البصرة.

قال بصوت حازم:

. هنا...

ساد الصمت.

أكمل:

. خلال ثمانٍ وأربعين ساعة ستتحرك وحداتكم إلى هذا المحور.

نظر الجنود إلى الخريطة.

كانت بقعة صغيرة لا تكاد تُرى.

لكن الذين سبق أن قاتلوا هناك، تغيرت وجوههم فجأة.

همس أحدهم:

. هاي... نهر جاسم.

وقال آخر بصوت مرتجف:

. يعني... الأرض الحرام.

ساد سكون ثقيل.

حتى المصباح المعلق في سقف الخيمة بدا وكأنه توقف عن الاهتزاز.

أما لافي، فقد نظر إلى شافي، الذي كان يقف عند باب الخيمة بعدما جاء لتوديعه.

التقت عيناها للحظة.

لم يتبادلا الكلمات.

كان كل واحد منهما يعرف ما يريد الآخر قوله.

وفي تلك الليلة، لم ينم أحد في المعسكر.

كان الجنود ينظفون بنادقهم ببطء، ويكتبون رسائل قصيرة إلى أمهاتهم، ويخفونها داخل حقائبهم، كأنهم يودعون حياتهم قبل أن يبدأوا الرحلة نحو المكان الذي أطلق عليه الجميع اسمًا واحدًا...

الأرض الحرام.

الفصل الثالث

**الطريق إلى نهر جاسم

تحركت القافلة العسكرية قبل الفجر بساعة... كانت السماء سوداء،
والنجوم معلقة فوق السهل مثل عيونٍ تراقب بصمت، فيما كانت
الشاحنات العسكرية تتقدم ببطء، تهتز فوق الطريق الترابي كأنها تحمل
العراق كله على ظهورها.

جلس لافي البياتلي قرب فتحة الشاحنة الخلفية، يضم بندقيته إلى صدره،
بينما كان الهواء البارد يلسع وجهه. إلى جواره جلس كاظم شكر أوغلو
يلف عنقه بكوفية صوفية، ويقاوم النعاس بنكتة جديدة كل عشر دقائق.
- إذا متّ اليوم، أريدكم تكتبون على قبري: "هنا يرقد رجل كان يكره
الاستيقاظ باكراً."

ضحك الجنود، حتى السائق ابتسم وهو يحدق في الطريق.

لكن حيدر قاسم لم يضحك.. كان ينظر إلى الظلام الممتد خارج الشاحنة،
ثم قال بهدوء:

. الغريب أن الإنسان يعرف أحياناً أنه ذاهب إلى مكان لن يعود منه، ومع ذلك يذهب.

التفت إليه لافي:

. لو كل واحد فكر بالرجعة قبل الواجب، ما بقت مدينة واقفة.
هز حيدر رأسه.

. صحيح... لكن الأم لا تفكر بالواجب، تفكر بالبواب الذي تنتظر أن يطرقه ابنها.

مع شروق الشمس، بدأت ملامح الجنوب البصري تظهر... نخيل بعيد، ومياه راكدة، وأرض موحلة حفرتها القذائف حتى صارت كأنها وجه شيخ عجوز امتلأ بالندوب.

كلما اقتربوا من الجبهة، ازداد عدد سيارات الإسعاف العابرة في الاتجاه المعاكس.

سيارة تحمل جريحاً يضغط بيده على بطنه.

وأخرى تحمل رجلاً مغطى بالدم حتى لم يعد يُعرف لون بزته.

وثالثة تحمل نعوشاً صامته.

قال عباس الموسوي وهو يشيخ بوجهه:

. الله يستر علينا.

أجابه كاظم محاولاً التخفيف:

. إذا الله ستر علينا، أول ما أرجع أطوز أتزوج بنت عمي.

ضحك عباس: ولك هي مخطوبة من سنة!

رد كاظم:

. لهذا أدعي الله أكثر.

تعالى الضحكات للحظات، ثم خنقتها قذيفة انفجرت في مكان بعيد،

فاهتزت الأرض تحت الشاحنة.

ساد الصمت.

وصلوا إلى موقع الفوج قبل الظهر... كانت الخنادق محفورة وسط الطين،
تفصل بينها سواتر ترابية عالية، وتعلو المكان رائحة البارود والديزل
والرطوبة.

استقبلهم ضابط مرهق الوجه، عيناه غائرتان من السهر.

. أهلاً بالوجة الجديدة... حاولوا تحفظون وجوه بعض، لأن الليل هنا يبدل
كل شيء.

قادهم إلى خندقهم.

في الطريق مروا بجندي يجلس وحده، يحرق في خوزة موضوعة أمامه.

سأل لافي:

. شي هذا؟

أجاب الضابط دون أن يلتفت:

. صاحبه استشهد البارحة... ومنذ الصبح وهو ينتظر أن يقوم ويأخذ
خوذته.

شعر لافي بوخزة في صدره.

أما كاظم، فانطفأت ابتسامته للمرة الأولى.

في المساء، جلس الجنود داخل الخندق الضيق... كان المطر الخفيف يطرق
أكياس الرمل، بينما كانت القذائف البعيدة ترسم ومضات حمراء في الأفق.

أخرج حيدر صورة صغيرة من جيبه.

. هاي أختي يوم تخرجت من المتوسطة.

تناقلوا الصورة بينهم.

ثم أخرج عباس صورة أمه.

وأخرج سلمان الفيلي صورة طفله الذي لم يتجاوز عامه الأول.

أما لافي، فلم يخرج صورة.

قال كاظم: ما عندك صورة؟

ابتسم:

. عندي وجه أمي بذاكرتي... يكفيني.

سكتوا جميعاً.

كان لكل واحد منهم شيء يخاف أن يفقده، وشيء يخجل أن يعترف بأنه

يقاتل من أجله أكثر مما يقاتل من أجل الشعارات.

قبيل منتصف الليل، جاء الأمر بالاستعداد للتقدم.

انتشر الجنود على طول الساتر.

كان القمر محبوباً بالدخان، والهواء مشبعاً برائحة الطين المحترق.

اقترب شافي البياتلي من أخيه قبل التحرك.. كان قد وصل مع مجموعته إلى

المحور نفسه.

وقفنا لحظة قصيرة وسط الفوضى.

- امي إذا سألت عني، شتكلها؟

قالها لاني وهو يشد حزام خودته.

نظر شافي إليه طويلاً.

- أكوها ابني بعده يضحك ويزعج رفاقه.

ابتسم لاني.

- وإذا ما رجعت؟

أمسك شافي كتفه بقوة.

- لا تحجي هالحجي.

ثم خفض صوته:

- إذا صار شي... لا تخلي الخوف يدخل قلبك بآخر لحظة... تذكر

طوز... وتذكر أمي.

لم يجد لاني جواباً.

فقط هز رأسه.

عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بدأ التقدم.

خرج الجنود من الخنادق واحداً تلو الآخر، ينحنون تحت ثقل العتاد،

ويغوصون في الطين حتى الكاحل.

كانت السماء تومض بنيران المدفعية، وكل ومضة تكشف الوجوه لثانية، ثم

تعيدها إلى العتمة.

سمعوا صفيراً حاداً.

صرخ أحدهم: ارتموا!

انفجرت القذيفة أمامهم، فتطاير الطين والشظايا فوق الرؤوس.

نهضوا وأكملوا الركض.

ثم انفجرت أخرى.

وثالثة.

ورابعة.

تحولت الأرض إلى فمٍ يفتح ويغلق تحت أقدامهم.

ركض كاظم بجوار لافي وهو يلهث:

. والله إذا نجينا الليلة، أعزمكم كلكم على دولة بطوز!

ضحك لافي رغم الرعب:

. أول شي ننجو!

لكن الضحكة انقطعت فجأة.

ففي الأفق، خلف سحابة الدخان، ظهرت الأسلاك والعوائق والتراب

الممزق بالنار.

همس جندي قديم:

. وصلنا...

سأل لافي:

- وين؟

نظر الرجل إلى الأمام، وكانت عيناه تملآن خوفاً لم يستطع إخفاءه.

- هاي بداية... الأرض الحرام.

وفي تلك اللحظة، دوّت المدافع دفعة واحدة، حتى بدا الليل كله وكأنه

انشق، وعرف لاني ورفاقه أن ما عاشوه حتى الآن لم يكن حرباً بعد...

بل الطريق إليها فقط.

الفصل الرابع

**الأرض الحرام

لم يكن الفجر قد ولد بعد، لكن السماء كانت مضاءة بلونٍ غريب، لونٍ

لا تصنعه الشمس، بل تصنعه المدافع وهي تمزق الليل بقذائفها.. كانت

الأرض تهتز تحت أقدام الجنود حتى حُيِّل إليهم أنهم لا يسيرون فوق التراب،

بل فوق قلبٍ عملاق يخفق بعنف.

توقفت السرية خلف ساتر ترابي منخفض، وأمر آمر الفصيل الجميع
بالانبطاح.

قال بصوتٍ خافت لكنه حاسم:

. من هسه... أي واحد يرفع رأسه بلا أمر... يموت قبل لا يشوف العدو.

التصقت الوجوه بالطين البارد.

كانت رائحة الأرض مختلطة بالبارود والديزل والدم القديم.. رائحة لا تشبه

شيئاً في الحياة، لكنها تصبح بعد أيام الرائحة الوحيدة التي يعرفها الجندي.

نظر **لافي البياتلي** إلى الأمام.

لم ير سوى ضباب كثيف يتخلله وميض القذائف.

أما **كاظم شكر أوغلو** فكان يهمس بآيات قصيرة من القرآن، بينما

كان **حيدر قاسم** يضم صورة أخته داخل جيبه، كأنه يخشى أن تضيع

أكثر مما يخشى أن تضيع حياته.

في الساعة الخامسة فجراً، صدر الأمر.

. تقدموا...

خرجت المجموعة من الساتر بخطوات متباعدة.

كان الطين يغوص بأحذيتهم حتى منتصف الساق، وكل خطوة تحتاج إلى

قوة تكفي لاقتلاع القدم من الأرض.

وفجأة...

شق السماء صوت صغير طويل.

صرخ ضابط الهندسة:

. قذائف ... ارتموا...

لم تكد الأجساد تلامس الأرض حتى انفجرت القذيفة الأولى.

اهتزت الدنيا كلها.

ارتفع عمود من التراب والنار، ثم تبعته قذيفة ثانية، وثالثة، وعاشرة، حتى
اختفى الليل تحت ضوء الانفجارات.

كانت الشظايا تصفر فوق الرؤوس مثل أسراب من الغربان المعدنية.

رفع لافي رأسه قليلاً.

رأى جندياً كان يركض قبل ثوانٍ.

لم يعد موجوداً.

بقيت خوذته فقط، تندرج فوق الوحل، كأنها تبحث عن صاحبها.

أخفض رأسه بسرعة.

همس لنفسه: "يا رب... لا تجعل أُمي ترى خوذتي وحدها."

استمر القصف أكثر من ساعة.

ولم يكن أحد يعرف كم مضى من الوقت.

في الحرب، لا تُقاس الساعات بالعقارب، بل بعدد القذائف التي تسقط
بين دقتين للقلب.

كان الجرحى يصرخون في كل اتجاه.

. مسعف...

. مي...

. يمّه...

كانت الكلمة الأخيرة هي الأكثر تكراراً.

لم يكن أحد ينادي قائده.

ولا رتبته.

ولا وطنه.

كلهم كانوا ينادون أمهاتهم.

حتى أولئك الذين تجاوزوا الأربعين.

في لحظة الألم، يعود الإنسان طفلاً.

بعد انحسار القصف قليلاً، تقدمت السرية من جديد.

كان أمامهم حقل ألغام، ثم سواتر متشابكة، ثم منطقة مكشوفة يسميها

الجنود جميعاً: **الأرض الحرام.**

لم يكن الاسم مبالغة.

فهناك...

لا إسعاف.

ولا إخلاء.

ولا خندق يحميك.

ولا شجرة تختبئ خلفها.

مجرد أرض مفتوحة، تتقاطع فوقها نيران الطرفين.

من يسقط فيها...

يبقى فيها.

قال أحد الجنود القدامى بصوت مرتجف:

. إذا أصيب واحد بينا هناك...

لا ترجعون له... ؛ لا تخلون اثنين يموتون.

نظر الجميع إليه.

لم يعترض أحد.

كان هذا هو القانون الوحيد الذي تفرضه الأرض الحرام.

قانون أقسى من الموت نفسه.

بدأوا العبور.

كان الصمت أغرب من أصوات المدافع.

كل واحد يسمع دقات قلبه فقط.

وفجأة دوى رشاش ثقيل.

سقط أول جندي.

ثم الثاني.

ثم الثالث.

صرخ آمر الفصيل:

. انتشروا...

ارتدت الأجساد في الحفر الصغيرة.

لكن الأرض نفسها كانت ترتجف من كثافة القصف.

التفت لافي يبحث عن كاظم.

كان قريباً منه.

ابتسم كاظم رغم الرصاص.

وصاح: بعدك تريد الدولة؟

ضحك لافي للحظة.

وقبل أن يجيبه... ؛ انفجرت قذيفة بينهما.

ارتفع دخان كثيف، وتناثرت كتل الطين فوق الجميع.

اختفى كاظم.

صرخ لافي: كاظم!

لم يصله جواب.

راح يزحف بجنون نحو مكان الانفجار.

أمسكه حيدر من سترته بقوة.

.. لا...

لا تطلع...

راح تموت.

صرخ لافي وهو يحاول الإفلات: أخويه هناك...

أفلت نفسه، وزحف أمتاراً قليلة.

لكن ما إن رفع رأسه حتى مرت رصاصة على بعد سنتيمترات من وجهه،
مزقت حافة خوذته.

تجمد في مكانه.

ورأى...

خوذة كاظم.

ثم بندقيته.

أما هو...

فلم يكن هناك.

لم يبقَ إلا حفرة واسعة امتلأت بالماء والدم.

أغلق لافي عينيه.

لم يبك.

كان الوقت لا يسمح بالبكاء.

عاد يزحف إلى الخلف، بينما بقيت كلمات كاظم الأخيرة تتردد في رأسه

:"بعدك تريد الدولة؟"

استمرت المعركة حتى الظهيرة.

كانت السماء سوداء من الدخان.

والأرض سوداء من آثار الحريق.

والوجوه سوداء من البارود.

عند الظهيرة أصيب **حيدر قاسم** بشظية في ساقه.

سقط وهو يضغط على جرحه.

حاول أن ينهض، لكنه لم يستطع.

اقترب منه لافي.

. قوم...

لا تبقى هنا.

قال حيدر بصوت متقطع: اتركني ... روح ... اذهب بسرعة .

أنت بعدك تكدر تركض...

أمسكه لاني من كتفيه.

- إذا تموت... نموت اثنين.

إذا أتركك... أموت طول عمري.

سحب جسده رغم الرصاص.

كان يجره متراً...

ثم يسقط.

ثم ينهض.

ثم يجره من جديد.

كانت الشظايا تضرب الأرض حولهما، والطين يتناثر فوق وجهيهما.

وبعد دقائق بدت كأنها عمر كامل، وصلا إلى منخفض صغير احتميا فيه.

وصل المسعفون بعد قليل.

قال أحدهم وهو ينظر إلى لافي:

. شلون طلعتة؟

أجاب وهو يلهث: والله... ما أعرف.

يمكن أمي كانت تدفعني من بعيد.

مع حلول المساء، خفت أصوات المدافع.

لكن الصمت لم يكن أقل رعباً.

بدأ الجنود يعدّون من بقي.

كل اسم لا يجيب...

يعني أن أمّاً في مدينة بعيدة ستبدأ انتظاراً جديداً.

قرأ الضابط الأسماء.

. عباس الموسوي...

. حاضر.

. سلمان الفيلي...

. حاضر.

. حيدر قاسم...

. حاضر...

لكن بصوت ضعيف من سيارة الإسعاف.

ثم توقف الضابط.

نظر إلى الورقة.

قال بهدوء: كاظم شكر أوغلو...

لم يجب أحد.

أعاد اسمه مرة ثانية.

ثم الثالثة.

وبقي الصمت وحده يجيب.

في تلك اللحظة، أدرك لافي أن الحرب لا تسرق الرجال فقط...

بل تسرق الضحكات أيضاً.

أما في الجهة الأخرى من الجبهة، فقد كانت المدافع تستعد لجولة جديدة.

وكانت **الأرض الحرام** لا تزال جائعة، تنتظر أسماءً أخرى لتضيفها إلى سجلها الطويل.

لم يكن الليل يعني نهاية القتال.

في جبهة نهر جاسم، كان الليل يبدأ حين تتوقف العيون عن التمييز بين التراب والإنسان، ويصبح كل ظل مشروع جثة، وكل حركة احتمالاً للموت.

جلس لافي داخل حفرة ضيقة لا يتجاوز عمقها نصف متر... كانت بندقيته مغطاة بالطين، وملابسه أثقل من جسده بعد أن تشبعت بالماء

والتراب والدم.. لم يعد يعرف إن كان الدم الذي يلطخ كمه دمه أم دم
أحد رفاقه.

كانت السماء تمطر مطراً خفيفاً.

امتزج المطر بالبارود، فتحولت الأرض إلى عجينة سوداء، تغوص فيها
الأقدام كما تغوص الذكريات في قلب لا يريد أن يتذكر.

من بعيد، سمع أنيناً... كان خافتاً... متقطعاً... لكنه أنين إنسان.

التفت نحو مصدر الصوت.

جاءه مرة أخرى.

"...مي..."

ثم صمت.

عاد الصوت بعد لحظات.

"...لا تخلوني..."

أغلق لافي عينيه.

كان يعرف أن الصوت يأتي من داخل الأرض الحرام.

قال الجندي الجالس إلى جواره: لا تنظر... كلنا سمعناه.

أجاب لافي: يمكن نكدر نطلعه.

ابتسم الرجل ابتسامة مرة.

. إذا طلعتله... راح يصير اثنين يصرخون.

ساد الصمت.

لكن الصوت ظل يلاحقه.

كان أشد من صوت المدافع.

فالرصاص يقتل الجسد مرة واحدة...

أما الاستغاثة التي لا تجد مجيباً، فإنها تقتل الروح كلما تذكرتها.

قبل الفجر بقليل، وصلت مجموعة صغيرة من الجنود المنسحبين من الخط الأول.

لم يكونوا يمشون...

بل كانوا يجرون أقدامهم.

وجوههم مغطاة بالسخام، وعيونهم زائغة، وكأنهم خرجوا من جوف بركان.

جلس أحدهم قرب لافي.

مد يده المرتجفة إلى علبة السكائر.

أشعل واحدة.

لكنه لم يدخنها.

ظل ينظر إلى النار المشتعلة في طرفها.

ثم قال بصوت أجش: فقدت أخوي اليوم.

لم يعلق أحد.

أكمل الرجل: كنا بنفس الفصيل...أصابه قناص.

ظل يناديني.

والله ظل يناديني.

لكن أمر الفصيل منعني أروحله.

سكت.

ثم انفجر باكياً لأول مرة.

. تركته...

تركت أخوي وحده...

رفع لافي رأسه.

لم يكن الرجل يبكي لأنه مات.

كان يبكي لأنه عاش.

وهذه هي المأساة التي لا تذكرها بيانات الحروب.

مع أول خيط من النهار، بدأ الضباب ينقشع.

وعندها ظهرت الحقيقة.

الأرض الممتدة أمامهم لم تعد أرضاً.

كانت مقبرة مفتوحة.

خوذات ممزقة.

بنادق مغروسة في الوحل.

أحذية بلا أصحاب.

حقائب مفتوحة تناثرت منها رسائل، وصور أطفال، ومساح، وقطع خبز

يابس لم يأكلها أصحابها.

كانت الغربان تحلق في دوائر منخفضة.

أما الكلاب السائبة، فقد اقتربت من أطراف الميدان، ثم توقفت، كأنها هي

الأخرى خافت من كثرة الموت.

قال حيدر وهو ينظر إلى المشهد: هاي مو معركة... هاي نهاية العالم.

وصل أمر جديد.

يجب التقدم مرة أخرى.

نظر الجنود إلى بعضهم.

لم يعترض أحد.

لم يعد فيهم من يملك طاقة الاعتراض.

وقف لافي.

أعاد تثبيت خوذته التي مزقتها شظية الليلة الماضية.

رفع بندقيته.

ثم التفت إلى المكان الذي اختفى فيه كاظم.

همس: ساحني... ما كدرت أرجعك.

وأقسم بينه وبين نفسه، أنه إن كتب الله له النجاة، فلن ينسى اسم صديقه

ما بقي في قلبه نبض.

بدأ الهجوم الثاني.

هذه المرة كان أعنف.

انهمرت القذائف كالطر.

وتحول النهار إلى ليل من الدخان.

وفي خضم الفوضى، سمع لافي صراخاً قادماً من جهة اليمين.

التفت بسرعة.

كان أحد الجنود الشباب قد أصيب في كتفه، وسقط وسط منطقة

مكشوفة.

لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره.

ظل يصرخ: عمو... لا تخلوني... كانت الكلمة كافية.

نسي لافي كل شيء.

قفز من الساتر، وانطلق نحوه تحت وابل الرصاص.

صرخ به الضابط: ارجع... ارجع لا تموت... لكنه لم يسمع.

وصل إلى الجندي.

أمسك سترته.

وبدأ يجره.

كل متر كان يبدو كأنه ميل كامل.

الرصاص يضرب الأرض حولهما.

والشظايا تمزق الهواء.

وفجأة... ؛ شعر بضربة عنيفة في ذراعه اليسرى.

لم يسمع صوت الإصابة.

لكنه شعر بحرارة غريبة، ثم بدأ الدم يتدفق داخل كم بزته.

نظر إلى ذراعه.

كانت الشظية قد مزقت الساعد، وقطعت اللحم حتى ظهرت العظام.

اختفى الإحساس بالألم... ؛ لم يبق إلا ثقل الذراع.

ورغم ذلك... واصل جر الجندي...!!

كان يضغط بأسنانه حتى كادت تتكسر، ويسحب المصاب بيده اليمنى

وحدها، بينما ذراعه اليسرى تتدلى بلا قوة، تاركة خلفها خطاً طويلاً من

الدم فوق الطين.

وحين وصل إلى الساتر، سقط الاثنان معاً.

هرع المسعفون نحوه.

قال أحدهم وهو يفتح الضماد:

. الأعصاب انقطعت...

لازم إخلاء فوراً.

حاول لافي أن يرفع رأسه.

كان أول سؤال خرج من بين شفثيه: الولد... عاش؟

ابتسم المسعف رغم الدماء.

- نعم... عاش.

أغمض لافي عينيه.

وللمرة الأولى منذ بدء المعركة، شعر براحة قصيرة.

لم يكن لأنه نجا... ؛ بل لأنه لم يترك إنساناً خلفه ينادي أمه وحده في

الأرض الحرام.

كان المسعفون يعملون تحت القصف، وكأنهم يقاتلون الموت بأيديهم

العاريتين.

ألقى أحدهم نظرة سريعة على ذراع لافي، ثم صاح: اربطوا العضد... النزف

شديد.

لفَّ الجندي رباطاً مطاطياً فوق الجرح بقوة حتى كاد يكسر العظم.

صرخ لافي صرخة مكتومة، لكنه لم يسحب ذراعه.

كانت عيناه تبحثان عن الجندي الشاب الذي أنقذه.

وجده مستلقياً إلى جواره، شاحب الوجه، لكنه ما يزال يتنفس.

ابتسم لافي بصعوبة.

همس: الحمد لله... اقترب منه الشاب، وكانت دموعه تختلط بالطين.

قال بصوت متقطع: عمي... ليش رجعت إليّ؟

كان السؤال بسيطاً، لكنه هز قلب لافي.

ابتسم رغم الألم.

. لأن أُمي علمتني... ما أترك إنسان وحده.

أطرق الشاب رأسه وبكى.

وصلت سيارة الإخلاء بعد دقائق بدت دهرًا.

لكن الوصول إليها لم يكن أقل خطراً من البقاء في الخندق.

كانت المسافة بين الساتر والسيارة نحو مائة متر.

ومائة متر في نهر جاسم...

تعاذل عمراً كاملاً.

بدأ أربعة جنود يحملون النقالات.

كلما ركضوا بضعة أمتار، سقطت قذيفة بالقرب منهم، فيرتمون أرضاً، ثم

ينهضون من جديد.

كان أحد المسعفين يضحك كلما انفجرت قذيفة.

نظر إليه لافي باستغراب.

قال الرجل: إذا بطلت أضحك... راح أجن.

عندها أدرك لافي أن للحرب وجوهاً كثيرة، وأن الجنون ليس دائماً

صراخاً... أحياناً يكون ضحكةً في المكان الخطأ.

وصلوا إلى محطة الإخلاء الخلفية.

كانت أشبه بمدينة من الألم.

صفوف طويلة من الجرحى.

أطباء يغسلون الدم عن أيديهم ثم يعودون إلى دم آخر.

ممرضون يركضون دون توقف.

وأصوات تنادي:

- بلازما...

- مورفين...

- نقالة...

- طبيب جراحة...

كانت الأرض مفروشة ببطانيات عسكرية، فوقها رجال فقدوا أطرافهم،

وآخرون ينتظرون دورهم إلى غرفة العمليات.

لم يكن أحد يسأل عن اسمه.

كان السؤال الوحيد: يتنفس؟

إذا كان الجواب نعم... ؛ انتقل إلى الصف التالي.

بينما كان الطبيب يفحص ذراع لافي، توقف فجأة.

نظر إليه طويلاً.

قال: شكك عمرك؟

. خمسة وعشرين.

هز الطبيب رأسه بحزن.

. شبابكم كله يضيع هنا.

ثم بدأ ينزع بقايا القماش الملتصق بالجرح.

كانت الشظية قد مزقت الساعد، وقطعت عدداً من الأعصاب.

قال الطبيب بهدوء: لازم نحولك للبصرة... ؛ يمكن نكدر ننقذ اليد... لكن

ما أگدر أوعدك.

لم يهتم لاني بيده.

سأل مباشرة: وحدتي؟

رفع الطبيب رأسه.

- شبيها؟

- رفاقي...

رجعوا؟

صمت الطبيب.

لم يكن يحتاج إلى الإجابة.

ففي الحرب... ؛ الصمت هو أكثر الأجوبة صدقاً.

في مساء اليوم التالي، استعاد لافي شيئاً من وعيه داخل المستشفى
العسكري.

كانت رائحة المطهرات تخفي رائحة البارود، لكنها لم تستطع أن تخفي صور
المعركة.

كلما أغلق عينيه، عاد يرى كاظم.
يضحك.

ثم يختفي وسط الانفجار.
استيقظ مذعوراً.

وجد ممرضاً يثبت المصل في ذراعه.

قال: أخويه... وصل؟

ابتسم الممرض.

- بعده بالطريق.

بعد ساعات... ؛ دخل شافي.

كان متعباً إلى حد أن لحيته نبتت خلال يومين، ووجهه مغطى بالغبار.

وقف عند الباب صامتاً.

لم يستطع الاقتراب.

أما لافي، فابتسم ابتسامته القديمة.

. ها... ؛ شفته؟

اقترب شافي بسرعة.

احتضنه بحذر، خشية أن يؤلمه.

لكنه لم يتمالك نفسه.

بكي... ؛ لأول مرة منذ سنوات... ؛ بكى الضابط الذي لم يره أحد

يبكي.

قال وهو يمسح دموعه: حسبتك رحت.

أجابه لافي بصوت خافت: بعدي مدين لأمي باستكان چاي.

ضحك شافي وسط دموعه.

وكانت تلك الضحكة القصيرة أثمن من كل الأوسمة التي يمكن أن تمنحها

الحروب.

بعد أسبوع، صدر تقرير الخسائر.

كانت السرية التي دخلت نهر جاسم قد فقدت أكثر من نصف رجالها.

أما البقية... ؛ فإما جرحى، أو مفقودون، أو عادوا بأجساد سليمة وأرواح

لن تعود كما كانت.

قرأ لافي أسماء الشهداء.

توقف عند اسم: **كاظم شكر أوغلو.**

ظل يحدق فيه طويلاً... ؛ ثم طوى الورقة ببطء... , لم يبك... ؛ لكنه

شعر أن شيئاً في داخله قد دُفن مع صديقه.

ومنذ ذلك اليوم، كلما رأى طبق دولمة على مائدة، تذكر ضحكة كاظم الأخيرة، وتذكر وعداً بسيطاً لم يتحقق أبداً.

وفي تلك اللحظة، لم يكن يعلم أن القدر، الذي أنقذه من الموت في نهر جاسم، لم يكن قد أعفاه منه، بل كان يؤجل موعد اللقاء ثلاثين عاماً... إلى أن تدق ساعة أخرى، فوق أرضٍ أخرى، اسمها **طوزخورماتو**.

الفصل الخامس

**العائدون من الموت

هناك رجالٌ يعودون من الحرب بأجسادهم... وهناك رجالٌ لا يعود منهم سوى الاسم... أما الذين ينجون، فإنهم لا يعودون كما كانوا أبداً.

كانت سيارة الأجرة تشق الطريق بين بغداد وكركوك ببطء، تهتز فوق الحفر التي خلّقتها الشاحنات العسكرية... جلس **لافي البياتلي** إلى جوار النافذة، وذراعه اليسرى معلقة بحمالة بيضاء، بينما بقيت أصابعه ساكنة كأنها لا تنتمي إلى جسده.

كان ينظر إلى الحقول الممتدة على جانبي الطريق... القمح ينمو... النخيل
ما زال واقفاً... الرعاة يسوقون أغنامهم... والنساء ينشرن الغسيل أمام
البيوت... كل شيء يبدو طبيعياً... حتى يخيل للمرء أن الحرب لا وجود
لها...!!

ابتسم في مرارة.

قال في نفسه: "الحرب لا تسكن الطرق... الحرب تسكن الذين يسلكونها."
كلما أغمض عينيه، عاد يسمع الانفجار... ويرى كاظم يبتسم... ثم
يختفي.

فتح عينيه بسرعة.

نظر إلى يده.

حاول أن يحرك أصابعه... ؛ لم تستجب... كرر المحاولة... لا شيء.

اقترب السائق منه وقال بلطف: لا تتعب نفسك .. الله كريم ... ؛ الطبيب

كال يمكن ترجع بعد العلاج.

ابتسم لاني... ؛ لكنه كان يعرف أن بعض الأشياء إذا انكسرت... لا تعود
كما كانت.

عند مدخل **طوزخورماتو**، كان الهواء مختلفاً.

رائحة التراب بعد السقي... ؛ دخان التناير... وصوت الباعة في السوق
القديم.

أحس أنه عاد إلى حضن أمه قبل أن يصل إلى البيت... ؛ توقفت السيارة
عند أول الشارع.

ما إن ترجل منها حتى شاهده طفل صغير... ؛ ركض الطفل وهو يصيح:
إجا...

إجا لاني... كان الخبر أسرع من السيارة... ؛ خرج الرجال من
الدكاكين... ؛ وتركت النساء أعمالهن... وأخذ الأطفال يركضون خلفه.

كان كل واحد يريد أن يتأكد أن الشاب الذي قالوا إنه سقط في الأرض
الحرام... ؛ قد عاد حياً.

في تلك اللحظة، كانت **الحاجة زهراء** تجلس في فناء البيت... ؛ منذ أيام وهي لا تنام إلا قليلاً... كلما سمعت صوت سيارة، قامت إلى الباب... وكلما مر عابر في الزقاق، ظنت أنه يحمل خبراً... ؛ كانت تحمل مسبحتها بيد، وصورة ابنها باليد الأخرى.

دخلت إحدى الجارات مسرعة.

لم تستطع الكلام... كانت تلهث.

قالت الحاجة زهراء وهي ترتجف: خير... شصار؟

ابتسمت المرأة وهي تمسح دموعها : لا تبجين... ابنك لاني رجع سالم

...

لم تصدق... وقفت... ثم جلست... ثم وقفت مرة أخرى... كأن قدميها

لم تعودا تعرفان كيف تحملانها... وفي اللحظة نفسها...؛ ظهر لاني عند

باب الدار... ؛ بملابسه العسكرية وشحوبه وذراعه المعلقة.

لكنه كان واقفاً.

صرخت أمه باسمه... ؛ لم تركض نحوه... ؛ بل هرولت إليه كما تهول
الأرض إلى أول قطرة مطر بعد قحط طويل... ؛ احتضنته بقوة... ؛ ثم
أخذت تتحسس وجهه وكتفيه وشعره... ، وكأنها تريد أن تتأكد أنه ليس
حلماً.

قالت وهي تبكي: يمّ لاني ... بعدك بخير؟

ابتسم وهو يخفي ألمه.

- يمّ... رجعت... هذا يكفي.

لم يكن في البيت مكان يتسع للناس... ؛ امتلأت الغرف... ، وامتلاء
الفناء... ؛ حتى الجيران الذين كانت بينهم وبين العائلة خصومات قديمة
جاءوا يهنئون بعودته.

قال شيخ طاعن في السن: الحرب تعلمنا أن الزعل أصغر من الموت.

هز الجميع رؤوسهم... ؛ لم يكن أحد يخالفه.

في الليل...جلس لافي في وسط الديوان...وحوله الرجال وبقربه ... ؛ كل واحد يسأله عن ابنه... ؛ أو ابن أخيه... أو قريبه... ؛ وكانت أصعب مهمة في حياته...؛أن يخبر أمّا أن ولدها لن يعود.

قال أحد الرجال: ابني عباس...شفته؟

خفض لافي رأسه.

سكت.

فهم الأب الجواب قبل أن يسمعه... أدار وجهه نحو الجدار... ولم ينطق بكلمة... ؛ أما المرأة الجالسة خلف الستار...فقد علا نשיجها حتى حُيل للحاضرين أن البيت كله ييكي.

في تلك الليلة، أدرك لافي أن الناجي من الحرب لا يحمل جراحه وحده...بل يحمل أيضاً أخبار موت الآخرين.

مرت الأشهر.

ثم السنوات.

انتهت الحرب على الورق.

لكنها لم تنته في البيوت.

كل صباح، كان لاني يحاول أن يحرك أصابع يده... وكل صباح تخونه.

أجرى عملية... , ثم ثانية... ثم الثالثة.

قال الأطباء إن الأعصاب تحتاج إلى وقت... ومر الوقت... ؛ لكن اليد

بقيت نصف غريبة عنه.

أما الليل... فكان أكثر قسوة... كان يستيقظ مذعوراً على صوت انفجار

لا يسمعه أحد سواه.

توقظه أمه... تجلس إلى جواره... تمسح العرق عن جبينه...

وتقول: انتهت الحرب يا ولدي.

فيحييها وهو ينظر إلى الفراغ: يمكن انتهت عند الناس... بس هي بعده

هنا... ؛ ويضع يده السليمة على صدره.

عاد شافي إلى خدمته... ؛ وعاد لافي إلى الحياة المدنية... ؛ لكن شيئاً فيه
ظل واقفاً هناك...عند نهر جاسم... ؛ كان يزور قبور الشهداء كلما
سنحت له الفرصة... ؛ ويقرأ الفاتحة.

ثم يقف طويلاً أمام اسم واحد : **كاظم شكر أوغلو.**

كان يحدثه كما لو كان يسمعه.

. وعدتك بالدولة... وتأخرت... ؛ ساحني... ؛ ثم يتسم... ؛ ويمضي.

ومع مرور الأعوام، تزوج لافي، ورزق بأبناء... ؛ كبرت الأشجار التي زرعها
مع أبيه... ؛ وشاخت أمه... ، وتغيرت وجوه المدينة... ؛ لكن شيئاً
واحداً لم يتغير... ، كلما سمع صفارة سيارة إسعاف...أو دويّاً بعيداً...
كان قلبه يعود إلى تلك الليلة... ؛ إلى الأرض التي لا تُعيد أبنائها.

كان يظن أن نصيبه من الحرب قد انتهى... ؛ وأن الله كتب له عمراً
جديداً ليعيش ما بقي من حياته بين أهله... ؛ لكنه لم يكن يعلم أن

التاريخ، الذي أغلق صفحة نهر جاسم، كان يتهيأ لفتح صفحة أشد قسوة.

فبعد سنوات، ستظهر على أرض العراق رايات سوداء، تحمل الموت باسم الدين، وتقترب شيئاً فشيئاً من مدينته... ؛ وحينها... سيجد لافي نفسه أمام السؤال ذاته الذي واجهه شاباً: هل يستطيع الإنسان أن يختار السلام...؟ إذا جاءت الحرب إلى باب بيته؟

الفصل السادس

****ثلاثون عاماً من الندوب**

هناك حروبٌ تنتهي بتوقيع اتفاقية...؛ وحروبٌ لا تنتهي إلا بموت آخر شاهدٍ عليها.

كانت الحرب العراقية الإيرانية قد وضعت أوزارها، لكن أحداً في طوزخورماتو لم يشعر بأن السلام قد عاد كاملاً... ؛ صحيح أن أصوات المدافع خفت، وأن القطارات عادت تحمل المسافرين بدل الجنود، وأن

المدارس امتلأت بالأطفال من جديد، إلا أن الحرب بقيت تعيش في
تفاصيل الناس، في نظراتهم، وفي صمتهم الطويل، وفي الصور المعلقة على
جدران البيوت.

في كل شارع من شوارع المدينة كان هناك بيتٌ يفتح بابه كل صباح على
صورة شهيد... ؛ وفي كل حسينية كان اسم جديد يُقرأ في مجالس الفاتحة.
أما الأمهات، فقد تعلمن أن يتسمن وهن يحملن الحزن في أعماقهن، لأن
الحياة لا تمنح أحداً فرصة البقاء عند المأساة إلى الأبد.

عاد **لا في البياتلي** إلى أرضه... ؛ كان يستيقظ قبل شروق الشمس،
يحمل معوله بيده اليمنى، أما يده اليسرى فكانت ترافقه كضيفٍ ثقيل، لا
هي ميتة تماماً، ولا هي حية كما كانت.

كان يحاول أن يقبض بها على جذع شجرة... ؛ فتخذه... ؛ يحاول أن
يرفع دلواً من الماء... فتخذه... يحاول أن يربط حزمة حطب... فتخذه.

فبيتسم ابتسامة صغيرة ويقول: لا بأس... يدٌ واحدة تكفي إذا بقي القلب
سليماً... لكن قلبه لم يكن سليماً... ؛ كل ليلة، كان يزور نهر جاسم في
أحلامه... ؛ يرى كاظم يلوح له من بعيد، ويضحك ضحكته القديمة، ثم
يختفي داخل سحابة من الدخان... ؛ فيستيقظ قبل الفجر، ويخرج إلى فناء
الدار، ويجلس تحت شجرة التوت التي زرعها والده، ينظر إلى السماء حتى
يطلع الصباح...

كانت الحاجة زهراء تراقبه من خلف النافذة... ؛ تعرف أن ابنها لا ينام...
, وتعرف أن بعض الجروح لا يستطيع الطبيب الوصول إليها.
تزوج لافي من ابنة عمه **زينب**، وهي امرأة هادئة، صبورة، لم تكن ترى
في يده المصابة نقصاً، بل كانت تراها وساماً دفع ثمنه من شبابه.
وفي ليلة زفافه، همس له أحد أصدقائه: الله عوضك بعد الحرب.
ابتسم لافي وقال: الإنسان ما يتعوّض عن رفاقه...؛ بس يحاول يكمل
حياته حتى لا يخذل اللي استشهدوا.

رزقه الله ولدين وبنثاً... ؛ وكان كلما حمل طفله الأول بين ذراعيه، يتذكر

ذلك الجندي الشاب الذي أنقذه في الأرض الحرام.

ويقول في نفسه: "ربما لهذا أبقاني الله حيّاً."

أما **شافي**، فقد بقي في المؤسسة العسكرية سنوات طويلة... ؛ كان

يعود إلى البيت في الإجازات، وقد ازداد الشيب في رأسه، حتى قبل أن يبلغ

الخمسين ... ؛ كانت الحروب والمعارك والتحركات العسكرية قد أخذت

من عمره أكثر مما أخذت من شعره.

وفي إحدى الليالي، جلس الشقيقان فوق سطح الدار.

قال شافي وهو ينظر إلى السماء: تدري يا لافي... أكثر شي يوجعني ... ؛

شنو؟

- إن الناس يظنون الحرب انتهت.

سكت قليلاً ثم تابع: الحرب انتهت على الحدود... ؛ أما داخلنا، فهي

بعده مستمرة.

أوماً لاني برأسه.

لم يكن بحاجة إلى شرح.

مرت السنوات... ؛ وجاءت سنوات الحصار... ؛ تغيرت ملامح العراق...

؛ ازدادت الطواير أمام الأفران... ؛ وأصبحت الأدوية أغلى من قدرة

الناس... ؛ كانت الأسواق التي تعج بالحركة قد خفت ضجيجها، وأصبح

الأب يحسب ثمن الخبز كما كان يحسب سابقاً عدد الرصاصات...!!

كانت زينب تقسم رغيف الخبز إلى أجزاء صغيرة حتى يكفي الأطفال... ؛

وكان لاني يخرج فجراً ليعمل في أرضه، ثم يعود مساءً حاملاً ما تيسر من

الرزق.

قال له ابنه الأكبر يوماً: أبي... ليش إيدك ما تتحرك مثل إيدي؟

نظر إلى يده طويلاً.

ثم أجاب بابتسامة هادئة: لأن هاي اليد ظلت تحرس العراق أكثر من

اللازم.

لم يفهم الطفل... ؛ أما زينب... ففهمت... ؛ وأدارت وجهها حتى لا يرى أحد دموعها.

ثم جاء عام 2003... ؛ وفي أيام قليلة، تبدل وجه العراق مرة أخرى... ؛ سقطت الدولة والحكومة البعثية الصدامية الغاشمة ، وانفتحت أبواب الفوضى... ؛ اختفت وجوه، وظهرت وجوه... ؛ وانقسم الناس بين الخوف والانتظار.

أما طوزخورماتو، فقد بدأت تشعر بثقل موقعها الجغرافي، وبثقل التنوع الذي كان يوماً مصدر غناها، ثم حاولت السياسة أن تحوله إلى سبب للفرقة... ؛ لكن أهل المدينة كانوا يعرفون شيئاً واحداً: أن الدم الذي امتزج في الخنادق لا يمكن أن تفرقه خطابات السياسة.

كان لافي كلما سمع حديثاً عن الطائفية، يتذكر رفاقه... ؛ يتذكر عباس من العمارة... ، وسلمان الفيلي من خائنين... ، وجبار من الكوت... ، ويتذكر كيف كانوا يتقاسمون آخر جرعة ماء وآخر كسرة خبز.

فيقول: اللي شاف الموت ويّه أخوه... ؛ ما يسأل بعدين عن قوميته.

غير أن العراق بدأ يدخل حرباً من نوع آخر... ؛ لم تعد الجبهات واضحة... ؛ صار العدو يختبئ بين الأزقة... ؛ وصارت المفخخات تصل إلى الأسواق والمساجد... ؛ وصارت نشرات الأخبار تحمل كل يوم أسماء مدن جديدة تنزف.

وفي إحدى الأمسيات، كان لافي جالساً في دكان صغير يحتسي الشاي مع بعض رفاقه القدامى.

قال أحدهم: تتذكرون نهر جاسم؟

ساد الصمت.

ثم قال آخر: جان عبالنا تلك آخر الحروب.

أجاب لافي وهو يحدق في استكان الشاي: لا... الحرب ما تغيرت... اللي

تغير... إنها صارت أقرب إلى بيوتنا.

بدأت الأخبار القادمة من الموصل والأنبار وصلاح الدين تثير القلق.

تنظيمات تكفيرية واجنبية وطائفية محلية متطرفة تظهر هنا وهناك.

قرى تسقط... وأسر تنزح.

وكان لافي يشعر، دون أن يدري لماذا، أن العاصفة تتجه نحو مدينته.

وفي إحدى الليالي، خرج إلى سطح البيت... ؛ كانت طوزخورماتو

هادئة... ؛ الأضواء الصفراء تتناثر بين البيوت... ؛ وصوت الأذان يرتفع

من مسجد قريب.

نظر إلى المدينة طويلاً... ؛ ثم همس: يا رب... لقد أخذت الحرب منا

شبابنا... فلا تأخذ أبناءنا أيضاً.

لكن الريح التي مرت بين الأزقة تلك الليلة، كانت تحمل رائحةً عرفها

جيداً... رائحة البارود... الرائحة نفسها التي شمها قبل ثلاثين عاماً عند

ضفاف نهر جاسم... ؛ وحين هبّت الريح، شعر بأن الزمن لم يمضِ... بل

كان يدور في دائرة كبيرة، ليعيده مرة أخرى إلى النقطة التي بدأ منها كل

شيء...

الفصل السابع

****عندما عاد الظلام**

لم يبدأ الظلام يوم دخلت السيارات والرايات السوداء إلى المدن...؛ بل بدأ يوم اعتقد الناس أن الحروب قد انتهت.

في صيف عام 2014، كان العراق يستيقظ كل صباح على خبر سقوط مدينة جديدة...؛ مدينة تلو الأخرى... لوحة تلو الأخرى... وثكنة تلو الأخرى.

وفي المساء، كانت نشرات الأخبار تتحدث عن آلاف العائلات التي خرجت من بيوتها بتيابها فقط، تاركة وراءها العمر كله.

جلس ****لافي البياتلي**** أمام شاشة التلفاز، بينما كانت زوجته ****زينب**** ترتب أواني العشاء.

ظهر مذيع الأخبار بصوت متوتر: "سقطت الانبار..."

ساد الصمت.

لم يسمع أحد صوت المذيع بعد ذلك.

كانت الجملة وحدها تكفي.

رفع لافي رأسه ببطء.

قال: الانبار..

زينب، التي كانت تعرف زوجها أكثر مما يعرف نفسه، وضعت يدها على

كتفه.

. لا تفكر.

أجابها وهو ما يزال يحدق في الشاشة: المشكلة مو بالانبار... المشكلة

بالطريق بعدها.

خلال أسابيع قليلة، بدأت أخبار **تكرت** و**بيجي** وقرى محافظة

صلاح الدين تصل تباعاً.

صار الخوف يقترب من طوزخورماتو يوماً بعد يوم... ؛ كانت المدينة تدرك أنها ليست بعيدة عن الخطر... ؛ وفي الأسواق، تغيرت أحاديث الناس... ؛ لم يعودوا يتحدثون عن أسعار القمح أو مواسم الزراعة... ؛ صاروا يتحدثون عن الذخيرة... ، وعن السواتر... ، وعن الطرق التي قد يسلكها المسلحون والارهابيون إذا اقتربوا.

في إحدى الأمسيات، اجتمع رجال الحي في حسينية قديمة... ؛ لم تكن الدعوة رسمية... ، لكن الجميع حضر... ؛ كان بينهم شيوخ تجاوزوا السبعين، وشباب لم يبلغوا العشرين.

وقف أحد الوجهاء وقال: إذا وصلوا إلى طوز...؛ ما عدنا مكان نروحله ... ، هاي مدينتنا... ؛ إما تبقى إلنا... أو نموت بيها.

لم يعترض أحد.

كان القرار قد اتخذ قبل أن يُقال.

عاد لافي إلى بيته متأخراً.

وجد ابنه الأكبر، **علي**، ينتظره.

كان قد بلغ الثالثة والعشرين، طويل القامة، يشبه أباه في ملامحه، ويشبه أمه في هدوئه.

قال: بابا ... ؛ إذا صار قتال... أنه أطلع وياكم.

نظر إليه لاني طويلاً... رأى فيه نفسه قبل ثلاثين عاماً... , نفس الحماسة... ونفس البراءة... ونفس الاعتقاد بأن الحرب يمكن أن تكون قصيرة.

جلس إلى جواره... ؛ وقال بهدوء: تعرف شنو أصعب شيء بالحرب؟

أجاب علي: الموت؟

هز لاني رأسه.

. لا... ؛ أصعب شيء...؛ أنك تظل حي، وتشوف أصحابك يموتون واحداً واحداً.

سكت لحظة... ؛ ثم أكمل: الحرب مو بطولة يا ولدي...الحرب

خسارة... ؛ لكن إذا إجت لبيتك...ما يبقى عندك خيار.

خفض علي رأسه.

ولم يجب.

في صباح اليوم التالي، فتح لافي صندوقاً خشبياً قديماً كان موضوعاً في

إحدى زوايا المخزن... ، ظل مغلقاً منذ نهاية الثمانينيات... ، أزال الغبار

عنه... ، فتحه ببطء... ، كانت داخله خوذته القديمة... ، وحزامه

العسكري... وصور رفاقه... ، ورسالة كتبتها له أمه وهو في الجبهة... ؛

أخذ الرسالة... ، قرأها مرة أخرى... ، كانت الحروف قد بهت لونها... ،

لكن الكلمات بقيت حية : "يمه... إذا ضاقت عليك الدنيا، تذكر أن الله

يحفظ عباده الصابرين... ولا تجعل قلبك يقسو مهما اشتدت الحرب."

أعاد الرسالة إلى مكانها... ثم حمل الخوذة بين يديه... ؛ ظل ينظر إليها

طويلاً.

قال في نفسه: "ثلاثون سنة...وها أنت تعودين؟!!"

في المساء، طرق الباب...؛ كان الطارق **شافي**.

لكن الزمن لم يتركه كما كان...؛ اشتعل الشيب في رأسه كله... وصارت
التجاعيد تحفر وجهه... أما عيناه...؛ فما زالتا تحملان صرامة الضابط
القديم.

تعانق الشقيقان طويلاً...؛ ثم جلسا في الحديقة تحت شجرة التوت
نفسها.

قال شافي: استدعوني.

أجاب لافي: كنت أعرف.

ثم أضاف: وأنا أيضاً...

لن أبقى بالبيت.

نظر إليه شافي.

ثم إلى ذراعه المصابة.

. يدك...

أجاب لاني مبتسماً:

. اليد تعبت... بس القلب لا.

خلال الأيام التالية، بدأت المدينة تتحول إلى ورشة دفاع كبيرة... ؛

الشباب يحفرون السواتر... ؛ الحدادون يصنعون المتاريس الحديدية ... ،

وأصحاب الجرارات ينقلون أكياس الرمل والتراب مجاناً... ، حتى

النساء... ؛ كن يخبزن الخبز للمقاتلين، ويجمعن الأدوية، ويخطن الأعلام.

قالت امرأة عجوز وهي توزع الخبز: أيام الحرب الأولى كنا نرسل أولادنا

للجبهة... هالمة... الجبهة إجت إلنا.

وفي مساء قاتئ من شهر حزيران، وقف لاني فوق سطح منزله... ، كان

الأفق الجنوبي يشتعل بضوء الحرائق البعيدة... ، وسمع لأول مرة منذ ثلاثين

عاماً... صوت المدفعية... ؛ أغلق عينيه... ؛ عاد إليه نهر جاسم... ؛

وعادات الأرض الحرام... وعادات ضحكة كاظم... وعاد وجه أمه وهي
تنتظر عند الباب.

فتح عينيه ببطء... ثم نزل إلى غرفته... أخرج بزته العسكرية القديمة... مرر
يده على القماش الذي بهت لونه... ارتداها بصعوبة... كانت أضيق مما
كانت عليه في شبابه.

وقف أمام المرأة... ؛ لم يرَ الرجل الذي كانه عام 1987... ؛ رأى رجلاً
تجاوز الخمسين، يحمل في جسده آثار حربين، وفي ذاكرته قبور عشرات
الرفاق... ؛ لكن شيئاً واحداً لم يتغير... تلك النظرة التي يعرفها كل من قرر
أن يدافع عن أرضه مهما كان الثمن.

وفي فجر اليوم التالي، خرج من بيته... ؛ وقبل أن يغلق الباب، التفت إلى
زينب.

وقال بهدوء: لا أعرف إن كنت سأعود.

ابتسمت وهي تخفي دموعها.

. قبل ثلاثين سنة قلت الكلام نفسه... ؛ ورجعت.

اقترب منها... قبل رأسها... ؛ ثم احتضن أبناءه واحداً واحداً... ؛ ولما وصل إلى حفيده الصغير، حمله بين ذراعيه، وقبّل جبينه طويلاً... ؛ كأن قلبه كان يشعر أن هذه القبلة... قد تكون الأخيرة.

خرج إلى الزقاق... كانت سيارات المتطوعين تنتظر... ؛ وفي كل سيارة، كان يجلس رجل عاد من حرب قديمة، ومعه شاب يذهب إلى حربه الأولى... ؛ وكأن الزمن يعيد نفسه... لكن هذه المرة، لم تكن وجهتهم نهر جاسم... ، كانت وجهتهم... حدود ** طوزخورماتو. **

الفصل الثامن

** الرجال الذين لم يخلعوا خوذهم

لا يعود بعض الجنود إلى الحرب... بل تعود الحرب إليهم.

مع انبلاج فجر اليوم التالي، كانت حدود ** طوزخورماتو ** قد استيقظت على صوت لم تسمعه منذ سنوات... ؛ دوي المدافع... لم يكن بعيداً هذه

المرّة... , كان قريباً بما يكفي ليرتجف زجاج النوافذ، ولتستيقظ الأطفال

مدعورين، ولتفتح الأمهات الأبواب قبل أن يطرقها أحد.

وقف **لافي البياتلي** على الساتر التراي الذي أُقيم على عجل عند

المدخل الجنوبي للمدينة.

نظر حوله... ؛ لم يرَ جنوداً نظاميين كما كان الحال في نهر جاسم... ؛

رأى معلمين... وفلاحين... وأطباء... وعمالاً... وتجاراً... ورأى رجالاً

تجاوز بعضهم الستين من العمر... كلهم حملوا السلاح لأن المدينة لم تعد

تملك غير أبنائها.

اقترّب منه **شافي** وهو يحمل منظاراً عسكرياً قديماً... ناول المنظار إلى

أخيه.

قال: شوف... رفع لافي المنظار... كانت أعمدة الدخان ترتفع من القرى

القريبة... بيوت تحترق... وسيارات مدنية تهرب... وأناس يركضون في

الحقول حاملين أطفالهم... خفض المنظار ببطء.

همس: نفس المشهد... لكن هالمرّة أقرب.

قال شافي: الحرب إذا ما توقفها بعيد... راح توقفها بباب بيتك.

قبل الظهر بقليل، وصلت أولى العائلات النازحة... ؛ نساء يحملن أطفالاً
رضعاً... ؛ شيوخ يتكئون على العصي... ؛ وأطفال حفاة فقدوا القدرة
على البكاء... ؛ كانت إحدى النساء تحتضن مفتاحاً كبيراً مربوطاً بخيط في
عنقها.

سألها لافي: شنو هذا؟

أجابت وهي تنظر إلى الطريق الذي جاءت منه: مفتاح بيتنا... يمكن نرجع
يوم.

أطرق رأسه.

تذكر رجلاً قال الشيء نفسه قبل ثلاثين عاماً في الجنوب... ؛ واكتشف
يومها أن بعض المفاتيح تبقى سنوات تبحث عن أبوابها.

تحولت مدرسة "الإمام علي" إلى مركز لإيواء النازحين... كانت زينب مع
عشرات النساء يطبخن الطعام ويوزعن البطانيات... وفي زاوية من القاعة،
جلس طفل لا يتجاوز السابعة... لم يتكلم منذ وصوله.

اقترب منه لافي... جلس إلى جانبه.

قال مبتسماً: شنو اسمك؟

لم يجب.

أخرج لافي قطعة حلوى من جيبه.

ناولها إليه.

رفع الطفل عينيه لأول مرة.

كانت عيناه تشبهان عيون الجنود بعد المعارك.

قال بصوت خافت: بابا ظل هناك... لم يعرف لافي ماذا يقول... ربت

على رأسه فقط.

ثم نهض... وفي داخله عاد سؤال قديم: كم طفلاً تحتاج الحروب حتى
تشبع؟

في مساء ذلك اليوم، اجتمع قادة مجموعات الدفاع في مبنى البلدية... لم
تكن الخرائط كثيرة... ولا أجهزة الاتصال حديثة... ولا الذخيرة كافية...
لكن الإرادة كانت أكبر من كل نقص.

قال أحد الضباط: إذا سقط هذا المحور... راح يدخلون المدينة... وأشار إلى
الطريق الرئيسي.

رفع شافي رأسه.

. إذن... هنا نقاتل.

قال آخر: إلى متى؟

نظر لافي إلى الرجل.

ثم أجاب بهدوء: إلى أن يبقى خلفنا طفل واحد.

ساد الصمت.

لم تكن جملة حماسية... ؛ كانت حقيقة.

في اليوم الثالث، بدأ القصف يطال أطراف المدينة... ؛ سقطت أول قذيفة
قرب السوق القديم... ؛ احترق محل صغير لبيع الكتب... ؛ وقف لافي
أمامه بعد انطفاء النار... ؛ كانت الصفحات المحترقة تتطاير في الهواء... ؛
التقط كتاباً نصف محترق... نفخ عنه الرماد... قرأ عنوانه بصعوبة.

ابتسم بحزن.

وقال: حتى الكتب صارت تدخل الحرب.

مع غروب الشمس، وصلت أخبار استشهاد مجموعة من المتطوعين في
المحور الغربي... ؛ كان بينهم شاب اسمه **حسين**... ؛ لم يتجاوز
التاسعة عشرة... ؛ اقترب والده من جثمانه... ، جلس إلى جواره... لم
يصرخ... ، لم يلطم... ، وضع يده على جبين ابنه.

وقال بصوت هادئ: الحمد لله... سبقتني إلى الله.

ظل لاني يراقبه... ؛ ثم همس لشافي: شلون يتحمل الإنسان هيج ؟!

أجاب شافي: الإيمان... وكثرة الوجع... وأحياناً الاثنين معاً.

في تلك الليلة، لم ينم أحد... كان الرجال يتناوبون الحراسة... أما لاني، فجلس وحده فوق الساتر... رفع رأسه نحو السماء... لم تعد عيناه تريان النجوم... كان يرى وجوهاً... وجه كاظم... وجه عباس... وجه سلمان... وجوه الرفاق الذين تركهم في نهر جاسم.

قال بصوت خافت: يمكن لهذا السبب نجوت... حتى أكون هنا اليوم... ؛ سمع صوت خطوات خلفه... التففت... كان ابنه **علي**... جلس إلى جواره.

قال: بابا... إذا صار الهجوم باجر... خليني أكون يمك.

نظر إليه طويلاً... كان يرى فيه نفسه قبل ثلاثين عاماً... لكنه هذه المرة لم يكن أخاً... بل أباً.

قال بعد صمت طويل: إذا شفتني أوقع... لا ترجع إلي.

اتسعت عينا علي .

. مستحيل .

ابتسم لافي .

. هذا أول درس تعلمته بالحرب ... ؛ إذا رجعت إلي ... يمكن نموت اثنين .

انحنى علي ، وقبّل يد أبيه اليمنى ... ؛ أما اليسرى المشلولة ، فأمسكها برفق ،

ثم قبلها أيضاً .

وقال : هاي اليد علمتني شنو يعني الشرف .

ارتجف قلب لافي ... وأدار وجهه نحو الظلام حتى لا يرى ابنه الدموع التي

تجمعت في عينيه .

وقبل طلوع الفجر بدقائق، دوى صوت انفجار هائل هز المدينة
بأكملها... ؛ أعقبه إطلاق نار كثيف من المحور الجنوبي... أمسك شافي
جهاز اللاسلكي.

جاءه صوت متقطع: العدو... بدأ الهجوم... كرر... بدأ الهجوم.

نحض الرجال دفعة واحدة... حمل كل منهم سلاحه... ولم يعد بينهم من
يفكر في النجاة... كانوا يفكرون في شيء واحد فقط... أن تبقى
طوزخورماتو واقفة عندما تشرق الشمس... ومن خلف السواتر، كان
لافي يشد خوذته القديمة فوق رأسه... الخوذة نفسها التي حملها في نهر
جاسم قبل ثلاثين عاماً.

ابتسم ابتسامة هادئة.

وقال لنفسه: "يبدو أننا سنعبث الأرض الحرام... مرةً أخرى."

الفصل التاسع

**الطريق الأخير

ليست كل الطرق تؤدي إلى المدن... بعضها يقود إلى الخلود.

قبل أن تشرق الشمس، كانت السماء فوق **طوزخورماتو** مشتعلة بلون
أحمر قاتم... لم يكن لون الفجر، بل لون القذائف التي كانت تشق العتمة
ثم تنفجر على أطراف المدينة... ؛ وقف **لافي البياتلي** خلف ساتر من
أكياس الرمل، يتفقد الرجال واحداً واحداً... لم يعد يرى فيهم متطوعين...
كان يرى آباء تركوا أبناءهم نائمين... وشباباً لم يكتبوا بعد أول رسالة
حب... وشيوخاً عادوا يحملون السلاح بعدما ظنوا أن أعمارهم انتهت مع
الحرب الأولى.

قال بصوت هادئ: اليوم لا أحد يقاتل حتى يصير بطلاً... كلنا نقاتل حتى
لا تصبح بيوت أهلنا ساحة معركة.

هز الرجال رؤوسهم... ؛ لم يكن بينهم من يبحث عن بطولة... كانوا
يبحثون عن وطن صغير اسمه البيت.

بدأ الهجوم مع أول ضوء... تقدمت العربات المسلحة تحت غطاء كثيف
من النيران... اهتزت الأرض كما اهتزت قبل ثلاثين عاماً في نهر جاسم...
لكن الفرق هذه المرة أن خلف لافي لم تكن صحراء... بل كانت المدينة...
كان يسمع أصوات الأطفال المختبئين في الأقبية... وكان يعرف أن كل
متر يتراجع عنه، يعني اقتراب الموت من باب أحد البيوت.

صرخ شافي: لا تطلقون حتى يقربون.

انتظر الرجال... كانت الثواني تمر ببطء قاتل... اقتربت العربات أكثر...
ثم أكثر... حتى أصبح بالإمكان رؤية وجوه من فيها... رفع شافي يده.

. الآن!

انفجر خط الدفاع كله دفعة واحدة... تعالت أصوات البنادق والرشاشات
والقاذفات... واختلط الدخان بالغبار... وسقطت أول عربة عند مدخل
الطريق... لكن الهجوم لم يتوقف.

في الجهة اليسرى، كان **علي** يقاتل إلى جانب أبيه... رآه لافي يبدل

مخزن بندقيته بسرعة.

ابتسم رغم القتال.

"تعلم بسرعة..."

قالها في نفسه... ثم عاد يركز على الجبهة... وفجأة دوى انفجار هائل...

تطايرت الحجارة والتراب... وسقط علي أرضاً... قفز قلب لافي... ركض

نحوه دون تفكير... وصل إليه... ؛ كان مصاباً بشظية في كتفه.

فتح علي عينيه.

ابتسم.

. لا تخاف... بعديني حي.

أغلق لافي عينيه لحظة، ثم قال :الحمد لله... ؛ ربط الجرح بسرعة، وسلمه

إلى المسعفين.

وقبل أن يعود إلى موقعه، أمسك علي بيده.

. بابا ..

ابتسم.

- اليوم فهمت ليش رجعت حتى تنقذ ذاك الجندي قبل ثلاثين سنة.

سكت قليلاً.

ثم أضاف:.. لأن الإنسان... يبقى إنسان حتى بالحرب.

تركه لافي وعاد إلى الساتر... وكان يشعر أن ابنه لم يعد ذلك الشاب الذي

خرج معه قبل أيام... ؛ لقد كبر في ساعات... ؛ كما كبر هو ذات ليلة

عند نهر جاسم.

اشتد القتال مع حلول الظهيرة... ؛ بدأت الذخيرة تنفد... وأخذ

المسعفون يركضون أكثر من المقاتلين... ؛ وفي إحدى الزوايا، سقط شاب

وهو يصرخ: مي...

تجمد لافي... ؛ الكلمة نفسها... ؛ النبرة نفسها... الصوت نفسه الذي

سمعه قبل ثلاثين عاماً في الأرض الحرام.

نظر إلى شافي... ؛ ونظر شافي إليه... ؛ فهم كل منهما ما يدور في قلب

الآخر.

قال شافي بحزم: لا... هذه المرة أروح أني.

انطلق لافي اليه وزحف بين الرصاص... ؛ وصل إلى الشاب... كان

النزف شديداً.

رفع رأسه.

قال الشاب: لا تتركني...

ابتسم لافي.

. وعد... ما أخليك... حمله على كتفه اليمنى... وبدأ يعود به... ؛ كان

الرصاص يضرب الساتر من حوله... وفجأة... ؛ أصابت رصاصة

خوذته... ؛ مالت إلى الجانب... ؛ لكنه واصل السير... ؛ ثم جاءت

رصاصه ثانية... ؛ استقرت في صدره... ؛ توقف... ؛ نظر إلى الدم الذي بدأ ينتشر على بزته.

ابتسم ابتسامة صغيرة... ؛ وقال بحدوء: الحمد لله... وصلنا ... ووضع الشاب خلف الساتر... وفي اللحظة نفسها، انهارت ركبته... ؛ ركض شافي نحوه... ؛ احتضنه... ؛ كان الدم يملأ يديه.

صرخ: مسعف!

لكن لافي أمسك بيده.

. لا... خلهم للجرحى.

قال شافي وهو يبكي: اسكت... راح تنجو.

ابتسم لافي.

. تتذكر... شنو گلتلي بنهر جاسم؟

ارتجف صوت شافي.

. شنو؟

. گتلي... لا تخلي الخوف يدخل قلبك بآخر لحظة.

أطرق شافي رأسه.

لم يعد قادراً على الكلام.

اقترب علي وهو يضغط على جرح كتفه... ؛ جلس عند قدمي أبيه.

قال باكياً: ساحني... ؛ ما كدرت أحملك.

رفع لافي يده اليمنى بصعوبة... ؛ وضعها على رأس ابنه.

. لا تبكي... الرجال... ؛ يموتون حتى يعيش أولادهم.

ثم نظر إلى المدينة... ؛ كانت المآذن ما تزال قائمة... وأعمدة الدخان

ترتفع بعيداً عن مركزها.

ابتسم.

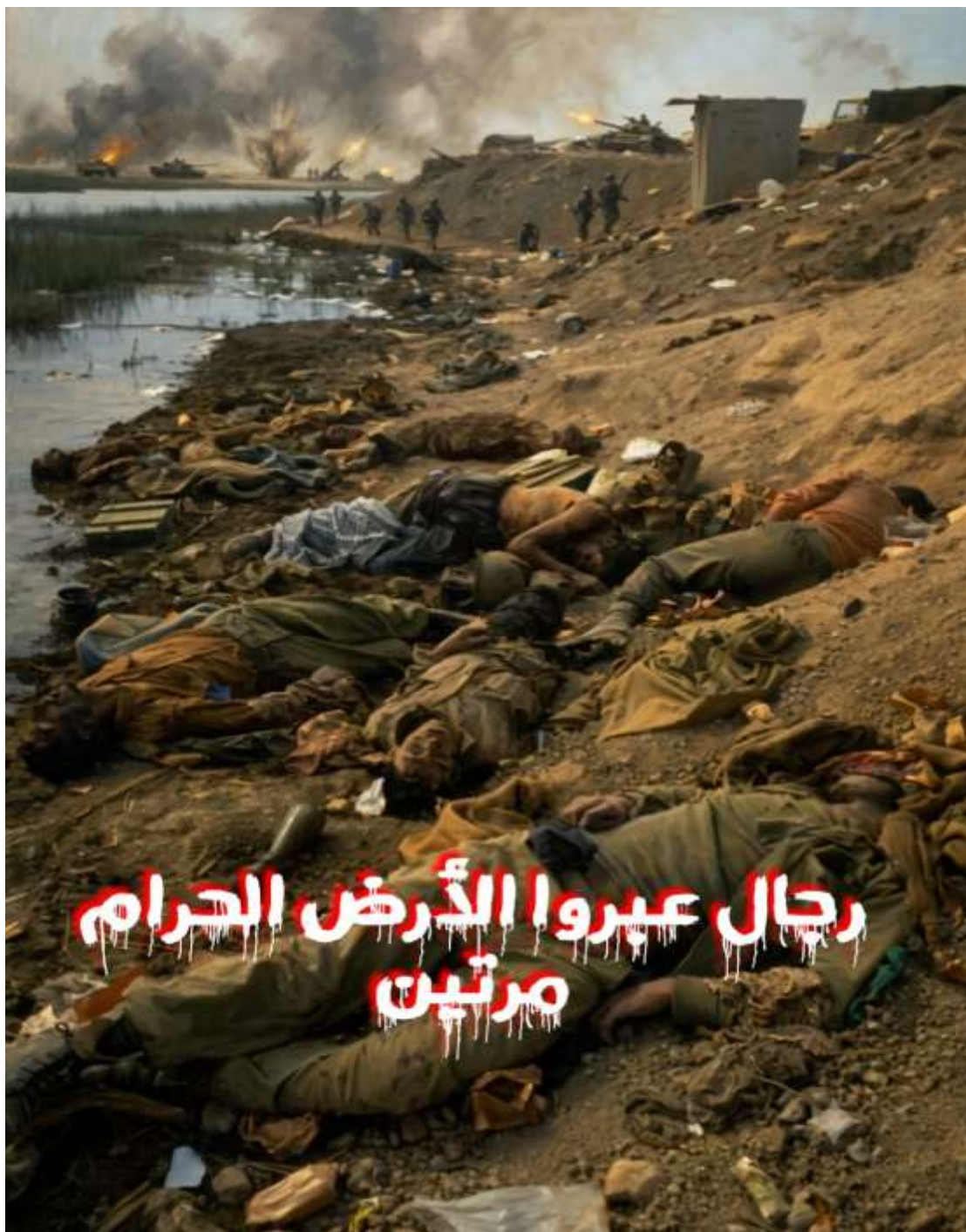
قال بصوت خافت: الحمد لله... بعدها واقفة.

بدأت أنفاسه تضعف... ؛ رفع عينيه نحو السماء... ؛ لكن ما رآه لم يكن
السماء... ؛ رأى شجرة التوت في بيتهم... ؛ ورأى أمه زهراء تناديه إلى
الغداء... ؛ ورأى كاظم يضحك، حاملاً طبق الدولة الذي وعدهم به...
؛ ورأى رفاق نهر جاسم جميعاً، يقفون على ضفة نهر هادئ، يلوحون له.
ابتسم.

وهمس: تأخرت عليكم... ثم أغمض عينيه... لآخر مرة.
ساد الصمت للحظات... ؛ حتى المدافع بدت كأنها ابتعدت... ؛ غطى
شافي وجه أخيه بالكوفية التي كان يحتفظ بها منذ زمن طويل .
وقف ببطء... رفع بندقيته... ؛ وقال للرجال:
. لا في أدى واجبه...والآن...دورنا.... نخض الجميع... ولم يعد أحد يفكر
في نفسه... ؛ قاتلوا حتى غروب الشمس... ؛ وعندما انسحب المهاجمون
عن أطراف المدينة، كانت **طوزخورماتو** لا تزال واقفة.

لكنها كانت قد دفعت ثمن بقائها من دماء أفضل رجالها... ؛ وفي المساء،
حين عاد الأهالي إلى الشوارع، مروا بجانب الساتر الذي سقط عنده
لافي... ؛ كان التراب ما يزال مبللاً بدمه... ؛ اقترب طفل صغير لا
يعرفه... ؛ التقط خوذته القديمة.

نظر إليها طويلاً... ؛ ثم وضعها فوق الساتر باحترام... ؛ وكأن المدينة
كلها... كانت تؤدي التحية الأخيرة لرجلٍ عبر **الأرض الحرام** مرتين...
وعاد منها شهيداً.



هاربة إلى حيث لا نجا (44)

كانت "إخلاص" تحمل في سحتها السمراء مأساة جيل كامل؛ بشرة بلون
أرض "الكوت" الطينية، لكنها في عيون مجتمعها كانت وسمّة عار
ونقص... هربت من نظرات الازدراء، باحثة عن مأوى، وفي عمق تيهها،
كانت ترى في الرجل الأبيض كائناً نورانياً، ملاكاً قادماً من سماوات متعالية
لا تطالها يدها المجعدة.

كانت تسمع منذ طفولتها كلماتٍ تنغرس في قلبها كالإبر: "سوداء ..
وصيفة" ... "عبدة" ... "ليست مثلنا" ... ومع مرور السنين، صدّقت ما
قيل عنها أكثر مما صدّقت صورتها في المرآة...

وفي أزقة الكوت الضيقة، حيث تتعانق البيوت مع سماء تتوسد الغبار،
كانت إخلاص تركض كل صباح نحو سطح الدار... تركض لا لأنها تحب
نشر الغسيل، بل لأن السطح كان مملكتها الوحيدة، متنفسها من عالم

يذكرها كل لحظة أن بشرتها السوداء حكمٌ مؤبد، وأن ملامحها الزنجية قيدٌ لا فكاك منه.

كانت عيناها تلمعان كلما رآته... غني (المطيرجي) ، ابن العشرين عاماً، الأبيض البشرة، ابن عم شيخ العشيرة... كانت تراه ملاكاً هبط من سماء لا تستحقها، وكان يراها قارب نجاة من بحر عادته السرية التي ابتلعته سبع مرات في اليوم الواحد احياناً !!...

على الجانب الآخر من السطح، كان "غني" مسكوناً بشبق حارق يلتهم روحه.. شاب عازب، محاصر برغباته الجسدية.. بالنسبة لغني، لم تكن إخلاص بشراً، بل كانت "قارب نجاة" قذف به الموج أمام شبقه المستعر.

كلما صعدت إخلاص لتنشر الغسيل تحت اشعة الشمس، كان غني يتربص بها، ينسج من الكلمات شباكاً حول جسدها المستضعف:

* "إخلاص... أيتها الساكنة في عتمة الليل، كم أنت جميلة!"

ترد بنبرة ممزوجة بالخوف والعتاب: "أما في قلبك حياء يا غني؟"

فيتلوى مبرراً: "وهل التعبير عن الإعجاب خطيئة؟"

كان أول رجل ينظر إليها بعينين لا تشبهان عيون الآخرين... أو هكذا ظنت.

قال لها يوماً: الناس يرون اللون، أما أنا فأراك انت ...

كانت تلك الجملة كافية لتفتح له أبواب قلبها.. الإنسان الذي حُرم طويلاً من الاعتراف، يصدق أول من يمنحه قليلاً من الدفء.

شيئاً فشيئاً، بنى حولها عالماً من الوعود.. بيت صغير.. حياة جديدة.. زواج يطوي صفحات الإهانة.. لكنها لم تكن تعلم أن بعض الناس بينون الأحلام كما يبني الصياد الشباك...

لم يكن غني ليتراجع؛ فالصيد يبدو سهلاً لولا جدار الخوف.. بدأ يعزف على وتر الأمل، منّاها بالزواج وبيت يجمع شتاتها.

سألته ذات ليلة بنبرة منكسرة: "أحقاً ما تقول؟ أنت غني الأبيض، وريث
الوجاهة وابن أخي شيخ العشيرة... كيف لأهلك أن يرتضوا بامرأة سمراء،
جارية (وصيفة) في عيوتهم؟"

أجابها بزيف متقن: "كفى يا إخلاص، كلنا عبيد لرب واحد."
تنهدت قائلة: "ونعم بالله، لكن الأعراف في هذه الأرض أشد قسوة من
الموت."

فقاطعها بثقة مخادعة: "لا تلتفتي للعالم، أنتِ عالمي وحسبي."

اخلاص : "نعم، لكن هذه أعرافٌ ظالمة."

غني : "لا عليكِ، أنتِ بالنسبة لي كلُّ العالم، ولا شأن لي بأحدٍ."

آمنت به... كيف لا تؤمن بمن مدَّ إليها يداً وهي تغرق في مستنقع النبد
والعزلة؟

مع تلاحق الأيام، استحال السطح مسرحاً للجريمة الصامتة... كان غني
يقفز الحائط في عتمة الليل، يتسلل كظل بري، ويبدأ باقتحام خلوتها...

في البدء كانت تقاوم قبلاته العنيفة، لكنه رويداً رويداً بدأ يروض جسدها،
يلمس مواضع ضعفها حتى تتخدر مشاعرها وتغيب عن الوعي بين يديه،
مستسلمة لطقوسه الخاصة التي كان يفرغ فيها شهوته على جسدها،
مستغلاً يدها أحياناً لتلبية رغباته اللاهثة... ؛ لا تدري أفي حلم هي أم في
كابوس... كان يمارس عليها عادته السرية، يقذف على جسدها، وأحياناً
يأمرها هي أن تدلك قضيبه بيدها الصغيرة المرتجفة...

ولم يقف الشبق الجنسي عند هذا الحد؛ إذ دفعه هوسه التجريبي إلى
استخدام العقاقير والموسعات والمخدرات الموضعية ، ليتجراً على اقتحام
جسدها من الباب الخلفي... ؛ صرخت إخلاص صرخة مزقت سكون
الليل، إلا أن كفه الغليظة كانت أسرع لكتم أنفاسها، ولم يرفعها حتى أفرغ
شهوته في أحشائها.

تركها تتلوى كطير مذبوح، تنزف دماً وألماً، عاجزة حتى عن الجلوس من
شدة التمزق... لكن الفلسفة الإنسانية تحب في طياتها غرابة غير مفهومة؛
فبعد أسبوع من الوجد المبرح، استيقظ في داخل إخلاص دافع غامض،

رغبة سيكولوجية ملحة تدفعها لتكرار التجربة رغم الألم، كأن ذلك
الانتهاك صار حاجة وجودية للارتواء، أو لعلها اللذة المازوخية الكامنة التي
تولد من رحم القهر والعنف الصارم، حيث تشعر الضحية بوجودها فقط
تحت وطأة الجلاد...!!

صارت إخلاص تسعى إليه بقدميها... ؛ كأن دبرها أرضٌ جذباء تحتاجُ
إلى مطر، أو كأن شيئاً في داخلها يصرخ: "ارتو"... ؛ صارت هي التي
تذهب إليه، وكان يطير فرحاً، ينكحها ثلاثاً إلى ست مرات في اليوم، حتى
أقلع عن عاداته السرية... ؛ فقد وجد في جسدها متسعاً لكل ظمئه .

"أصحيح أن ممارسة الجنس من الفرج أطيب؟"، سألته يوماً.

غني : "لا مقارنة بينهما."

اخلاص : "إذن ما الذي يمنعك؟"

غني : "غشاء بكارتك... وإذا حملت، سيقتلوننا."

اخلاص : "عمك شيخ، من يجرؤ على قتلك؟ وهناك أطباء يعيدون

الغشاء، وهناك حبوب لمنع الحمل. ثم ألم تعدني بالزواج؟"

صمت برهة، ثم ابتسم: "متى يفرغ بيت أهلك؟"

اخلاص : "بعد ثلاثة أيام، يذهبون إلى البصرة."

وافق غني بعد أن لاحت له فرصة الاستباحة الكاملة... انتظرا رحيل أهلها

إلى البصرة، وبعد ثلاثة أيام ؛ قفز إلى دارهم ... ؛ هناك، فض بكارتها

في غمرة من الدماء والألم، ومارس معها الجنس بلا رحمة من الصباح الباكر

حتى مغيب الشمس... ؛ أغمي عليها مرتين من فرط الإعياء، فكان

يوقظها بنضح الماء البارد على وجهها، ويسقيها عصير الليمون، لا رافة

بها، بل ليعيد الآلة الجسدية إلى العمل.

استمر هذا الجحيم أشهراً، حتى بدأت أحشاؤها تبرز، ونبهتها صديقة لها

بعلامات الحمل... تملك الرعب قلبها، وجاءت إليه باكية تندب مصيرها:

"غني، أرجوك... دبر لي مخرجاً، بطني تكبر والموت يتربص بي."

طمأنها بـجـبـث: "سنرحل بعد يومين إلى بغداد لنتزوج هناك سرّاً، لكن إياك

والبوح لأحد."

في بغداد، واجهت إخلاص فصلاً جديداً من التيه...؛ أخذها إلى شقة في

البتاوين، مكث معها ثلاث ساعات فقط، ثم رحل، تاركاً إياها مع

صديقه حميد الشرطي.

اخلاص : "أين تذهب يا غني؟"

غني : "شغلة ضرورية، أعود قريباً.. حميد مثل أخي فلا تخافي..."

وعندما حملت بين يديها مستقبلها كله، حمل هو حقيقته واختفى.

تركها في مدينة لا تعرفها، ووعداً لم يعد له صاحب.

عاد غني إلى الكوت ليحمي نفسه، وانقطعت جبال وصاله... ؛ بدأت
إخلاص تبكي وتستفسر، فكان حميد الشرطي يواسيها : "الغائب عذره
معه، ربما سُجن أو قُتل."

إخلاص : "ما عندي حظ، أحببته ووعدني فخاني."

حميد الشرطي : "لا عليكِ، ربُّكِ كريم."

بكت حظها العاثر وعشقها الزائف... ؛ وفي ليلة غاب فيها وعيها تحت
وطأة الخمر الذي سقاه إياها حميد الشرطي ، استباح الأخير جسدها
المثقل بالحمل، واستمر على هذا النحو شهراً كاملاً.

ولم ينتهِ السقوط هنا؛ إذ تحول حميد إلى قواد، يعرض جسد إخلاص على
شباب المنطقة والاصدقاء والاصحاب لقاء دنائير معدودة...

وبعد أشهر من الامتحان، خضعت لعملية إجهاض قاسية أودت بجنينها
وبتلك البقية الباقية من أنوثتها... ؛ هربت من شقة حميد، لتلتجئ إلى

العشوائيات البعيدة في الجانب الشرقي من بغداد ، هناك حيث لا أسماء
ولا كرامة.

أصبحت إخلاص مشاعاً لفقراء الحي ومهمشييه؛ يأخذها شاب لبضعة أيام
يطعمها ويؤويها مقابل جسدها، ثم يسلمها لآخر... وهكذا، في دوامة لا
تتوقف.

دارت إخلاص بين الأحضان والبيوت كعملة رخيصة متداولة، حتى
انمحت ملامحها القديمة تماماً... لم تعد تلك الفتاة السمراء الحاملة الهاربة من
الكوت، بل غدت كائناً مشوهاً، بلا ماضٍ، بلا مشاعر، وبلا روح؛ جسداً
يسير بقوة الدفع الوجودي نحو الفناء التام.

لم تعد إخلاص... تلك الفتاة التي كانت تنظر إلى السماء، التي كانت تحلم
بملاك أبيض ينقذها، ماتت في مكان ما بين الكوت وبغداد. ما تبقى منها
كان جسداً يتنفس، جسداً صار وطناً للغرباء، مرقدًا لكل عابر سبيل.

في الليل، حين يهدأ كل شيء، كانت تسمع صوتاً في أعماقها، صوت فتاة

صغيرة تسأل: "أين الطريق إلى البيت؟"

لكنها نسيت العنوان. نسيت كل شيء، إلا ذلك الألم الأول، تلك الجمرة

التي أشعلها غني في خاصرة روحها، الجمرة التي حولتها إلى رماد، ثم إلى لا

شيء.

وهكذا، بين ازقة الكوت وبيوت العشوائيات في بغداد، ضاعت امرأة لم

يجدها أحد... امرأة ابتلعها الليل، ولم يخرج من جوفه إلا أصداً بكاء لا

يسمعه أحد.



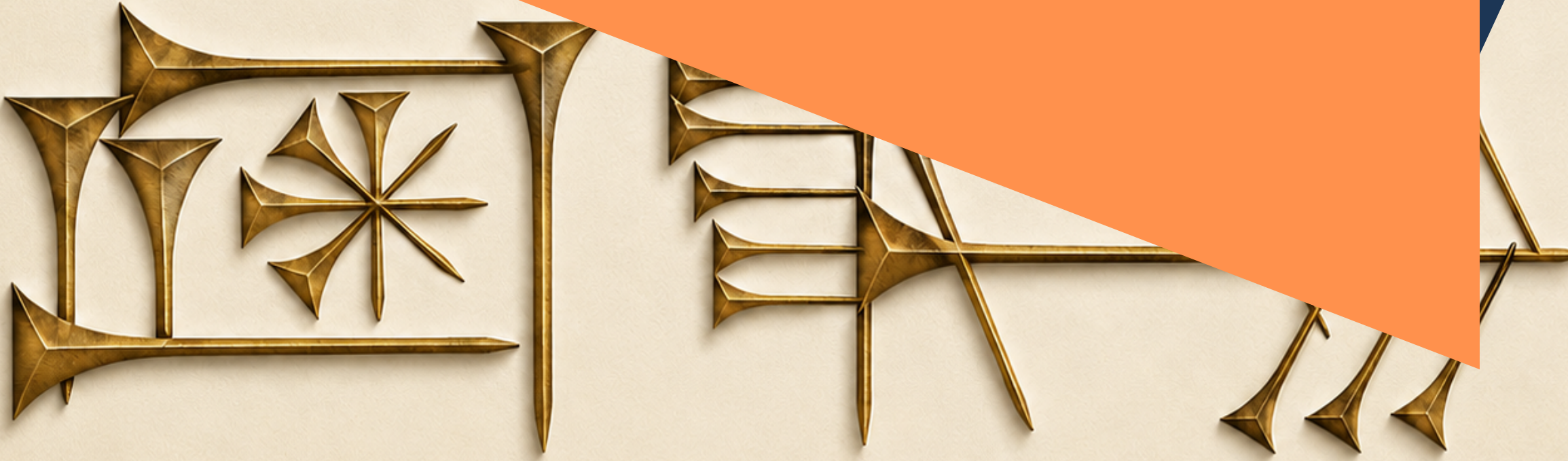
الفهرس

1	مقدمة
6	الناجون الذين لم ينجوا (1)
31	الجار الكلب والكلب الجار (2)
47	البيت بعد كاظم (3)
65	أطياف في مرقد الامام الكاظم (4)
76	أطياف اللقاء في مملكة الظل (5)
88	أشباح تمر عبر شاشات العالم الافتراضي (6)
102	كابوس الثعابين السبعة (7)
112	ارتباك البدايات (8)
117	أذبحني أولاً ثم أقطع يدي يا أخي !! (9)
131	ابن الربيع الذي ضاق بالأرض (10)
150	إبراهيم الكوفي: الرجل الذي نسي أن يعيش لنفسه (11)
172	دفتر لم يعد صاحبه (12)
178	ترانيم اليتيم المزدوج (13)
185	بين الرغبة والهاوية (14)
206	بلاد الرافدين علوية.. ولو كره المنكوسون (15)
215	القارئ الوحيد (16)
228	العائد من معركة الحمرة (17)
243	الشهادة الأخيرة (18)
256	الحمامة التي أخطأت الطريق (19)
264	الجائعون (20)
276	ضحكة بلهاء في زمن حكم المهجناء (21)
291	صرخة محمد... وسقوطنا جميعاً (22)
301	سعدية في قبضة العتمة (23)

314	خالة انا دخيلة (24)
343	حين يختبر الذِّكْرُ القلب (25)
348	حين تعود الوجوه بلا ذاكرة والنفوس بلا عاطفة (26)
355	وحشة الحراب ونفاق المفذنة (27)
394	وادي الهلاك (28)
417	نعيّ على جناحيّ ططوة (29)
423	نسخة من أبيه (30)
427	من رأى وجهي ثانيةً (31)
430	قفل الروح (32)
441	في انتظار المحرقة السماوية (33)
452	ظَلّان على طريق الغبار (34)
466	شهوة الجسد الاخيرة وقيامه الروح (35)
486	مرايا القلق (36)
493	أبناء المحسوبيات والذنوات ... وأبناء الخنادق والجبهات (37)
581	البيت الذي ضاق بثلاثة قلوب (38)
610	تراتيل الطين والحريز (39)
624	نُثار الرصيف (40)
633	موعدُ الأسبوع (41)
650	خريف الدِّمَم (42)
722	رجالٌ عبروا الأرض الحرام مرتين (43)
823	هاربة إلى حيث لا نجاة (44)

رياض سعد

كاتب وباحث وقاص عراقي، ولد في بغداد عام ١٩٧٣. أسهم في تأسيس عدد من المنظمات المدنية والإنسانية والثقافية كمنتدى المثقف العراقي ومؤسسة الروض الإنسانية، وغيرهما. مارس التدريس لسنوات طويلة، وهو عضو نقابة المعلمين العراقيين؛ واتحاد الصحفيين العراقيين؛ ونقابة الصحفيين العراقيين. أنشأ موقع صوت الأمة العراقية، وأشرف عليه؛ ونشر عبر مسيرته مئات المقالات والدراسات في التاريخ والفكر والسياسة والاجتماع والدين...؛ فضلا عن عشرات القصص والومضات الأدبية والخواطر. تنطلق كتاباته من هاجس الإنسان والهوية والوعي الاجتماعي والسياسي؛ وتمزج بين التأمل الفكري والفلسفي والبناء السردى والأسلوب الأدبي...؛ في محاولة دائمة لقراءة الواقع واستكشاف أسئلته العميقة.



الرقيم السومري

— للنشر والتوزيع —

Scriptum Synthesis Publisher (SSSP)

+964 0777 52 62 892

IRAQ - DAIYALA - BAGHUBA

ISBN: 978-9922-5524-60

email : manager@sss-publisher.com

<https://doi.org/10.62909/978.9922.5524.60>

Sumerian scriptum synthesis publisher (SSSP)